

د. منصور خالد



تقديم:ـ
جمال محمد أحمد

2010


حوار مع الصفوة
د. منصور خالد


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

د. منصور خالد





حوار مع الصفوة

المؤلف: د. منصور خالد

الناشر



الخرطوم ـ العمارات
شارع 41 من محمد نجيب
ت: 0122102076

التنفيذ الداخلى

عفت إبراهيم

خطوط الغلاف

الفنان التشكيلى: تاج السر حسن

رقم الإيداع: 2010/14297

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٧٤م، أى قبل ستة وثلاثين حولا متضمنًا مقالات نشرت، على التوالى، فى أعوام ١٩٦٥م (عقب انتفاضة أكتوبر)، ١٩٦٨ (فترة الديموقراطية الثانية وحل الحزب الشيوعى)، و١٩٦٩ (قبيل انقلاب مايو). تلك الإضمامة من المقالات ما كنت لتجلى على الناس فى كتاب لولا إلحاف صديقين للكاتب رحلا عن دنيانا: جمال محمد أحمد الذى قدم للكتاب، وعلى الملك الذى تولى الإشراف على إصداره من بين منشورات دار التأليف والترجمة والنشر بجامعة الخرطوم، وكان يومذاك واليًا على أمرها. ولعل من بين أسباب عزوف الكاتب عن، أو بالأحرى تردده فى، نشر الكتاب يومذاك القسوة التى شابت نقده لما نَقَد ومن نَقَد. تلك القسوة التى لم تكن وليدة غيظ حنيق، أوعداوة مضمرة، وكيف يكون غيظ أو حنق أو عداوة نحو أنظمة تربى الكاتب فى كنفها، وقيادات فكرية وسياسية تعلم منها الكثير.

المقالات فى حقيقتها، كانت محاولة لنقد الواقع على ضوء المعارف والتجارب التى اكتسبها الكاتب فى عقد من الزمان قضاه خارج السودان طلبا للعلم (الولايات المتحدة، فرنسا)، أو لمتطلبات الوظيفة (الأمم المتحدة بنيويورك، برنامج الأمم المتحدة للتنمية بالجزائر، منظمة اليونسكو بباريس). ولا يستقيم نقد الواقع إلا بتفكيك عناصره وتحليل مكوناته. التفكيك والتحليل، بطبعهما قد يقودان إلى هز الثوابت النظرية، أو إعادة النظر فى المفاهيم، أو استصواب ما حُسب خطأ فيما قبل. كما أن

الابتعاد الحسى عن الأحداث المباشرة يتيح للرائى نظرة بانورامية للمشهد لا يراها الآخرون.

لقد أتاحت الظروف للكاتب، وهو فى شرخ الصبا، محاياة تجارب تاريخية هامة كان لها أثر عميق على نظرته للأمور. على رأس تلك التجارب تجربة الثورة الجزائرية غداة إعلان استقلالها، وتجربة التحول الاجتماعى فى الولايات المتحدة الذى فجره الرئيس جون كنيدى، خاصة فيما يتعلق بالحقوق المدنية، ثم تجربة ثورة الربيع الشبابية فى باريس، ومن المدهش أن يتعلم ذلك الشاب الوافد من قلب أفريقيا عن قارته الأم فى ضفتى المتوسط ما لم يتعلمه فى السودان. الجزائر فى وهج تألقها الثورى فى مطلع الستينيات كانت هى المثابة التى يتلاقى فيها الآباء المؤسسون للتحرير الأفريقى: أحمد سيكوتورى، مادبو كيتا، أميلكار كابرال، أوغسطينو نيتو، والقائد المؤسس كوامى نكروما، ولعل فى الفصل الذى تضمنه هذا الكتاب عن ذلك القائد الصنديد ما يبين شيئًا عن دواعى تقدير الكاتب لتلك القيادات وعلى رأسها نكروما الذى سعى الغرب لتلويث اسمه وسمعته بنسبته إلى الشرق وكان من الشرق والغرب على بعد متساوى (equidistant). قال عند لحاقه برفاقه الأول فى منظومة عدم الإنحياز: نهرو، سوكارنو، تيتو، عبد الناصر: «نحن لا نتجه شرقًا أو غربًا بل ننظر إلى الأمام» (We face neither East nor West. We face forward) ذلك الفصل كغيره من الفصول. نشر بدءا فى مجلة الطليعة القاهرية عقب سقوط نكروما بدعوة من صاحبها الصديق الراحل لطفى الخولى. وما فتئ أهل أفريقيا يسترجعون ذكرى ذلك القائد، ففى الاستفتاء الذى أجرته هيئة الإذاعة البريطانية على عينة عشوائية من الأفريقيين فى مطلع الألفية الثالثة عمن هو أهم قائد أفريقى فى القرن العشرين إستقر رأى الأغلبية على اسم كوامى نكروما.

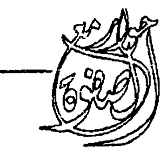
على الشط الآخر من البحر تعرف الكاتب على الجذور الفكرية للحضارات الأفريقية فى «مؤسسة الحضور الأفريقى» (Presence afrcaine) التى مكنت القارئين من الإطلاع على الآثار الإنشائية والبحثية لليوبولد سيدار سنغور، شيخ أنتا ديوب،

هامباتى با، وعالم الإجتماع الفولتى كى زيربو. بل أن بعضًا من هؤلاء (شيخ انتا ديوب وسنغور) رد تلك الحضارات إلى أصول نوبية، أى سودانية، الباحثون السودانيون «الأفارقة» ربما باستثناء الأستاذ جمال محمد أحمد، لم يعنوا بآداب وحضارات أفريقيا، كما لم تعن بتدريسه للصغار أو الكبار مؤسسات التربية، وكيف لها أن تفعل، إن كانت الحضارات السودانية النوبية نفسها وقد استحالت إلى تحف أثرية.

فى بلاده لُقن الكاتب منذ الصغر أنه ينتمى إلى «أمة أصلها للعرب، دينها خير دين يحب». ذلك كان هو نشيد مؤتمر الخريجين، حادى الركب، وكان صائغه سودانى من أصل نوبى. لا نقول أنه كان حَرِيّاً بذلك الشاعر أن يمجد أصله العرقى النوبى ويترك ما عداه، بل نقول كان الأقمن به هو الاحتفاء باستعراب أهله/ أهلنا وتمسلمهم دون أن يطمس نوبيته. ذلك كان هوالصدام الحضارى الأول الذى اعتمل فى دواخل الكاتب فى شبابه دون أن يزلزل أركان يقينه. فبما للكاتب من ألواذ فكرية ووجدانية يعتصم بها وفقه الله إلى تصالح مع النفس بحيث لم يتحول إنتماؤه الثقافى العربى إلى استعلاء عرقى، أو يقوده إتخاذ الإسلام دينًا إلى طهرانية كالفينية تغمط الناس أشياءهم، أو تُنجِّسُهم.

الناس دومًا أحباء لما ألفوا، وأعداء لما جهلوا. لهذا قوبلت المقالات بجفوة شديدة ممن صدمتهم مقدماتها فلم يمضوا فى قراءتها إلى النهاية، كما لقيت حظوة عند من راقت لهم بعض الأحكام التى انتهت إليها المقالات، ولاذوا بالصمت عن لا ونعم شأن ما لم يطب لهم من حكم، ومن الناس من تسأله سؤالا فيجيب جوابًا بعيدًا هربًا من الرد على السؤال. كان ذلك حالة فئة انتهت إلى رأى يقول بأن كاتب تلك المقالات لم يبتغ مما كتب غير تسجيل السطر الأخير للتاريخ بالرغم من أى عنوان المقالات كان «حوار مع الصفوة» أى هى دعوة للحوار حول آراء بنيت على إفتراضات وصحبها تدليل، وانتهت إلى استنتاج يقبل النقض أو التأييد.

ولقد حرص الكاتب، عند إعداده هذه المقالات، وما تبعها من مقالات له نشرت فى العقود الأربعة التى تلت، أن لا يرتهن نفسه لمذهبية سياسية. ولئن نأى الكاتب بنفسه



عن ذلك النمط من التمذهب ـ على كثرة المذاهب ـ فلم يفعل ذلك إنكارًا لأهميته، بل حرصا على أن لا يصبح رهينة لتداعياته. فلكل مجتمع انسانى مرجعيات فكرية لها قيمها المعيارية التى يستهدى بها الناس فى أمور معاشهم ومعادهم. للمذاهب أيضا رموز إيحائية، وفرضيات لا تقبل الجدل ولا تخضع للامتحان مما يحول النظريات إلى عقائد وللأستاذ عباس العقاد رأى صائب فى التفريق بين الرأى والعقيدة: «الفرق بين الرأى والعقيدة يبدو عند التمحيص والامتحات ميسورًا فى الآراء نتوقف عليها، وغير ميسور فى العقائد التى تقوى على مكافحة النقد وتستعصى على التجربة والبرهان» (ساعات بين الكتب). فالذى يفزِّعُ الكاتب فى المذهبيات أو «الآيات» (isms) هو أنها تكاد تصبح رسائل إنجيلية (epistles) تخدر التفكير، وتفرض على الناس قوالب ذهنية جاهزة، وتشيع التفاؤل الكاذب. ذلك وضع يحمل المتمذهب على مخادعة نفسه وخداع غيره، فكلما عجزت الوصفة المذهبية عن حل مشكل عملى سعى المذهبى إلى تطويع الواقع حتى يتوافق مع الحل المسطور المقدور الذى جاء به المذهب، إن استطاع لذلك سبيلا.

وفى نهاية الأمرتقود المذهبية إلى آفتين: الأولى هى احتكار الحقيقة، والثانية هى تحولها من أداة لتفسير الظواهر إلى وسيلة للهيمنة السياسية أو الروحية، احتكار الحقيقة لا يفقد من يلازمه رهافة الحس التاريخى فحسب، بل يرمى به فى النهاية خارج اطار التاريخ. أما تحول المذهبية إلى أداء لتكريس السلطان أوالاستيلاء غير المشروع عليه فهو وصفة للصراع والتمزق.

ترى ما الذى يحمل الكاتب على إعادة نشر كتاب تأبى نشره قبل ما يقارب الأربعة عقود من الزمان؟ طوال هذه العقود ظل السودان يراوح فى مكانه: نفس المشاكل، ونفس الأزمات، ونفس الوجوه، ونفس المكابرة، ونفس العداوات، إن لم يكن الثارات الموروثة «وكأن الله أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم الدين». بسبب من ذلك ما انفك من يتظنون أنهم «أهل الحل والعقد» فى السودان يعكفون على الخسران

والخيبات؛ ما برحوا خيبة إلا وانتقلوا إلى أخرى، وما أنجاهم الله من خسارة إلا وأوقعوا أنفسهم فى ثانية. كل ذلك يعود إلى تلبثهم عند عوائد قديمة، «ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ولعل هذا هو الذى حدا بالكاتب لوصم الداء الذى منيت به تلك الجماعة بـ «إدمان الفشل».

هذه العقود من الزمان كافية فى أى بقعة من أرض الله الواسعة لأن تفسح لأى شعب من الشعوب منادح واسعة لعمار الأرض، وترقية البشر، وتطوير المجتمع. ولكن ليس هناك من دواء يصحح به المرء داءه إلا بعد تشخيص سليم، كما ليس هناك من مشكل يمكن حل ألغازه دون تفكيك لعناصره والنظرة الموضوعية إليه من خارجه. وفى علم الأصول المشكل هو الأمر غير المدرك الذى لا يفهم حتى يدل عليه دليل من غيره. وما دام هناك هروب من البحث عن طرائق استدلال على طبيعة المشكل من خارج الأطر النظرية والمناهج العملية التى لم يعد فيها مقنع لأحد، وطالما ظل «أهل الحل والعقد» يثابرون فى يقينهم على أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وما بقى هؤلاء لا يرون فى أى فكرة ناقدة لما دبوا عليه ودرجوا غير هرطقة سياسية، سيبقى السودان يرتحل من خيبة إلى أخرى حتى يسمع أهله الصيحة بالحق «وذلك يوم الخروج».

■ ■ ■





بقلم:
جمال محمد أحمد

أيامًا قليلة بعد أكتوبر سنة ١٩٦٤..

تصدر هذه البحوث وأنين أوجاع ميلادنا الجديد حولنا من كل جانب. فى الحادى والعشرين من أكتوبر الماضى، انفجرت الزايده، وكانت فى بطون قومنا تقاوم سنوات، تقاوم منذ وليت مراتب الجيش العليا شئون البلاد حين عجزت الأحزاب عن كلمة بينها سواء، وراحت رجالات أحدها تدعو هذه الفئة أن تعالى، تسلمى الأمر قسمة بيننا وبينكم، وكان الذى كان مما يعرف الناس. استأثر الجيش بالأمر كله، وأحسن فى السنوات الست تارة، وأساء تارات. كان أكثر ماغاب عنها مكان الصفوة فى السودان، أصابت بعض نجاح فى الشطر الاقتصادى من حياة الناس. فغشى بصرها، نسيت أن الوفرة الاقتصادية فى أى بلد شطر واحد من كل لاتنفصم أشطاره. فات عليها أن للسياسة بمعناها الأشمل مكانًا لا تحجبه البطون المتخمة وماكانت فى الحق كلها متخمة. من أجل هذا غضبت الصفوة التى يتحدث إليها الصديق الأثير منصور. ثم غضبت معها الجموع الناعسة عن حقها فى الكرامة، ويقظت الأحزاب السياسية، وكان بعضها قد خدر بالذى يناله من الصدر، سمى نفسه «كرام المواطنين»، وخدر بعضها بالذى قد يجرح ماتملك من آمال ونفوذ. كان واحد من الحزبين الكبيرين يأمل فيخدر، وكان الثانى يهم بالنقد ويمسكه حذر أن يفقد.

ثم أتت ساعة من تلكم الساعات التى يحفظها قدر الشعوب فى رحم الغيب، يطلقها حين يشاء، كان شباب الجامعة يدبر الرأى فى أمر الجنوب، يقول إن الذى

يحول دون الوئام، هو أن الشعب هنا وهناك، لا يملك كثيرًا من أمر نفسه، وزها القائمين على الأمر بعض النجاح الذى أشرت إليه، ورصاص الجيش والشرطة، فأنقضوا على شباب الجامعة، لاحول له غير منطقه، وقتلت رصاصة جامحة صبيًا، يقولون أنه كان من أحب الشباب لخلصائه، رضى الخلق، منذر نفسه لعلمه، يعدها ليوم قابل. ثم وقعت الواقعة. وقفت الجموع عشرة أيام أمام سلطة أغوى فئة منها قدرة الرصاص على القتل، وأضل فئة أخرى من مكر قلة من المدنيين كانت تمارس سلطة فى الظلام، تهمس بينها، تدير الأمور كلها، وشئون الناس فى ماسونية، ما استطاع حتى الخيرون من شباب الجيش أن يعتلوا أسوار همسها فقد كانت عتية عالية مغلقة النوافذ والأبواب.

ذهبت الجموع الغاضبة بفئة الهمس ورجولات الطبنجة، وما فتئت تبحث عن بديل يعمل فى النهار، طيب القصد، شجاع الرأى، كبير النفس. مضت خمسة أعوام الآن، وشعبنا يشد من أزر قادته الجدد والقدامى، يتطلع لإدارة قادرة فى الداخل، تحفظ عليه كبرياءه، وتوفر له المستطاع من رخاء العيش، ولحكومة تعيد صورته المضيئة فى الخارج، وقد جرحه أن يقول عنه الذين استعادوا استقلاله بعده «السودان رجل أفريقيا المريض» فى عبارة أخرى، يرقب الشعب قادته ليشيع الطمأنينة فى الحياة الاقتصادية وليضع العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين قطاعات الشعب من عمال ومزارعين ورأسماليين فى اطار جديد. اهتزت قواعد الحياة حين ولى الأمر قادة الجيش بمعزل عن شبابه ورجاله، وبعيدًا بعيدًا عن إحساس الناس، إلا تلك الفئة التى تدفعها مطامحها السياسية، كل وسيلة مقبولة، وإلا الذين ماعرفوا غير الصغار، ولسنا فى السودان بدعا فى هذا، ففى كل بلد طموح وسيلته الغدر وفى كل بلد صغار يمليه خوف أو أمل.

فى هذه الأيام التى نبحث فيها عن قواعد للحكم والإدارة جديدة، نشر صديقى الأثير منصور هذه البحوث نجومًا فى الأيام، وألحفت عليه أن يجلس إليها ثانية

يضيف لفصولها من تجاربه فى ميلاد دولة الجزائر، وتجاربه فى الشام والمغرب وغير هذه من البلاد التى طوف، وطمعت أرجوه أن يفصل بعض الذى كتب فى إيجاز، ذاك لأنى أعرف دائرة صحابه فى الشرق والغرب، وأعرف قدراته على العمل، واليسر الذى يجده فى التعبير عن ذاته، لكن أعماله أعجلته، فاضطر على نشرها كما هى على أن يعود إليها ثانية حين يجد الفراغ الذى تتطلبه أشباه هذه البحوث، وأنا إذ أحث القارئ العربى على قراءة هذه البحوث، أفعل ذلك لأنى واثق أنه سيلقى روحًا جديدة تعاظل تسرى فى السودان، والسودان بلد كثير المواهب والموارد، إن عوفى عوفيت أمة العرب وقارة السود، منصور واحد من هذه الفئة الجديدة التى تعد بالمئين عندنا الآن، وهو يرقب فى اعتدال المزاج الذى عرف به السودان، يومه هو ولداته فى القيادة الراشدة، وهو يوم قريب لا أتردد فى أن أؤكده تأكيدًا، أقرأ هذا فى التجربة التى نعيشها اليوم، سننتهى لجديد يقوم على التجربة والمعرفة والكدح، مهما طال بنا المطاف، ودعنى أوضح أكثر:

واحدة من اثنتين: إن نجحت أحزاب ما قبل الاستقلال فى اعادة تركيب نظمها ومنشآتها، لتسير وتبعات الاستقلال، فإن قياداتها الأولى ستحتاج لهذه العقول الذكية العارفة ترفد عقولها الدربة. أنها تحاول هذا جادة متعثرة اليوم، لنرع الغد حتى يجئ. إن أخفقت أحزاب ماقبل الاستقلال فى الذى تجهد له اليوم، فاليقين الذى لامعدى عنه، هو أن تشق الفئة الجديدة طريقها على نمط لن يخرج عن الروح التى تراها فى الفصول التى ستقرأ بعد حين. جيلان يكتشفان الطريق لمستقبل رافه، أحدهما درب الوطنية فى السنين التى عقبت الحرب العالمية الثانية، وصارع للاستقلال كل على أسلوبه وثانيهما دخل على الحياة يرى بعينيه المتشوقتين تلكم الآفاق التى تفتحت على يد ناصر ونكروما ونيريرى، وكل واحد من هؤلاء شاب فى عمرهذا الجيل، مثال يرنو إليه.

أوفق مايرجوه الأخيار هو أن يعمل الفريقان معا، هذا بدربته وذا بحيويته، لكن الأوفق أكثرالأحيان عصى المنال. لابد للحياة أن تمضى سبيلها. تجدد نفسها كل آن،

وعبرة هذه الفصول التى بين يديك، هى أنها بدء الطريق لميثاق تحتضنه الفئة الجديدة، تدعو له، تبشر به، لا يعنيها الآن أن تقوم هى على تنفيذه، مقدارما يعنيها أن ينفذ، اليوم إن تيسر، وغدا قريبًا إن حالت الحوائل. معا إن قبل السابقون، تجديدًا لشبابهم، وعلى انفراد إن شق ذلك عليهم.

بعد أربعة أعوام

ما تيسر للصديق منصور أن يبعث للمطبعة ببحوثه التى قدمتها بالكلمات التى قرأت قبل قليل، لأنه رجل كثير الأشاغيل، دائم التطواف، كثير النهم للمعرفة، حريص أشد الحرص على أن يحقق ذاته. كتبت هذه الكلمات قبل أربع سنوات، وأرانى راغبًا عن تغيير شىء فيها، فما وقع شىء فى الجوهو يدعونى لأن أحس اليوم، بغيرما أحسست تلكم الأيام. حقيقة أو حقيقتان، تستأهلان نظرة جديدة: عصفت قوى البغى المحافظ بنكروما، لكن آثار أقدامه على القارة باقية، ونيريرى تعرض لأذى، وتعثر راغمًا فيما يقدر العاطف مثلى. طائعًا فيما يقدر الذين يمقتون للأحلام حتى أن تكون. يكرهون المثل. بقى فوق مناكب الأزمات جمال، ينوشه الأقربون والأبعدون، وهم كلهم لا يطيقون العيش معه، خشية وتقية،ولا يتصورون حياة دونه، وهو ماضى يلتقط فى حذر موطأ أقدامه بين الصخور والأشواك تهن حينا يده، وتقوى حينا آخر.

نعم، تغيرت الحال كثيرًا منذ قدمت لبحوث منصور الأولى، ولكنا فى السودان حيث كنا. نبحث عن سبيل للحكم والإدارة، تتفق والطموح الذى تراه فى كل عين، والإحساس العميق بالواجب لدى شعبنا الذى ماخذل يوما مثله. رأيت هذا بعينى يوم الخميس والجمعة وأنا أطوف العاصمة المثلثة. كانت جموع الناخبين صفوفًا أمام صناديق الاقتراع، لايصرفها عنها لظى الظهيرة، تريد لتمارس حقها، قل تريد لتؤدى واجبها فى اختيار من يلى أمرها، ولمثل هذا أزهقت الأرواح النفيسة ذاك الأربعاء التعيس فى أكتوبر أمام القصر. ماخذل الشعب يومًا قادته، ويحب الواحد منا أن يدرك إخوتنا هؤلاء، أن السودان جدير بحكم قوى عاطف، وإدارة ذات خيال، تفعل.

أحسبنى أوجزت رسالة العزيز منصور فى بحوثه الجديدة، وإن أتتك مبرطمة تحمل سوطًا لايرحم بعض الاحايين أسمعه «البلد الذى قدم للعالم أولى حضاراته المستقرة على ضفاف النيل لم يجد مثقفوه من موضع لهم إلا موضع الإقعاء المستخذى أمام أوروبا كما تفعل الكلاب الجرباء» غضبة متمردة ولكن أنّى لك بتغيير إن لم تتمرد. أما كان محمد متمردًا، أما كان عيسى، أما كان الكليم، وشرشل، وديقول، تمردوا ولما يبلغوا مبلغ الرجال، أستدرك أبعاد هذه الغضبة المتمردة حين تقرأ قطعته عن الثقافة، وهى من الأضواء الكبيرة فى هذه البحوث «لكيما تكون أصيلة لابد لها من أن تكون من الأضواء الكبيرة فى هذه البحوث» لكيما تكون أصيلة لابدلا لها من أن تكون وفية لمصادرها الفكرية واعية بتراثها الحضارى ومخلصة لينابيعها الروحية، أحمد له أن يجحم النار، يوقدها، يوقظ الحذر عندنا والنعاس، رغم المواهب التى نملك، حمدًا لله، ما كان منصور هنا شهور الانفلاق والصدع، إذن لهوى علينا وأقذع. كنا فى تلكم الشهور البئيسة، مثل قاطع كفه بكف له أخرى فأصبح أجذما.

دعنى أبن عما أريد..

منذ كتبت كلماتى التى قرأت عن أحزاب ماقبل الاستقلال ودربتها ومنظمات مابعد الاستقلال وحيوتها، طرأ جديد، ووددنا لو لم يقع، ونأمل الآن وقد وقع أن ينجم عنه شىء ينفع الناس، ما فى الدموع على الذى أردت واستحال جدوى. ذلك الطار ئ ينقر أبوابنا بحدة. إنه شبح النفرة بين الأجيال. كان أوفق وأمثل أن تتداخل الأجيال لاتتصادم. كان أولى ببلادنا أن تضع مواهب الأجيال كلها معا فى خدمة شعب جدير، يستحق. كنا نحب لأهل الدربة والخبرة أن يخرجوا قليلا عن طوق الحذر والتردد ويرتدوا ثياب المثالية والجدة، ويتعلموا من فتية ماعرفوا مشقة العيش الحذق على أيام الإدارة البريطانية، يريدون ليقولوا أن حاكما بعينه لم يعد كفاء لحاجاتهم مثلا، فيلجأون لدبلوماسية فطرية وعبقرية تعرفها البادية الكتوم، تقول «فلان كويس، بس

طول»، هذا هو الذى أعنيه بمشقة العيش الحذق، وهوأعسر من الخصام، مشقة ماعرفها الفتية القادمون على المنظر السياسى.

وقعت الواقعة ومنصور بعيد يرقب عجز الخيرين منا على دفع هذا الوافد على جسمنا السياسى، عجز الخيرون عن أن يحملوا الساسة على أن يدركوا أن تداخل الأجيال أولى، تصادمها أذى يجرح. غضب ثانية منصور كما غضب أكثر الذين اجتمعوا رجالا على عهده، فكتب هذه البحوث التى ستقرأ بعد حين، وترامت الأقاويل، تجرمه كما تجرم كل ذى نظر، يبين: شيوعى، ناصرى، فوضوى، أنانى، وأنا الذى صحبته سنين أعرف أنه قومى سودانى فى البدء، وأكبر من كل بطاقة يسير بها الناس، يتصيدون المكان الأرفع لذاته، لا لما يتيح لواحد أن يعمل، وعذاب المكان الأرفع لا يعرفه غير من افتقده. أثلجت غضباته صدور أكثر الشباب، لأنه واحد منهم، يتميز عنهم ببيان يقنع، يعبرعن ذاتهم كما يعبر عن ذاته، فهى تحس ما يحس، ولاتملك مايملك هو، من معرفة بتجارب عالمنا العربى والأفريقى، يتصدى لدقائق الحكم والإدارة والتعليم والثقافة. يستلهم تجاربه الثرة. يخيف الواحد بنشاطه الجسدى والذهنى، تأتيك رسائله من أطراف الأرض يبث فيها مشاعره وأفكاره، ويحدثك عن الذى قرأ من سياسة وأدب. لاتدرى، متى وجد الفراغ، وعن الذين لقى من أئمة الفكر والسياسة، لايمس واحد منهم استقلاله الفكرى، فهو فى النهاية، واحد من الحريين الآخرين. ما أدرى إن وقف عند كلمة معلمنا لطفى السيد أم لم يقف، لكنها تصفه وتصف كل الذين يعيشون الطلاقة الجامحة. «إن أراد قارئ أن يفهم حديثى هذا دفاعًا عن فكر بعينه، فليعد قراءة الحديث مثنى وثلاث ... وأن أراد أن يفهمه دفاعًا عن دولة، فليعد قراءته مثنى وثلاث ورباع، فالذى أدافع عنه هو أمر أخطر من هذا بكثير... الذى أدافع عنه هو حقنا فى أن نفكر بحرية طليقة... وهو واجبنا فى أن نتصرف بإرادة».

أرأيـــت؟

أن منصور لا يصدر عن مذهبية، إن أمعنت النظرفيما يكتب، وهو يقبل وصفى بأنه «حرى»، ولا يعلق. لولا خوفى عليه من أن يلج فى ذعر لقلت إنه يرفض المذهبية رفضى إياها، ويومن بقدرة الإنسان، مهما بنى الطامحون أسوارهم حوله «فى الاشتراكية، كما فى الديمقراطية ليست هناك قدرية، وليست هناك حلول جاهزة، وليست هناك قوالب معدة نصب فيها الواقع لنصوغه وفق هوانا» أريد لأغيظ منصور، إن لم يكن هذا كلام «حرى» أنماه لوك وبنثام وشيخنا لطفى، أى كلام هو؟ قضينا ليالى يجادلنى وأجادله عن الآيات - كما يعبرون - يراها هو منارات فى الطريق، يسعى إليها الناس كى بها يهتدون، وأراها وسائل مشروعة لتجمع الناس حواليك، نقطة انطلاق، تيسر بها العسير من شئون السياسة والاقتصاد فى شعارات يرددونها، لتعمل وإياهم حين تجئ موقع النفوذ والسلطات على بلوغ الأهداف القريبة والبعيدة، للوطن كله، لا للفئة التى خفت إليك، ينقضى السحر، ويبدأ العمل، وفق حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية، لا على هدى «البلابيع» طليقًا يتخذ سبيله على الأرض، يسعى ليسعد الناس، قدوما يستطيع أن يسعد، ذلك البائس التعس، أبين أن يحملنها وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا جهولا، يضيق باحساسى، يقول لى أنى أحسب الآيات الاشتراكية، الشيوعية، الإسلامية - سجن وما هى ذاك، إن أنا أخذتها مأخذ الجد، ينبغى علىّ أن ألتزم، أن أنسى الحريين ما «عمروا عمار» حتى فى بريطانيا التى علمت الناس مبادئ الحريين، لا يربحون غير مقعدين أو ثلاثة فى مجلس العموم، وأكثر قليلا فى مجلس اللوردين كلهم «ينفخون فى قربة مقدودة».

غظته أمس حين اعتدى علىّ يقول إنى وراء الزمان، وراء العصر، وكانت بحوثه على مائدة بيننا. مددت يدى، قرأت عليه بعض الذى كتب، وبصوت عال وقفت عند «الانحياز الفكرى بلغ عند بعض الناس حد الاستعباد الفكرى، استعبادًا هدد قيم المجتمع الثقافى نفسها... الانحياز الفكرى أصبح تقديسًا للفكر الغربى، وانكارًا للجذور الثقافية للأمة،



انكارًا للعروبة، انكارًا للزنجية، انكارًا للنوبية» واندفع حين قرأت عليه هذا أبرز وحشتى الفكرية والعملية يستهوينى النهج الذى انتهج الحريون آخريات قرننا الماضى ومطالع هذا القرن، اندفع يحدثنى عن صديق لنا عرفناه، ضيق الخناق عليه أوغاد لايعلمون، عاش «بروموثيس مقيدًا» ذاك هو جورج بادمور الذى قضى أخريات عمره جنب نكروما يرجوه يلح عليه «الإدارة المفتاح، الإدارة المفتاح» مضى عهد النضال والنظر. جاء عهد البناء والتعمير انتهى مساؤنا بوفاق أعاننا عليه أن خطبة الأخ الرئيس كانت بقربه، توجز للانسان العربى سبيله إن اختار الهداية وأبى الطمع. قرأت له «ليست هنالك إدارة اشتراكية وإدارة رأسمالية، وإنما هناك إدارة علمية، والإدارة العلمية هى الناجحة» كان مساء موفقا اكتشف واكتشفت أننا نشترك كثيرًا فى الآراء عن سوداننا وعن إقليمنا العربى. وكان كلانا بمعزل عن العمل السياسى، لا حبا لمنجاة، أعيذه وأعيذنى من مثل هذا الحب! بل حسرة على الذى يدور حولنا من تطويع لتقاليد بلادنا لغير ماتريد أو نشتهى. كنا نرى بعيوننا حسنات الطائفية تغرق فى مياه الطموح الأجوف للقيادة السياسية، وكنا نشهد طيبات فى القبلية تبتلعها تغييرات فى حياة الناس فى القاعدة والقمة. عبر عن هذه منصور «الكارثة الكبرى ليست طائفية الأحزاب بقدرماهى فى أن الأحزاب أصبحت مسخًا للطوائف فالحزبية طائفية بلا أخلاقيات الطائفية، والحزبية قبلية بلا تكاتف أو تكافل القبلية» بخ بخ، تعبير عفا عليه الزمان، ولكنه هنا ينطبق. ما عند المثقف السودانى ما يأخذه على الطائفية، على النقيض، حسناتها تبهر العين والقلب والفؤاد، لولاها لما كانت القومية السودانية، حصيلة هذه القبليات، والقول ما قال منصور، ولا بقولة غيره، يتأرجح الأكثرون بين الحق يزهق مكانه والباطل يسنده طلاب السلطة جوفاء لاتفيد.

أرجو أن تقرأ غضبات الصديق الأثير منصور فى حذر، فالسودان وأن بدا لنا متعثرًا عاجز الخطى، يعيش فترة من فترات انتقاله من الصبا الفرح غير المسئول، إلى الشباب المتأمل المسئول، يؤلف بين التماثلات والمتضادات، بين حذر الكبار وشجاعة الشباب، ويقينى أنه سيصيب قسطا من النجاح بين المراد والمستطاع،

سيهتدى الناس كل مكان، شاهدى على ذلك الحفايا والعرايا فى اكتوبر ضد السلاح القاتل المميت، والحفايا إخوة المثقفين، وإن ضاق بالفجوة منصور ولداته، وماهى بالفجوة التى تستحق الحديث. هى عجز مؤقت عن التكامل فى الذهن إن لم يكن فى الدخل. لن يطول بنا الوقت، نحن فى نهاية المسار. المتمردون عديدون، بعضهم يهمس، قليلون يأبون علانية، والغد للأباة.

سبتمبر ١٩٧٣

والآن ماذا؟!

كل الذى قرأت كتبت قبل سنين، ولم نر ما يحملنا على أن نبدل شيئًا فيه. بعض الذى قالت البحوث وجد سبيله للنور، وبعضه الثانى يدور فى ذهن صاحب هذه النظرات ورفاقه، ودلت التجارب على أن بعضها، لايستقيم فى التطبيق، وإن استقام فى النظر، ولم يجئ اليوم الذى يقوم الواحد هذه الفئات الثلاث تقويمًا يستند على التجربة، شىء واحد فى هذا الصدد أحب أن أقوله، لأنى أراه عن قرب. إن صاحب النظرات يعطى حياته كاملة لنظراته، الأمر الذى يُدلِّل على أنه لم يكن ناقدًا لأوضاع فحسب، كمايفعل كثيرون من المستنيرين فى العالم. حذا إن كان يدرك أو لايدرك - حذو هايك استاذ الاقتصاد يومًا ما فى كمبردج الذى كتب «طريق الحرية» وهو يعلِّم فى كمبردج، وسنو عالم الطبيعة الذى كان من صفوة شرشل على أيام الحرب الكونية الثانية وأذاع فى الناس فكرة الثقافتين العلمية والأدبية، وبلغ الاقتصادى الذى قدم من هنقاريا وعلَّم الأجيال فى أكسفورد. حين اتيح لهايك أن يعمل شيئًا مما كتب، وضع جانبًا كتبه وجلس لها رولد ولسن، يعمل للتوفيق بين الحرية والاشتراكية العمالية، وهكذا فعل بَلُغ، أنذر نفسه لإيمانه بالتعليم عنصرًا من عناصر الرخاء وقبل هذين سنو، عالم الطبيعة الذى ظل طوال الحرب فى معمله يرشد شرشل وحكومته فى فنه، الحرب العلمية. كانوا جميعًا نقدة أوضاع، وحين أتاحت لهم العمل العقول الذكية التى تضع المواهب مكانها، كانوا عند كلمتهم. عملوا للتغيير، وأصابوا حظًا من النجاح،

وردت لهم حكوماتهم عرقهم وكدحهم تشريفا، وأغدقوا عليهم أعلى مراتب الكبراء، لورد بَلُغ، لورد سنو، وعادوا منازلهم يكتبون على كبر، أكبر الظن ينقدون، فأهل الفكر، يطمحون ليكتمل الإنسان، ويموتون وفى نفوسهم «شىء من حتى» كما يروى عن سيبويه.

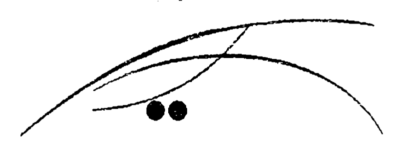
لايزعمن قارئ أنى أسرف، حين أسوق هذه الأسماء، أنا أسوقها لأحث الذين يرقبون حياتنا العامة، أن يقوموها وأن يتحدثوا فيها حديث منصور، حين كان بعيداً يرقب، لأنى لا أعرف حياة عامة استقامت دون أشباه منصور، وهم عندنا كثيرون، أريد لهم وقد شغل منصور عن النظر وانصرف للتطبيق، أن يتخذوا مكانهم الجدير بهم، يدعون للإصلاح، للتغيير، للاحساس بما يقع حولهم هنا وفى العالم العريض.

■■■

ملامح المجتمع الجديد

فبراير - مارس ١٩٦٥

الهيكل الدستورى بين الحزب(*) الواحد والجبهة المتحدة



.. دارت فى الخاطر هذه السوانح قبل بضعة أشهر خلت، وأنا فى الجزائر أشهد أهل ذلك المصر المبارك والعصبة البازلة من أولى العزم التى تتصدر قيادته، يفيضون بالحماس المستبشر للتجربة الجديدة التى يعيشها السودان بعد أعوام ست من الحكم الغافل الرجيم، والجاهلية النزقة الفاجرة.

... وبين الظفر السامق فى الخرطوم.. والحماس الرشيد فى الجزائر.. والأفكار الوضيئة التى نعم المرء بدفئها العقلى طيلة العامين الماضيين، عربدت فى الخيال هاته السوانح ولكنها ظلت رهينة محبس فكرى... وقد أردت لها الآن أن تنطلق من إسارها إلى عوالم الجدل الرحيب... ولا مشاحة.. فهى سوانح حول موضوعات من حق الناس اليوم ـ قبل أى يوم آخر ـ أن يتحدثوا عنها ويكثروا من الحديث.. فوراءهم سنوات عشر من التجربة وأخطاء بعد الاستقلال.. ووراءهم سنوات ست من العبر المريرة بعد الانقلاب العسكرى.. وحولهم فوق كل هذا تجارب وارفة أصيلة فى عالم العرب والأفارقة الذى نحيا وسطه عدّلت الكثير من القيم وبدلت الكثير من المفاهيم فى غضون السنوات الخمس الماضية.

.. نعم من حق الناس أن يتحدثوا ويكثروا من الحديث.. من حقهم أن يتحدثوا عن الهيكل الدستورى الذى ينشدون لهذه البلاد.. هيكلا مستمداً من تراثهم الباقى ومن

(*) الأيام: ٢٥ فبراير سنة ١٩٦٥.



واقعهم الجديد.. فقد عشنا حياة سياسية شائهة ممسوخة تحت ظل دساتير الكتب المدرسية ضعها ستانلى بيكر.. وينقحها سير ايفور جلقر ويرددها بعضنا - حتى بعد مايربو على العشر سنوات من الحكم الذاتى - فى ببغاوية رعناء.

ومن حقهم أن يتحدثوا عن الهيكل الاقتصادى الجديد ودور الدولة فيه كمخطط مركزى يحدد الهدف.. ويوضح النهج ويقرر السبيل لاكما هى الآن صناعة ترزى غير ماهر يلملم أطراف موازنات المصالح المختلفة ويدبجها فى سفر موحد فتخرج سملا مرقعًا من التخبط يسمونه خطة.

ومن حقهم أن يتحدثوا عن الهيكل الإدارى الموروث الذى لم تمسسه يد بالتعديل والتبديل لا فى المفاهيم ولا فى الوسائل.

ومن حقهم أن يتحدثوا عن الهيكل الثقافى الذى مازال نسخة من الكربون متسخة لما خططه لنا الفرنجة قبل أن يرتحلوا، سواء كان هذا فى مرافق التربية أو الإعلام.

.. وبعد، فهذه هى الخطرات أطلقها من محبسها عسى أن تثير عند قارئها من الاستجابة أو المعارضة الفكرية ما أثارته فى وجدان كاتبها.

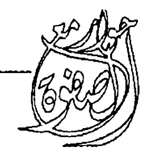
آثرت أن أبدأ حديثى عن الدستور لأن الدساتير الأصيلة إنما هى تقرير لأمانى الأمة، وتسطير لمفاهيمها ومستودع لضميرها السياسى.. وكل هذه قيم أساسية ضاعت فى متاهات جدل متشعب وضاع معها الناس فى تلافيف هذا الجدل حول المظاهر الدستورية للحكم.. أو نريد مجلسًا أو مجلسين.. أو ننشد نظامًا رئاسيًا أو برلمانيًا.. أو تضم الحكومة عشرًا أو عشرين وزيرًا؟ .. والمظاهر الدستورية هذه ليست، فى منطق الأشياء، إلا ضمانات شكلية لحماية قيم أعمق ومبادئ أرسخ من الشكل والمظهر.. ومبلغ ظنى أن الناس لو جلسوا لتحديد الأهداف والمبادئ التى يجتمعون عليها فى سفر مكتوب، ولنسمه الدستور أو الميثاق أو صحيح الإصحاح، يحل تلقائيًا نصف ما يشتجر عليه الناس من مسائل.

إذن فلنبدأ الحديث عن المبادئ الأساسية التى يرتكز عليها الكيان الدستورى ثم ننتقل إلى الحديث عن الماهية الشرعية للدستور على ضوء تجارب أمم تحيا مانحيا من مشاكل.

الحريات الأساسية والمبادئ الموجهة:

التقليديون يحدثوننا ويطيلون الحديث عن حقوق الفرد وحرياته الأساسية تحت ظل الدستور.. حقه فى أن يعيش كما يهوى.. وحريته فى أن يفكر ويدبر فى طلاقة.. والحريات هذه فى مضمونها بعد عام ١٧٨٩ إنما هى وليدة ظروف اجتماعية واقتصادية خاصة وصراع شاق طويل توج بوثيقة حقوق الإنسان والمواطن، والظروف هى ظروف القهر الفكرى الذى كانت تعانيه الطبقات التى انحدرت من صلب الثورة الصناعية فى مجتمع قضت ديناميكيته الاجتماعية أن يكون هنالك نبلاء وعامة.. والصراع الذى أعنى هو الصراع الضارى بين البرجوازية التجارية والصناعية الناشئة والأرستقراطية المالكة القاهرة.. فى هذا الاطار خرجت إلى الناس الأفكار التى تنشد استرداد كرامة الفرد فتنادى بالحد من سلطات الدولة، كان هذا فى مضمونه الاجتماعى عند جورج استيوارت ميل فى انجلترا أو بنجامين كونستانت فى فرنسا.. أو فى مضمونه الاقتصادى عند آدم سمث ومدرسة مانشستر، ولكن بالرغم من هذا المفهوم الفردى فإن آباء هذه الدعوة من اليعاقبة إنما يحدثوننا عن ممارسة حرية الفرد فى إطار الإدارة العامة، فالمجتمع الذى حلم به روبسبير وسان جست مجتمع يفهم الحرية على إنها مشاركة فى السلطة وليست حدًا لها، فالحرية لاتكون حدًا لسلطان الدولة إلا إذا كانت الدولة فاسدة أما إن كانت الدولة تعبيرًا عن الإرادة الشعبية فلا مكان لهذا المفهوم.

والحريات الأساسية فسرت بأنها حرية الحياة وحرية الفكر وحرية التنقل وحرية الاجتماع وحرية العقيدة إلى آخر القائمة الضافية. إلا أن التطور الذى طرأ على المجتمع الإنسانى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أبان للناس أن هذه الحريات فى معناها التقليدى إنما هى وهم شائع.. فحرية التعبير لا تعنى شيئًا



بالنسبة للجاهل.. وحرية التنقل إنما هى باطل الأباطيل لمن لايملك أجرة النقل.. وحرية التعليم ليست إلا تضليلا فى وضع يرغم الطفل فى يفاعته على العمل بحثا عن لقمة العيش. إذن فقد انتقل مركز الثقل فى هذا الجدل من الحديث عن القهر الفكرى إلى الحديث عن القهر الاقتصادى والاجتماعى. وقد أدى كل هذا بدوره إلى تطوير مفهوم المبادئ الدستورية والحريات العامة، فالحقوق الأساسية فى الدستور تعنى بادئ ذى بدء ضمان الظروف المادية التى تمكن المواطن من ممارسة حرياته الإنسانية المشروعة.. فالحريات الأساسية ليست إمكانيات قانونية وإنما هى حقوق يستطيع الناس، كل الناس ممارستها بنفس القدر من الأحقية. لذا فالدساتير المتقدمة تتحدث الآن فى مبادئها الأساسية عن حق العمل وضمان الحد الأدنى من العيش، وحق التعليم، والتأمين الاجتماعى ضد العجز والمرض، ورعاية الأمومة والطفولة والحد من الاحتكار فى أوجه النشاط فى المرافق التى تمس حيوات الناس. وكل هذه مبادئ لايحتاج المرء لأن يكون حواريًا شيوعيًا لكى يؤمن بها.. فمقدمة دستور فرنسا عام ١٩٤٦ تنص على تأميم كل مرفق قومى عام وكل مؤسسة اقتصادية عامة غلب عليها طابع الاحتكار.

ولامرية فى أن هذا لينطبق على الدول النامية أكثر من غيرها لما يحيط بها من عوامل التخلف التى تجعل الممارسة الحقيقية للحقوق الأساسية التقليدية أمرًا عسيرًا.. فالمواطن لايملك أن يعبر تعبيرًا صادقًا عن إرادته فى المجتمع المتخلف لأنه يخضع لمؤثرات عاطفية عميقة الجذور كانت نتيجة نفوذ قبلى أو دينى أو عنصرى أواقتصادى، وهى مؤثرات لايقوى معها من لايملك الرشد السياسى على اصدار حكم يعبر عن الإرادة الواعية.. إذن فإن أى دستور جديد يحدث الناس عن الحقوق الأساسية بشكلها ومضمونها التقليدى ليس إلا سفر تضليل مالم تحدد، قبل هذه الحقوق، مبادئ أخرى تتعلق بالكيان الاقتصادى والاجتماعى للدولة وواجبها فى توفير ضمانات لازمة تحقق للمواطن استقلاله الفردى الذى لايستطيع بدونه ممارسة أى حق دستورى.. كالمبادئ التى اسلفت الإشارة إليها:

شرعية السلطة والانتخابات:

أى نظام للحكم فى مجتمع منظم يعتمد أساسًا على ظاهرة السلطة وما تستلزمه من طاعة واحترام للحاكم. ولكن السلطة، لكيما تطاع، لابد أن تكون سلطة شرعية، والشرعية تعنى مطابقة نظام الحكم لما يتصور الشعب أن يكون عليه النظام، إذن فالشرعية أمر ذاتى وليس بموضوعى.

فالحكم الشرعى فى الأنظمة الملكية المطلقة هو الحكم الموروث وراثة ثابتة.. والحكم الشرعى فى النظام البرلمانى الغربى هو الحكم الذى يجئ عن طريق الانتخابات حسب قوانين ولوائح الانتخابات السائدة.. والحكم الشرعى فى البلاد التى تؤمن بنظام الحزب الواحد هو الحكم المنبثق عن إرادة الحزب عن طريق الممارسة الكاملة للديمقراطية المركزية. كل هذا يستلزم بلاشك أن يكون النظام فى أساسه نظاما ارتضاه الناس لأن الشرعية تقتضى إيمان الناس بأسس النظام القائم كان ملكيًا أو ديمقراطيا شعبيًا أو ديمقراطيًا برلمانيًا.

هذا رأى فقهى.. أما علماء الاجتماع فيفسرون الشرعية بأنها النظام الذى يوفر السيادة للأغلبية الشعبية ولكن ماهى سيادة الشعب.. وماهو أساسها..؟ القديس توما الأقوينى ومفكرو الكاثوليك يبحثون عن أساسها فى قانون الطبيعة وروسو والموسوعيون يجدونها فى المساواة التامة بين الأفراد الذين يربط بينهم عقد اجتماعى، والماركسيون يقولون إنها تعنى سيادة الجماهير.. سيادة الأغلبية المقهورة ضد الأقلية القاهرة التى ليست بجزء من الشعب بل هى نبت طفيلى يقتضى صلاح الأمة إجتثاثه، وبين أقصى اليمين واقصى اليسار يبرز هنا الحديث عن الانتخابات كوسيلة لممارسة الشعب لسيادته وسلطاته. ولكن بالرغم عن كل الحديث المعاد المكرور فى كتب القانون الغربية عن ماهية الانتخابات فإن التجربة الانسانية ـ خاصة فى العالم الثالث ـ تثبت أن الانتخابات ليست بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كوسيلة لاستقصاء رغبات الناس لأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى

أشرنا إليها من قبل تجعل ممارسة جمهرة الناس لحق الانتخابات ممارسة شكلية بحتة إذ أن النتيجة ليست بحال تعبيرًا عن الإرادة الواعية.. ماهو المخرج والخلاص؟ مبلغ ظنى أن تجارب العالم الذى يعانى ما نعانى ويعيش ما نعيش من مشاكل لهى فى مثل هذه الأحوال المنجى والمعين قبل الأفكار الأكاديمية غير الأصيلة.. وهذا يقودنى بدوره إلى الحديث عن تجارب العالم الثالث.

تجارب العالم الثالث:

.. كان من الطبيعى أن يفكر سياسيو البلاد النامية فى تطبيق مفاهيم الديمقراطية على بلادهم تطبيقًا حرفيًا أرعنا فكلهم قد نهل من معين الثقافة الغربية مع اختلاف فى درجة الهضم والاستيعاب.. وتشهد على ذلك تجارب مصر وغانا وكينيا فى أفريقيا.. وبورما وسيلان وسوريا فى آسيا - على سبيل المثال لا الحصر.. ولا أتحدث عن بلاد مثل الجزائر ومالى وغينيا وتونس ونتجانيقا خرجت إلى العائلة الدولية وكيانها السياسى قائم على مبدأ الحزب الواحد.. ولا أتحدث عنها لأنها وليدة ظروف ثورية خاصة.. ونقل تجربتها نقلا حرفيا إنما يتم عن نفس الغباء الذى يتبدى فى محاولتنا نقل نمط ديمقراطية وستمنستر إلى الخرطوم.. وساسة الدول التى أسلفت الإشارة إليها يتفقون، مع تفاوت فى الدرجة، على أن الديمقراطية الليبرالية بما تضمنته من مبادئ برلمانية معينة وحريات محددة وتعدد الأحزاب لايمكن أن تطبق فى بلاد ثلاثة أرباع أهلها أميون يعيشون فى مستوى معيشى دون المستوى الإنسانى ويرسفون فى أغلال سيطرة عاطفية تقليدية.. لذا فقد جنحت هذه البلاد إلى تطبيق نظام الحزب الواحد كان ذلك عن طريق قرار برلمانى كما هو الحال فى كينيا، أو انقلاب عسكرى كما الحال فى سوريا أو استفتاء شعبى كما هو الحال فى غانا.

.. هنا أكاد أسمع بعض الأصوات التى تقول أو لم يكن لهم من شبيه فى عبود؟ والإجابة سهلة لأن السؤال يشير إلى خلط بغيض بين المونوقراطية الحزبية وبين الفاشية.. فالفاشية بطبعها المحافظ تقود إلى التحجر.. إنها نظام ضد التطور الجذرى للمجتمع قاعدته هى السلفيون والتقليديون وأسلوبه هو الرعب وهدفه الأول

والأخير هو حماية الوضع القائم، ومايسميه استقرارًا فى الواقع هو الجمود.. ومايسميه هدوءًا هو فى حقيقة الأمر هو التحجر..

وبعد.. أين السودان بواقعه الشائك من كل هذا؟.. أين هو من هذابطوائفه وقبائله وفصائله؟ صادق من يقول أن هذا الواقع يجعل من الحزب الواحد ضرورة وأن هذا الواقع عينه يجعل منه استحالة عملية. فى مثل هذا الواقع يضحى الحزب الواحد ضرورة لأن الحزب الواحد يرتكز أساسًا على دعامتين: أولاهما القاعدة، كانت من الصفوة فى حالة الأحزاب الطليعية كجبهة التحرير فى الجزائر، أو من الجماهير العريضة كحزب التجمع الديمقراطى السودانى فى مالى وثانيتها هى «العقائدية» السياسية.. والاعتبار الثانى هذا هو الذى يضفى على الحزب الواحد أهمية خاصة فى البلاد النامية مثل السودان لأن العقائدية بطبعها إنما تقدم، بجانب ما تقدمه من أسس يخطط بمقتضاها الناس وضعهم الاقتصادى والاجتماعى.. تقدم لهم عنصرًا يوحد بين أطرافها المتنازعة ويثبت كيانها القومى. وهذا يقتضى بالطبع أن تنبثق هذه «العقائدية» من تراثهم الباقى الذى لا يجافى التطور ومن مكاسب الإنسانية الناهضة كما تبدو فى تجارب البلاد التى يؤهلها وضعها وانتصاراتها فى معركة الحرية والتقدم لأن تكون منهلا ومعينًا.

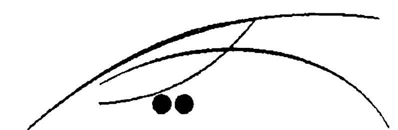
ولكن الجذور الاجتماعية لهذا الواقع الشائك فى السودان تجعل هذه الفكرة مستحيلة أن أردنا لها أن تتم على الوجه الذى تمت به فى كينيا مثلا.. أى بقرار برلمانى.. هذا دون اعتبار لأن الخلافات القائمة فى السودان الشمالى إنما يعمقها فى الغالب الأعم اعتبارات شخصية فسلة، ينطبق هذا على الأحزاب جمعاء دون حزبين هما الحزبان العقائديان الوحيدان فى السودان أحدهما فى أقصى اليمين وهو حزب الإخوان المسلمين وثانيهما فى أقصى اليسار وهو الحزب الشيوعى.. وليس أدل على هذا من أن برامج الأحزاب الكبرى جميعها تكاد تكود صورة مطابقة لبعضها البعض مع تفاوت فى ركاكة الأسلوب أوسلامته إن أردت.. إذن فلنبحث عن مخرج جديد..

وليكن لنا فى تاريخنا السياسى مرشداً. فتجربة مؤتمر الخريجيين إن ترجمت إلى واقع العصر يمكن أن تكون سابقة جديرة بالاتباع أشير هنا إلى فكرة تجمع فى إطار جبهة أو مؤتمر أو تكتل ذى مبادئ محددة لأمد معقول ولنقل عشر أو سبع سنوات، مبادئ تعالج الوضع الاقتصادى والهيكل السياسى.. والحريات الأساسية والسياسة الخارجية، وهو أمر ليس بالعسير بالرغم من كل ما خلفته تجربة الميثاق الأخيرة من سوء ظن وفقدان ثقة.

ولا أشك ساعة فى أن مثل هذه الفكرة لتلقى الكثير من النقد والهجوم لا من أصحاب الفكرة المنشودة ولكن من الذين لافكر لهم وهؤلاء هم لصوص الحكم لاطلابه الأمناء.. أقول هذا لأنه فى يقينى أن من يطلب الحكم نوعان من البشر: صاحب فكرة يريد أن يخدمها.. ولص يسعى وراء المظهر والسلطان. وهو أمر تشهد به الأسماء التى رآها المرء تتردد فى الأيام الأخيرة بين من ينشدون البروز والتلميع كانوا من ـ عواجيز الأفراح ـ ممن لا مكان لهم وسط المفاهيم السياسية الجديدة فى قارة تثب وثبا نحو المجد أو من ملفوظى المجتمع النظيف الذى ظنوا أن للسياسة أهدافًا وظيفية، والمسئولية فى الغالب الأعم ليست بمسئولية الأفراد بقدر ماهى مسئولية القيادات التى رأت حفاظًا على وجودها الأسطورى الابقاء على أنماط بشرية لامكان لها إلا فى حوانيت العاديات.. ومثل هؤلاء القادة الذين آثروا العودة بالأمة حقبة إلى الوراء لا شفيع لهم فى الأرض ولا فى السماء. ولا غضاضة فى أن أردد للمؤمنين منهم قول محمد القائد البصير «يذاد أناس من امتى عن الحوض يوم القيامة فانهض لأشفع لهم فيقول لى الله لا تفعل.. إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك.. أنهم كانوا يمشون القهقرى على أعقابهم».

■ ■ ■

الكيان الاقتصادى بين التوجيه (*) المتردد والاشتراكية الهادفة



فى العالم بلاد كالسودان عاشت سنى استقلالها الجديد تمزقها الحيرة لانعدام الهدف البين ويقعد بها الركود لفقدان القيادة الجسورة.. ونتاج هذين العاملين - عدم وضوح الرؤيا وفقدان القيادة - هو هذا القلق المستبهم الذى نحياه فى السنوات التسع الأخيرة والعالم من حولنا قد حدد أهدافه وأخذ يعدو نحوها كالمهر الأرن..

وكان لابد لهذه الحيرة أن تصيب فيما تصيب الكيان الاقتصادى للبلاد .. أن تصيبه بغير قليل من الجمود وغير قليل من الاتباعية العمياء للمخططات الموروثة من الحكم الأجنبى الغابر. فالتوجيه الاقتصادى يقتضى أول ما يقتضى تحديد الهدف، وإبانة الطريق وتقرير الوسيلة.. وهى أمور تقع فى نطاق مسئولية السياسيين لا الموظفين المنفذين، فكان، ولابد، وقد أبى على الساسة الحاكمين تبطلهم الفكرى تحديد الهدف والوسيلة أن يلجأ المنفذون إلى أسلوب دعم الوضع الراهن فى إطاره القائم..

إذن فقد كان من البديهى أن تضحى الخطة الاقتصادية عبارة عن سمل مرقع من البرامج الإنشائية فى الميزانيات السنوية بالاضافة إلى جزء من اعتمادات العون الخارجى سيما وجزء كبير من المشروعات الواردة فى الموازنات المصلحية العامة إنما هى مشروعات يستلزم تنفيذها أمداً طويلا كمشروعات التعليم ومنشآت الرى والزراعة.. ولم يعجز مفتيو القرية عن إضفاء ثوب من التبريرات فضفاض على هذا المسخ المشوه فقالوا بأن مشاكل السودان الاقتصادية بسيطة لاتحتاج إلى تخطيط..

(*) الأيام: ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٥.



فاقتصاده النقدى يعتمد أساسيًا على تصدير بعض السلع الأولية، وزراعته غالبها الأعم معيشية، ومواصلاته بدائية، وصناعته تقليدية إن وجدت.. والقول مردود لأن التوجيه الاقتصادى ووسيلته الكبرى التخطيط لا يهدفان إلى النمو الاقتصادى داخل النطاق الموجود والمحدد وإنما ينشدان تحرير النطاق القائم وتبديله.. هذا هو المضمون الحقيقى للاستقلال الاقتصادى..

التخطيط كهدف وكوسيلة:

التخطيط لا يبغى تحديد أهداف التنمية الاقتصادية فحسب بل وتحديد الوسائل التى تضمن الوصول إلى هذه الأهداف عن طريق توجيه الدولة للاقتصاد الوطنى.. فهو إذن غاية ووسيلة.

وباستعراضنا للدولة النامية نجد أن ثمة اتجاهين يسودانها فى ميدان التخطيط.. اتجاه التخطيط العمودى - تخطيطًا من أعلى - وهو الذى يقوم على تحديد نسبة معينة للنمو الاقتصادى، وتوزيع ماينجم فى الدخل القومى من زيادة على القطاعات الاقتصادية المختلفة بنسب معينة فى عدد من السنين معين، وبنفس القدر تخفيض العطالة والبطالة بهدف تحقيق التشغيل الكامل للقوى العاملة.. والعقبة الكئود فى سبيل هذا النوع من التخطيط هى أن التقدير الأساسى لنسب النمو يضحى أمرًا ارتجاليًا مالم تتوفر الاحصاءات الأساسية لدراسة وسائل تكوين رأس المال.. وفى هذا الشأن أتساءل - وأقر بجهلى - إن كان هنالك من بحث أعد حول هذا الأمر فى السودان، عدا البحث الذى أعدته مصلحة الأحصاء قبل سبعة أعوام على عهد هارفى وكروتكى ونفدت طبعته..

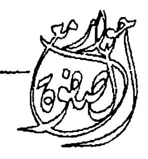
وهناك الاتجاه الاخر.. اتجاه التخطيط الأفقى الذى يقوم على جمع مشاريع قليلة مدروسة ومحددة ثم تقدير ماستؤديه فى النهاية من زيادة فى الدخل العام ونسبة النمو ودراسة هذا النمط من المشروعات يقوم أساسًا على ما يؤديه كل منها فى ميادين اقتصادية واستراتيجية كميزان المدفوعات والعطالة والتشغيل.. وهذا النوع من التخطيط وقد مارسناه

فى السودان نوع عمد إليه التقليديون الذين تقودهم إما مصالحهم أو فقدانهم للخيال الجسور إلى اتباع هذا الطريق الذى لاتحفه مخاطر التحولات الثورية، والخطأ المميت فى هذا النمط من التوجيه الاقتصادى الخجول هو أنه يجافى الهدف الأساسى للتخطيط، لأن التخطيط فى أساسه تقرير للأفضليات حسب مقياس عام محدد. فالمشروعات تقرر على أساس أن هذا جيد وهذا أجود وذاك أكثر جودة.. وهذا بدوره يقتضى تحديد الهدف فى الأمد المقرر وهو فى الغالب الأعم أمد طويل لأن الخطة قصيرة الأمد لاتمكن المخطط من التوجيه الفعال للاقتصاد الوطنى. وبالنسبة لبلد نام كالسودان فإن مسألة زيادة النمو الاقتصادى ليست بهدف بعيد المدى فى حد ذاته بل هو وسيلة للوصول إلى هدف أهم وهو رفع مستوى المعيشة والاستهلاك. إلا أن ارتفاع نسبة التنمية لا تؤدى بالضروة إلى رفع مستوى المعيشة لأنها لا تعنى شيئًا بالنسبة لعامة الشعب فى بلد يسيطر قلة من الأفراد على جزء غير يسير من اقتصاده فارتفاع نسبة التنمية مالم يصحبها التدخل النشط لاعادة توزيع الثروة إنما يؤدى بالنهاية إلى مضاعفة الظلم. وهذا يقودنا بدوره إلى الحديث عن الديمقراطية الاجتماعية والتى قررت الغالبية العظمى من البلاد النامية أن تحققها باختيارها طريق الإشتراكية..

الاشتراكيـــة الهادفـــة

وفكرة التخطيط المركزى وتحديد نسبة للنمو الاقتصادى الدورى نفسها ولدت مع الاشتراكية العلمية. فالمفهوم الأساسى للاقتصاد البرجوازى هو التوزيع الرشيد للموارد بصورة تجعل النمو الاقتصادى نتيجة حتمية لهذا التوزيع. بيد أن المبادرة الفردية، والسعى وراء الكسب، والحوافز المادية قد أخذت، داخل ذلك الهيكل الاقتصادى، مظهرًا احتكاريًا قاد بالضرورة إلى تدخل التخطيط المركزى بصورة متفاوتة كان ذلك عن طريق اخضاع العمليات النقدية لرقابة البنوك المركزية، وتركيز الأسعار. أو تحديد وسائل الدفع لتمويل مشروعات الاستثمار العام.

والمنهج الاشتراكى أمر ترتضيه كل الأحزاب السودانية فيما تقول برامجها. إلا أن قراءة ما بين السطور فى تلك البرامج تجعل المرء يتردد ما إذا كانت هذه البرامج لافتات



عنى منها الكسب الغوغاذى العابر، أم هى قول حق يؤمن به قائلوه فعلاً. ومهما يكون من شىء فإن العزاء هو أن هذه البرامج تفتح الباب على مصراعيه لنقاش فكرى حول أسس «عقائدية» للعمل السياسى وهو أمر ظلت تفتقده الأحزاب السودانية التقليدية.. أقول هذا بالرغم مما فى بعض هذه البرامج من ابتسار فى تحديدها لمفهوم الاشتراكية التى تنشدها.. وبالرغم من أن هذه الأفكار الجديدة الوضيئة صاغها شبان مستقيمو القصد، سامقوا الخيال إلا أن قيادات أحزابهم أبت ألا أن تلقى بهم خلف الخلف لتضع آخرين فى الصدارة لا يدركون من الاشتراكية إلا بقدر ما أدرك أنا من اللغة الآرامية. والعبرة فى مثل هذه البرامج، أولا وأخيرًا بالنية السوية والجدية.. إذ شهدت هذه البلاد قبل استقلالها حزبًا اسمى نفسه بالحزب الجمهورى الاشتراكى ووضع على رأسه، بين من وضع، أناسًا لا مكان فى وجدانهم ولا عقولهم للإيمان بالفكر الاشتراكى.. أقول هذا حتى وإن كان من بينهم أناس مثل أبى حفص ماتركوا مكانًا جلسوا فيه بالكفر إلا وجلسوا فيه بالإيمان.

وفى تقديرى أنه ليس هنالك من مائة نمط الاشتراكية.. وإن كان هنالك من اختلاف فهو اختلاف فى التطبيق أكثر منه اختلافًا فى الماهية.. فالاشتراكية فى أساسها ملكية الأمة ـ وأقول الأمة لا الدولة.. والفيصل بين هذا النوع من الملكية وذاك هو أن الملكية العامة فى النظام الاشتراكى الحق لابد أن تصحبها إعادة توزيع الثروة بين القوى العاملة عن الطريق المباشر مثل الأجور وغير المباشر مثل الضمان الاجتماعى والخدمات المجانية: التعليم، والصحة، والسكن.. بالاضافة إلى خلق ضمانات أساسية لحماية النظام الجديد مثل تأكيد تكافؤ الفرص والسيطرة الكاملة على السوق وتوجيهه لأن كل هذه الزيادات لا تعنى شيئًا ما دام هناك سباق لاهث بين الأجور والأسعار. والحديث عن إعادة التوزيع يذكرنى بقول مكرور يردده من يحلو لهم الحديث عن مايسمونه بالاشتراكية السودانية وهو أنه لا طبقات فى السودان وأن الناس أجمعين يعيشون فى مستوى للحياة متقارب.. وهذا القول مردود لأن الفوارق الطبقية لايحددها فى واقع

الأمر مستوى معيشة الأفراد بقدر ماتحددها سيطرة هؤلاء الأفراد على وسائل الانتاج فالذى يسيطر بصورة ما على أية وسيلة من وسائل الانتاج يملك سيف ديموقليس الذى يستطيع به فرض ما أراد من قهر اقتصادى واجتماعى على من لا يملك، حتى وأن التحف هذا المالك السماء وتوسد الغبراء فهذا فى يقينى لا يجعل منه اشتراكيًا أو مؤمنًا بالعدالة الاجتماعية، وإنما يجعل منه رجلا مقترًا مما يدخل فى باب الأخلاق لا الاقتصاد..

والحديث عن السيطرة على السوق يذكرنى ببضع أوجه للسيطرة على التسويق كان فى مقدور بلادنا أن تحققها فى السنوات العديدة التى أعقبت الاستقلال لو كان هنالك بعض من الجسارة والثقة. أن المرء ليحزن أن يرى بعد عشر سنوات من الاستقلال أن الجانب الأكبر من تجارة الصادرات والواردات فى أيدى شركات غير سودانية.. ومهما بالغ المرء عن قدرات الفرنجة والبيض.. ومهما بالغ المرء فى الحديث عن نقص قدرات المواطن السودانى فإن واحدًا لا يستطيع القول بأننا فى حاجة لاستيراد الخبرة من أوروبا لتصدير الصمغ والسمسم، واستيراد السيارات وجرارات الماسى هاوس.. سيما وفى السودان شركات وطنية تمارس هذا النوع من النشاط الاقتصادى بنجاح ملحوظ.. والذى أدعو له الآن هو السودنة لا التأميم، لا لأننى لا أؤمن به، بل ليقينى بأن التأميم لا يتم إلا على يد قيادة عملاقة ذكية الفؤاد راسخة القدمين، ويقتضينى أقرار الحق بأن أقول أن المرة الأولى التى سمعت فيها مسئولا يتحدث فى هذا الشأن هى المرة التى قرأت فيها - وأنا فى الجزائر - الخطاب الرائع الطموح الذى حدد فيه الأخ عبد الكريم ميرغنى سياسته فى وزارته.

والوجه الآخر الذى أذكره - كل هذا على سبيل المثال لا الحصر - هو أمر تسويق القطن.. محصول السودان النقدى الأساسى الذى تباشر الدولة الدعاية له.. وترسل الوفود لتسويقه.. وتعد المشترين لاستقباله.. ثم تأتى حفنة من وافدى جنوب أوروبا وطرداء مينا البصل لتباشر فيه مايسمونه بالسمسرة، وقد كان فى ظنى المتواضع أن

محصولا كهذا لأخطر وأوجل من أن يفتح فيه باب واحد مثل هذا.. فمصير تسويقه ـ شأنه شأن انتاجه ـ هو التأميم الكامل.. وهو أمر ظل يدعو له ـ فيما أذكر ـ الأخ صالح محمود إسماعيل، قبل أن تلم به محنة تولى الوزارة.

تمويل التنمية الاقتصادية

وفى الحديث عن التنمية الاقتصادية لابد لنا من الحديث عن مصادر تمويلها. ولا أريد هنا الحديث عن التمويل الخارجى فهو إما تمويل شريف عن طريق إعانات المنظمات الدولية وقروضها أو عن طريق اتفاقيات العون وهى اتفاقيات ثنائية لا يطلب أصحابها مقابلا لها..

قل أو كثر.. أو تمويل غير شريف عن طريق إعانات يتطلب اعانات يطلب دافعوها ثمنا لها مباشرًا أو غيرمباشر، وهذه مرفوضة من أساسها.

ولكنى أريد الحديث عن التمويل الداخلى.. والحقيقة الأولى هى أن رأس المال نادر فى المجتمعات المتخلفة والتأخر الاقتصادى نفسه هو عامل من أهم العوامل المؤدية إلى ندرته ولذا فإن اللجوء إلى ودائع وسندات لا يعود إلا بنتاج هزيل لا يكفى للتنمية إلا أنه خطوة هامة وضرورية من الناحية التربوية.. إذن فلابد من اللجوء إلى المصادر العامة كالبنوك الصناعية والزراعية وإلى تدخل الدول النشط عن طريق الاعفاءات الضرائبية لتشجيع الاستثمار وفرض القيود على الاستهلاك يتم فى نطاق اعادة توزيع للدخل القومى وإلقاء العبء الأكبر لتمويل التنمية لا على الاستهلاك العام وإنما على استهلاك الطبقات المحظوظة..

ثم هناك طريق آخر وهو محاولة تحريك البطالة المقنعة ومثالنا فى ذلك التجربة الصينية التى لاتعترف بالتمويل وإنما تقوم على أساس استغلال العمال العاطلين فى المشاريع الانتاجية الكبرى على أن تقوم الدولة بكفالة مسكنهم ومأكلهم. والتجربة فى واقع الأمر ـ وأن اسماها الاقتصاديون المعاصرون بالتجربة الصينية ـ ليست بتجربة رائدة فقد طبقها الاتحاد السوفيتى فى خطته الخمسية الأولى فيما أسموه بخدمات

يوم السبت Soupope واستخدمتها بولونيا فى المشروعات الثانوية كانشاء الطرق وتعبيدها وتطبقها اليوم جمهورية الجزائر فيما يطلقون عليه اسم «يوم الأحد الإشتراكى» إذ يخرج جميع القادرين ابتداء من وزراء الدولة إلى أصغر مواطن قادر، وفى حملات دورية كل أحد، للمساهمة فى الخدمات والمشروعات الانشائية كمحو الأمية، وتعبيد الطرق، والتشجير لحماية التربة.. وحسب الخطة الموضوعة أن تم تنفيذها ستستطيع الجزائر توفير العمل لمليون من ضحايا البطالة المقنعة فى غضون العامين المقبلين.

التصنيع

وفى الحديث عن التنمية الاقتصادية أيضا يلعب التصنيع دورًا أساسيًا هامًا. وقد أضحى التصنيع فى السنوات الأخيرة أمرًا يشغل بال الاقتصاديين الأفريقيين فى كل المقررات التى اتخذت فى مؤتمراتهم على الصعيدين القارى والإقليمى.. والصناعة فى السودان لم تخضع فى سنى مابعد الاستقلال لأى تخطيط منطقى، أو دراسة واعية لا فى اختيار الصناعات ولا فى تحديد أماكنها فى اطار صورة عامة متكاملة للتنمية الاقتصادية على الصعيد القومى.

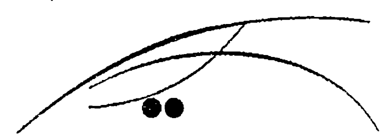
والسودان ـ واستميح القارئ هنا أن أنقل من تقرير أصدرته الأمم المتحدة مؤخرًا بدعوة من حكومة السودان عن احصاء القوى العاملة ـ وهو أقل البلاد الأفريقية «تمركزًا حضريًا» إذ أن ٨٥ فى المائة من سكانه يحترفون حرفًا أولية كالزراعة والرعى و٣ فى المائة يحترفون الصناعة، وهذا فى حد ذاته ـ كما يقول التقرير ـ ليس بدليل على انعدام التصنيع ولكن التقرير يمضى بالقول بأن المراكز الست التى يمكن أن تسمى مراكز حضرية فى السودان ـ وهى المراكز التى يبلغ تعداد سكانها ٦ آلاف شخص أو أكثر لاتزيد عن ٨٦ مركزًا.. من بينها فقط ٥ مراكز يزيد عدد سكانها عن الثلاثين ألفًا وهى المدن الثلاث ومدنى وبور سودان والأبيض وعطبرة.. وهذا يجعل كل ما تبقى من السودان فى رأى الاخصائيين ـ مناطق ريفية وجميع هذه المدن عدا بور سودان تقع فى

محيط لايزيد عن السبعمائة كيلو متر من الخرطوم وهذايعنى أن التصنيع قد ركز فى جزء محدود من السودان. فالتقرير يشير مثلا إلى أن من بين المائتين وأربعين مؤسسة صناعية التى أنشئت فى عام ١٩٥٧ يجد المرء مائة وثمانين مؤسسة فى مديرية الخرطوم علما بأن الخرطوم لاتضم إلا ٥ فى المائة من سكان السودان. وأغلب هذه المؤسسات خاضعة للقطاع الخاص الذى يفضل الخرطوم بلا مرية لوفرة الأيدى العاملة المدربة والطرق المعبدة، والسوق الرحيب وهى كلها عوامل تقلل من التكلفة وتجعل الربح أكثر جزاء.. ولكن ماهو دور الدولة فى مثل هذه الأحوال؟ ألم يكن من واجبها - إن كان هناك تخطيط - أن تتدخل لتحقيق منطقية التوزيع لأن هدف التصنيع فى الاقتصاد الموجه هو بالنهاية الكفاية للمجتمع وليس الربح لبعض الأفراد؟ إن ما حدث فى هذا المضمار إنما هو مثال صادق لما أسماه الاقتصادى السويدى كنار ميردال بالسببية الدائرية فى اقتصاد المبادرة الحرة، أى أن النمو الاقتصادى فى إقليم ما يشجع القطاع الخاص على المزيد من الاستثمار فى ذلك الأقليم النامى مالم تتدخل الدولة لتوجيهه.

ومرة أخرى أعود للتقرير الذى ختم كاتبه هذا الباب بقوله إنه «فى الوقت الذى يعتبر فيه التركيز الجغرافى للمراكز الحضرية الصناعية فى أو قرب مديرية الخرطوم ذا مزايا اقتصادية واضحة للنمو الصناعى لهذا الجزء من القطر إلا أن آثاره فى النمو المتوازن للقطر ككل ليست بحسنة، فعدم وجود مراكز حضرية فى المديريات الجنوبية كلها وفى مديرية دارفور إنما هو عقبة كبرى ليس فقط فى طريق النمو الصناعى لتلك المناطق ولكن لتطورها فى ميادين أخرى اقتصادية واجتماعية كالخدمات التعليمية والصحية.

■■■

الخدمة المدنية بين المصلحة العامة(*) والماسونية المستريبة



للحكم جانبان.. السياسة والإدارة: الأولى تتطلب صاحب الهدف الواضح والإرادة الواعية، والثانية تتطلب صاحب القدرة الغلابة والقصد المستقيم، فإن لم يكتمل الشقان للحكم اضحى حكمًا مهزوزًا متهافتًا والحاكم الماهر الذى يستطيع أن يقود أمته نحو مراقى المجد الواعدة، فيما تحدثنا تجارب الشعوب، هو الحاكم الذى استطاع أن يلم بالقدرتين من طرفيهما. هو رجل السياسة ورجل الدولة فى آن واحد، إذن ماهو مكان الدولة فى سياسة الحاكمين، بالأمس أو اليوم؟ ماهو رأيهم فى الجهاز الإدارى القائم؟ ماهو مخططهم لتطويره لملاءمة مجتمع مابعد الاستقلال؟ ماهو خط السير الجديد الذى رسموه للخدمة العامة لتصبح خدمة للشعب أكثر منها خدمة امتيازات لطبقة جديدة تقوم بدور «محظية السلطان»؟

الهيكل البروقراطى الموروث:

إن المشكلة الكبرى التى تجابه أى بلد حديث عهد الإستقلال فى الكيان الإدارى هى تحويل الهيكل البروقراطى الموروث ليتماشى مع متطلبات المرحلة التاريخية لأن كل المخططات السياسية ـ إن وجدت ـ ستصبح باطلا وقبض ريح إن لم يطوع الجهاز المنفذ لاستيعابها وتطبيقها. ولكن يبدو أن فقدان أى مخطط سياسى يغير من وجه الحياة تغييرًا جذريًا فى السودان عند كل من ولى أمر الناس منذ الاستقلال حتى يومنا هذا، قد انعكس أيضا على هيكل الخدمة العامة الذى ظل بصورته الأولى التى صاغها الحكم

(*) الأيام: ٢ مارس سنة ١٩٦٥.



الغابر. فالحكومة الوطنية الأولى انشأت بضع وزارات لاستيعاب بعض برلمانييها عندما أضحت على شفا جرف منهار ولم تكن تلك الوزارات إلا مصالح ثانوية مثل المخازن والمهمات والنقل الميكانيكى، ولو لم تحل الأزمة بهذين المنصبين لشهدنا برلمانيين آخرين يصبحون وزراء للمرطبات ومصايد الأسماك. ومع ادراكى لرغبة الحزب الحاكم يومها فى توطيد أقدامه بهذه الصورة لأن هذه طبيعة الحكم البرلمانى التقليدى، إلا أننى كنت أود لو قضى أولئك الحاكمون الذين قرروا ترفيع هذا وذاك لمناصب الوزراء ساعة من الزمان للحديث عن تحوير الهيكل الإدارى القائم بخلق وزارات جديدة لاتجعل الناس يضحكون فى أكمامهم. كنت أفهم لو جعل الحاكمون من مصلحة العمل وزارة للعمل ومشاكل العمال بكل ما تتطلبه من تخطيط للقوى العاملة وتخديمها وتدريبها إنماهى مشاكل تتزايد مع الأيام فى مجتمع نام.. وكنت أفهم لو خلق المسئولون من قسم الإنشاء والتعمير الذى كان يترأسه الكابتن أوقدن مدير البريد والبرق الذى قال له السكرتير المالى كن مخططًا اقتصاديًا فكان.. كنت أفهم لو حول ذلك القسم إلى وزارة كاملة للانشاء والتعمير والتخطيط.. وكنت أفهم لو خلق المسئولون وزارة جديدة لشئون الجنوب حافلة بالخبراء الاجتماعيين والنفسيين سيما وانفجار الجنوب مازال دويه يصم الآذان.

ومضت تلك الحكومة لتجئ بعدها الحكومة الوطنية الثانية لتمضى فى نفس النهج.. تنشىء مصلحة للشئون الدينية تابعة لوزارة العدل لا لسبب إلا لأن وزير العدل السابق قد ورث هو الآخر بطريق الصدفة أو المنافسة البلهاء اختصاصات قاضى القضاة التى تتعلق بالإشراف على المساجد والمعاهد الدينية.. ولست أدرى ولايدرى منجمو الأرض أجمعين ماهى الصلة بين التعليم الدينى وبين وزارة اختصاصها أولا وأخيرًا التقنين والدفاع عن مصالح الدولة وحقوق المواطنين الآمنين.. اللهم إلا أنه الحال الموروث الذى يأبى على الناس الخيال القاصر أن يبدلوه.. وقد كنت أرى أن التخطيط التربوى السليم ليقضى باخضاع كل المؤسسات التعليمية، الدينية منها وغير الدينية لوزارة التربية على الصعيدين السياسى والإدارى.. أقول هذا لأن الصدفة

أيضا أرادت آنذاك أن يكون وزير العدل هو نفسه وزير المعارف ونفس الصدفة التى قضت بهذا فى ذلك العهد قضت بأن تضاف اختصاصات وزارة الثروة المعندية لوزير الأشغال لقرب الوزارتين الجغرافى، لا لأن هنالك من رابطة تحتمها الكفاية الانتاجية،أو الإدارة الحسنة، أو التخطيط العام.. وكان المرء يود أن يرى أعباء تلك الوزارة تضاف إلى أعباء قسم الصناعة مثلا فى وزارة التجارة فتخرج إلى الناس بوزارة للتصنيع والتعدين تحتمها ضرورة التنسيق والتخطيط فى الميدانين.

وجاءت بعد ذلك حكومة عسكرية ومضت ـ شأن من سبقتها ـ فى طريق الخيال القاصر، والعشوائية الطائشة، والاسترخاء البليد.. ورثث الوزارات بمن فيها وما فيها إلا واحدة هى وزارة الشئون الاجتماعية ذهبت منها فيما مضى مصلحة السجون إلى وزارة الداخلية وذهبت مصلحة التعاون نتيجة إلحاق موظفيها بالتجارة وآثر موظفو مصلحة الاحصاء بحق ـ الحاق مصلحتهم برئاسة مجلس الوزراء حتى تتوفر لهم الحيدة التى يجب أن تطبع أعمالهم ولم تبق إلا مصلحتا الاستعلامات والعمل.. فعين لها وزير واحد دون أن يفكر المسئولون فى إلحاق مصلحة العمل بمصلحة أخرى تشابه طبيعتها.. ولطف القدر الحانى بنا أن لا تكون المصلحة الباقية هى مصلحة السجون وإلا شهدنا وزارة للاستعلامات والسجون.. وحتى ذلك الاسم النابى ـ الاستعلامات ـ لم يجد من يبدله فالوزارة فى صميم اختصاصها.. وزارة إعلام وأنباء وليست بوزارة ـ استعلام ـ !

ومجمل القول هذا أن الهيكل الموروث لم يجد من يبدله لأن الحاكمين ـ المدنى منهم والعسكرى ـ قد توافدوا على وزاراتهم ورؤوسهم، حول ما يجب عمله فى وزاراتهم، خالية كفؤاد أم موسى إن لم يكن كرؤوس البارومترات.

ما أشرت إليه عن ما كان يمكن عمله ليس بمقترحات وإنما هو تفكير بصوت عال ما كان أحرى الذين أرادت لهم الظروف ـ بحق وبغير حق ـ تصريف شئون البلاد والعباد أن يقوموا به..

التربية الوطنية والملكية العامة:

لكيما تكون هنالك خدمة عامة سليمة لابد من غرس وتعميق بعض القيم الأساسية فى ضمير خدام الأمة.. قيم مثل المسئولية الشخصية، واحترام الملك العام، والمواطنة الصالحة.. فهذا، فى النهاية، هو السياج الواقى والباقى ضد المفاسد والمباذل.. وقيم مثل الجرأة المبدعة، والرأى الأصيل الوثاب لأن هذا فى النهاية، هو الدرع الحامى ضد البرقراطية القتالة.. وانعدام المسئولية الشخصية، واحترام الملك العام لا يتبديان فحسب فى الفساد المباشر الذى ينجدر إليه بعض الناس.. كان ذلك سرقة أو استغلال نفوذ.. ولكنهما يتبديان بصورة أوضح فى مظاهر الفساد غير المباشر مثل التستر على مواطن الضعف فى أجهزة الحكم. والمثال البليغ لهذا فيما يحدثنى الرواة ويؤكده ما أشاهده ومن أشاهدهم فى دواوين الدولة، هو تقارير الترقيات وتوصياتها.. وفى يقينى أن الرؤساء ـ وهم كثير ـ الذين تقعد بهم الرغبة الفاسدة، أو الرهبة الخوارة عن التقدير والتقرير الأمين لمرؤوسيهم مما يؤدى إلى ترفيع أولئك المرؤوسين إلى مراكز لا يؤهلهم لها الخلق ولا الكفاية، هم رجال فاسدون مثلهم مثل سارقى أقوات الناس بل هم أشد سوءًا لأن نتائج هذا النوع المائق من التصرف ـ وهو كثير كما قلت ـ إنما يؤدى بنا فى النهاية لهدم كل أمل فى صلاح، نسبة للقنابل الزمنية العديدة التى تنتشر داخل جهاز الخدمة المدنية نتيجة سياسة الترقيات القائمة.. مما ستؤول معه أمور الناس إلى خلف معور كذلك الذى غص به حلق أبى الأسود الدؤلى فى فترة من فترات التيه شبيهة بعهدنا هذا:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزكى بعضهم
بعضا ويدفع معور عن معور
فطن لكل مصيبة فى ماله
وإذا أصيب بعرضه لم يشعر

ووضع كهذا سيؤدى بطبعه ـ وهو سائر فى هذا الطريق ـ إلى جعل الخدمة العامة محفلا من محافل الماسونية تدار فيها الأمور بين الصحاب.. والحكم فيها ليس للحق والخير والعدل وإنما هو للعلائق والصداقات القديمة فى داخليات مفى وارشرو استاك.. وأمور الناس لا تقرر بوضوح فى رابعة النهار بل فى مجالس الأنس فى صريم الليل.. ومظاهر الاسترابة لاتنتهى بالمشبوهين إلى أضواء العدل وإنما يقبرها الشياطين الخرس فى اقباء التضليل والبهتان.. والغادى والرائح يعرف القضايا العديدة التى أثيرت فى العشر سنوات الماضية وترددت فيها الكثير من الأسماء إلا أن هيبة الناس للناس ابت أن يقولوا بحق ما علموه.

ومرة أخرى أعود لأقول أن المسئولية فى المبدأ والمنتهى هى مسئولية القيادة الرشيدة الأمينة، فتراثنا يحدثنا بأن شيخا جليلا من شيوخ الإسلام، وصحابيًا صالحًا من أصحاب الرسول هو أبو موسى الأشعرى لم ينج من التوجيه والترشيد عندما رأى قائده عمر ـ وقد ولاه الكوفة ـ إن ما يدعو للاسترابة قد بدر فى حكمه.. كتب إليه يقول:

«قد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها. فاياك ياعبد الله أن تكون مثل البهيمة التى مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن، وإنما حتفها فى السمن. واعلم أن للعامل مردًا إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته. وإنَّ أشقى الناس من شقيت به رعيته..».

إن الذى يقول أن الناس يجب أن يؤخذوا بالظنة وبحصاد ألسنة الآخرين إنما يسىء للعدالة وللحق بنفس القدر الذى يسىء به إليها من يريد أن تسوى أمور الناس بليل.. كل ما أقول به هو أنه لا عدالة مالم ير الناس العدالة تمارس أمامهم.. أيا كان القضاء وأيا كان المتقاضون..

تطوير الإدارة فى المجتمع الجديد:

مشاركة السودانيين الفعالة فى الإدارة العامة حدث جديد.. بدأ بعد مؤتمر إدارة السودان فى الأربعينيات. وقد أدى هذا بالضرورة إلى النقص الكبير الذى نراه الآن فى



القيادات الإدارية المؤهلة. ونقص محطم كهذا لابد أن يوحى للحاكمين بضرورة تخطيط القوى العاملة للاستفادة من الطاقات القليلة الموجودة تخطيطًا يشمل إعادة النظر فى متطلبات الوظائف وجمع وتحليل احصائيات القوى العاملة فى كل الميادين. وانتاج المعاهد التعليمية، وأسس البعثات الدراسية للخارج.. ثم قبل كل هذا اعادة تكوين الجهاز الذى يشرف على شئون الموظفين لسد مافيه من ثغرات. وهذه كلها أمور لابد منها فى مجتمع يعانى من النقص الإدارى. وظاهرة النقص الإدارى ظاهرة تتبدى فى كل الدول النامية... كان ذلك فى نقص الموظفين بالقياس للسكان أو فى ارتفاع تكاليف الإدارة بالنسبة للدخل القومى.. وقد كان الطريق لمعالجتها فى أغلب هذه الدول هو إعادة النظر فى هيكل الخدمة العامة وأجهزتها ومفاهيمها.. فعلت هذا نيجيريا وغانا والجزائر بانشائهم لوزارات مستقلة للخدمة العامة. وفعلته مصر أخيرًا نتيجة للدراسات المستفيضة التى قام بها حلمى السعيد بانشائها لوزارة الاصلاح الإدارى. وفعلته تنجانيقا باتباعها شئون الموظفين لمكتب رئيس الوزراء وتحت إشرافه المباشر. أما السودان فقد آثر المسئولون أن يبقى قسم شئون الموظفين كما ورثناه من السكرتير المالى، لا نتيجة قرار إيجابى مدروس، ولكن لأن التغيير يتطلب جهدًا فكريًا لسنا بقادرين عليه. وتجربة الحاق شئون الموظفين بوزارة الخزانة تجربة طبقتها ـ ومازالت تطبقها ـ بريطانيا. وخطرها الداهم هو أن وزارات الخزانة بطبعها تركز جهدها الأكبر فى تخفيض النفقات العامة، مما ينقل مركز الثقل عن الجانب الأساسى فى الإدارة فى البلاد النامية وهو إعادة صياغتها لتحسين الأداء ودعم الكفاية الانتاجية. وقد كان من المنطق الصالح ـ ومرة أخرى أفكر بصوت عال ـ أن تضاف مصلحة شئون الموظفين إلى رئاسة الحكومة.. الأمر الذى يضمن استقلال العاملين بها ويمكنهم من التخطيط الشامل على الصعيد القومى دون خضوع للاعتبارات المهنية والمصلحية المحدودة..

التدريب:

إن التدريب مهمة مستمرة داخل الجهاز الإدارى فى مجتمع يفور بالمشاكل كمرجل ساحرات ما كبث. وبدون هذا التدريب لايمكن للناس غرس القيم الجديدة التى

يـريـدون غرسـهـا فى ضـمـيـر الموظف الـعـام.. وبدونه لايمـكن للـنـاس دغم روح الـقـيـادة والمبادرة والدفـع.. وبدون هذه الروح تصبح الخدمة العامة خدمة ضعيفة الكيان، قليلة النفع. والتدريب كيما يكون مجديًا لابد من اخضـاعه لجهاز وإشراف واحد.. وفى يقينى أن هذا الجهاز متوفر الآن فى معهد الإدارة وهو معهد تشرف عليه نخبة كبيرة من الشبان. وقد كنت أود مع هذا أن يدرك المسئولون عن الإدارة فى هذا البلد أن مفهوم الإدارة العامة مفهوم واسع.. لا يقف فقط عند «الإداريين» بالمعنى التقليدى المتعارف.. فالمهندس الذى يتولى إدارة مصنع كبير رجل إدارة.. والزراعى الذى يشرف على مشروع ضخم رجل إدارة.. والتنفيذى الذى يوجه مؤسسة تجارية كبرى رجل إدارة.. وكل هؤلاء يجب أن يفسح لهم المجال - إن وجدوا - للمساهمة فى الإدارة والاستفادة من الحقل التدريبى كانوا فى القطاع العام أو الخاص. وضرورة أمر كهذا تحتمها المفاهيم الجديدة للتدريب الإدارى والتى تقضى بتخطيط الإدارة العامة فى نطاق مشروعات التنمية الاقتصادية، الأمر الذى يستلزم اعداد رواد حلقات التدريب هذه فى شئون مثل فنون الموازنة المالية، وتنفيذ الخطط القومية للتنمية، وإدارة المؤسسات العامة، والبحث الاقتصادى والاحصاء...

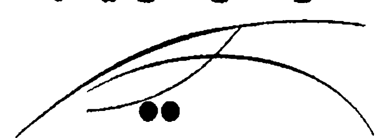
والحديث عن التدريب يقود المرء للحديث عن البعثات... ماهو الهدف منها؟؟ ماهو المكسب من ارسال موظفى الدولة لنيل دبلوم الإدارة من مانشستر وبيرمنجهام تمامًا كما كنا نفعل فى عهد هندرسون؟؟ أن الحنين لدار عاتكة لا يكفى وحده مبررًا. ومبلغ ظنى أن الأمر ليس بحنين واع وإنما هو اتباعية مستكينة مسترخية.. قل إنا وجدنا آباءنا..

إن البعثات يجب أن تقرر - فى المجتمع الجديد - على ضوء المتطلبات الجديدة لسودان مابعد الاستقلال.. وأمر البعثات هذا لا يشغل بالنا نحن فحسب بل هو حديث الناس فى كثير من الدول النامية التى تفكر بوعى فى شئونها.. وأذكر أن الموضوع على وجه التحديد قد درس فى اجتماع مديرى شئون الموظفين ومعاهد

الإدارة القومية الأفريقية الذى انعقد فى شهر اغسطس المنصرم فى أديس أبابا ومثل فيه السودان الاستاذان إبراهيم طنطاوى، وعبد الرحمن عبدالله.. وأذكر أن اجماع الخبراء الأفارقة فى هذا الشأن قضى لأسباب عديدة ذكروها ـ أن يتم التدريب داخل البلاد الأفريقية نفسها عدا التدريب فى المستويات الفنية العليا والذى لا تتوفر له الوسائل والامكانيات داخل القارة.. ويأمل المرء أن يرى انعكاساً لهذه المقررات فى سياستنا.. فقد عشنا سنوات عديدة نغشى محافل الدنيا ومجالسها.. نبصم على مقرراتها الجريئة ثم نعود إلى الديار لنمارس الضلال القديم..

■■■

الدبلوماسية السودانية فى أسلوبها (*) ومحتواها وهيكلها



الدبلوماسية أسلوب ومحتوى. شكل ومضمون. والمحتوى والأسلوب يهدفان إلى تأدية دور أساسى ورئيسى على الصعيد الدولى فى تدعيم السيادة القومية، وحماية الاستقلال الداخلى. وتركيز الاقتصاد الوطنى فى اطاره السياسى الجديد. ومثل هذا الدور يتطلب من مخططى الدبلوماسية استنباط سياساتهم من ضمير الأمة بوجدان ذكى يعرف أن هناك مصالح قومية يجب أن ترعى.. وأن هناك حدا أدنى من المبادئ الخلقية يجب أن يحترم وأن هناك عرفًا دوليًا سائدًا لا محيص من الالتزام به..

وتجربة العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين الذى شهد ميلاد قوى جديدة تمارس دورها فى حلبة الصراع الدولى السافر والمستتر قد أضفت على أسلوب الدبلوماسية لونًا جديدًا. فلم تعد الدبلوماسية هى دبلوماسية مؤتمر فينا وإكس لا شابل.. لم تعد دبلوماسية رسل الأفيال والأباطرة من آل بوربون، ورومانوف وهابسبرج.. أى لم تعد دبلوماسية الردنجوت، والقبعة العالية، والحديث الهامس.. وإنما أصبحت دبلوماسية المواقف السياسية الجسورة، وتعبئة الرأى العام كان ذلك فى أقصى اليمين أو أقصى اليسار.. يعلن ملتون ابوتى رأيه فى الاعتداء المجرم على بلاده لا فى احتجاج مستتر لدى مبعوثى المعتدين بل فى مظاهرة جياشة يتقدمها.. ويعلن عبد الناصر رده على مناورة جون فوستر دالاس حول تمويل السد العالى لا فى رسالة دهشة غاضبة أوحانقة وإنما فى قرار باسل فى ساحة عامة بتأميم قناة السويس..

(*) الأيام: ٥ مارس سنة ١٩٦٥.



ويعلن جون كندى أخطر قرار اتخذه فى حياته السياسية القصيرة حول حصار كوبا على موجات الأثير وفى مجلس الأمن الدولى فى نفس اللحظة التى ينقل فيها مبعوثه اتشيسون النبأ إلى حلفائه فى أوروبا..

وأهمية هذا فى يقينى هو إننا فى السودان قد درجنا على فهم الدبلوماسية على أنها «شطارة وتزويغ».. نشترك فى المؤتمرات العامة دون رغبة أصيلة فى المشاركة.. ونوقع على مقرراتها دون إيمان بحرف واحد فيها.. ونستعرض عضلات الفاظنا فى السودان فى بيانات ثائرة تعالج أخطر الأمور دون أن نلحق تلك البيانات بتطبيق عملى واحد.. والتجارب التى مررنا بها فى الأعوام الأخيرة، سيما فى سنى الحكم العسكرى تثبت أن السودان رغم وجوده الحسى فى كل محفل أو تجمع أقليمى أو قارى.. ورغم مصادقته الرسمية على كل ما دار فى هذه المحافل، كان أقل البلاد التزامًا بها.. بل كان مخططو دبلوماسيته يتحدثون ماوسعهم الحديث عن «شطارتهم» فى خداع العالم..

.. نقرر تأييدنا المطلق لمنظمة الوحدة الأفريقية ونحجم أو نهزل فى المشاركة فى لجانها الفنية التى ستجعل من الحلم حقيقة.. اللجنة العسكرية فى أكرا استكبر الوزير - وفى عهد حكم عسكرى - وأبى المشاركة فيها رغم الإلحاح الشجاع الذكى من سفيره هناك.. لجنة العلوم والبحث العلمى فى الجزائر التى حشدت لها الدول الأفريقية علماءها وكبار مربييها لايمانها بضرورة تنسيق البحث العلمى بين دول القارة الأفريقية، قررت وزارة الخارجية أن توفد لها - على مضض - أحد سفرائها من القاهرة.. وليس فى الأمر سر وإنما فيه دلالة كبرى على الهزل والهذر الذى يمكن أن يذهب إليه أولياء الأمور فى تصريفهم لشئون الناس.

تخطيط السياسة الخارجية

إن السياسة الخارجية الرشيدة تقوم على أساس تخطيط واع، منطقى، وجرئ، أيا كان محتواها.. وأيا كان خط سيرها. والتخطيط لابد أن يسترشد ببعض معطيات أساسية.. كياننا السياسى كأول بلد أفريقى يستقل - بعد حكم أجنبى - فى أفريقيا

جنوب الصحراء.. وكياننا الحسى كأكبر البلاد الأفريقية مساحة.. وكياننا الثقافى كقطر أفريقى وحيد تجتمع فيه حضارتا القارة وثقافتاها: العربية والزنجية، وهو كيان يؤهلنا لأن نقوم أما بدور الجسر الذى يربط بين عالمين.. أو الهوة التى تفصل بينهما.. والدور الثانى - واحسرتاه - دور قضى علينا قصر الخيال أن نمثله عقب الاسقلال إبان الحكم المدنى، وأراد لنا الغرور الطائش أن نمضى فيه إبان الحكم العسكرى.. هذا حالنا على الصعيد الأفريقى.

وهناك دورنا على الصعيد العربى.. وقد قررنا لأنفسنا الالتزام فى هذا الميدان يوم أن رضينا لها الانضواء تحت لواء الجامعة العربية.. إلا أن مخططى السياسة الخارجية قد أرادوا لأنفسهم فهم الوحدة العربية لا كحقيقة ذات أبعاد جديدة، ورؤى جديدة، وآفاق جديدة، وإنما كهيكل باهت متهافت فى ثوبها الذى ولدت به يوم ميلاد الجامعة العربية فى قصر انطونيادس فى أخريات الأربعينات.. سيف من الصلب البريطانى.. مقبضه من الخشب العربى، إن الحقيقة الجديدة لتحتم علينا أن نقول فى الأمر برأى جديد وجرىء... أيا كان ذلك الرأى.. فالقومية العربية حقيقة لا يملك الناس التستر منها وراء حجب كثيفة من المراوغة والتضليل. مفاهيمها تختلف.. هى عند الناصريين فى العربية المتحدة غيرها عند القوميين فى العراق.. وغيرها عند البعثيين فى سوريا، ومفهومها يختلف عن هذا وذاك عند تجمع تحالف القوى فى المغرب، وجبهة التحرير فى الجزائر.. مع مَن من هؤلاء نقف فى مفهومنا للوحدة العربية؟؟ أم هل نرفضها فى شىء من الجرأة مثل بعض الساسة العرب أو فى شىء من المخاتلة مثل بعضهم الآخر؟ إن على مخططى السياسة الخارجية فى الأحزاب التى تصطرع على الحكم تحديد رأيهم فى وضوح صادق فى هذا الشأن.

وننتقل من هنا إلى دورنا على الصعيد الدولى الرحيب.. ماذا نريد أن نفعل فى القضايا المشتجرة اليوم فى المشرق والمغرب؟ قضايا التحرر الوطنى، والأمن الدولى، والتعاون الاقتصادى؟ ثم ماهو دورنا فى المنظمات الدولية، القارئ منها والأقليمى والعالمى، إن الكثير

من هذه الموضوعات متروك أمره للوفود ـ الدائم منها والعابر.. تقرر فيه وفق هواها.. وفى أمور قد تمس فى كثير من الأحايين جذور السياسة العامة. إن التجربة القصيرة التى عشتها فى نيويورك جعلتنى أحس مدى ما يعانيه سفراء السودان من فقدان كامل للتوجيه.. أو ما يعانونه ـ فى بعض الأحايين ـ من توجيه أخرق غير متسق لا يبرره منطق ولا تحتمه مصلحة وطنية.. مثل حدث أذكره قبل عامين هو أن حكومة السودان قد طلبت من سفيرها أن يرشح السودان للجنة الاحصاء ضد بولونيا.. وهو أمر جد غريب، لأن الدوافع التى تجعل الدول الأفريقية تقف موقف منافسة مع بولونيا فى أوج الصراع لاجازة مقررات التنمية الاقتصادية وإنهاء الاستعمار ومحاربة التفرقة العنصرية ـ ولبولونيا فى كل هذه الميادين مواقف محمودة ـ لابد أن تكون لها دوافع عظيمة تبرر مثل هذا التنافس.. وتم اختيار السودان بعد الايعاز لبولونيا بالانسحاب. وجاءت الجلسة المعينة ولم يفد مندوب السودان.. وتتالت البرقيات بين نيويورك والخرطوم.. لتنتهى برد عبقرى يعتذر فيه المسئولون بأنهم ما ظنوا أن اللجنة لجنة فنية بحتة، وهم يعتذرون لعدم وجود سودانى متمرس للمساهمة فى الاجتماع.. وضاق الحال بالسفير حتى هداه خياله بعد التشاور مع الخرطوم إلى الاستعانة بطالب سودانى كان يدرس الاحصاء فى بوسطن انقاذًا للسودان من حرج عظيم، وحتى الطالب النابغ لم يستطع الانضمام إلى المؤتمرين إلا بعد بضع أيام فرغ فيها من اجازة امتحانه.. والقصة على بساطتها، واحدة من عديد القصص التى تصور العبث المتخبط والارتجال المريب الذى يتميز به بعض العاملين بشئون البلاد والعباد، وأقول المريب لأن أى شخص لا يلم بتفصيلات الموقف لا بد له أن يظن أن السودان بموقفه قد قام بدور مخلب قط لقوى مناوئة أرادت اقصاء بولونيا عن هذا المكان.. ومبلغ ظنى أن الأمر ليس له من دوافع إلا الاستهانة المخرية، واللامبالاة الهازلة..

أن التخطيط يقتضى فيما يقتضى التنسيق، هذا إن كانت السياسة الخارجية مقررات يراد تحقيقها لا شعارات مثيرة يراد منها الهاب حماس المواطن العادى الذى يؤذيه أن يرى بلاده مع الخوالف فى ركب السياسة الدولية.. فالقرار الدبلوماسى ـ إن كان قرارًا جادًا ـ لابد أن يعنى أمره أكثر من جهة فى الهيكل الإدارى للدولة.. ولنأخذ

مثلين قريبين.. فقد استدعت وزارة الخارجية بالأمس ـ وفق تعليمات الدولة ـ سفير ألمانيا (غ) لتبليغه وقوف السودان ضد تسليح ألمانيا لإسرائيل وتأييدها لموقف الجمهورية العربية فى هذا الشأن.. وهذا قرارجرىء صائب تحتمه التزاماتنا العربية، ويقضى به الحد الأدنى من الأخلاق التى يجب أن نرعاها فى علائقنا الدبلوماسية ولكن قرارًا كهذا ـ إن أريد به الحق ـ يستلزم دراسة شاملة مستفيضة لاحتمالات حافلة بالشبور وجليل المخاطر.. فإن قررت ألمانيا مثلا غدا المضى فى تسليح إسرائيل وايقاف العون لمصر.. وردت مصر الكيل صاعين باعترافها بألمانيا الشرقية مما يؤدى بالضرورة إلى تطبيق نظرية هولستين التى تحتم على ألمانيا الغربية قطع علاقاتها مع أية دولة خارج دول المعسكر الاشتراكى تعترف بالمانيا الشرقية كدولة مستقلة.. إن حدث هذا ماذا نحن صانعون؟ إن منطق تصرفنا يقضى علينا بالسير فى الخط العربى.. وإن فعلنا هذا فماذا سيحدث للعون الألمانى للسودان وبعضه يمس مشروعات إنشائية أساسية كخزان الرصيرص؟؟ وهذا وحده يشير إلى أن الأمر يستلزم ضرورة الدراسة الوافية والتشاور بين مخططى السياسة الخارجية والاقتصادية وخبراء الرأى للمواقف التى تطرأ وكيف يمكن تفاديها.. أقول كل هذا وليس لدى من دليل واحد على أن المسئولين قد فعلوه.. كما ليس لدى من دليل واحد على أنهم بصدد فعله..

والمثل الآخر هوحادث الاعتداء الجوى الجائر على يوغندا.. وقد قابلناه بعد تلكؤ حائر ببيان يؤكد وقوف السودان بجانب جارته فى محنتها.. وفى ظنى المتواضع أن الاعتداء على يوغندا كان يجب أن يدرس فى إطار مايدور اليوم فى الكنغو ـ ونحن طرف فعال فيه ـ كان يحب أن يدرس فى اطار الصورة الملتهبة المتفجرة.. صراع ضار فى الكنغو ماتورع معه أصحاب المصالح فى كاتنقا عن غزو ستانليفيل فى قرصنة مستهترة.. وصراع مستتر فى جاراتها تتسلل من فروجه أيدى الغدر لتقتل رئيس وزراء برندى ووزير الإعلام فى جمهورية الكنغو الوسطى مع اثنين من أقطاب الحزب

الحاكم.. وفى هذا الإطار كان يجب أن يكون رد الفعل فى السودان نشطًا جسورًا، لأن الذى اعتدى لن يجد سببًا واحدًا يمنعه من الاعتداء على مطار جوبا. سيما ونحن نعرف أن اعتداءً جويا عابرًا قد وقع قبل شهرين على الطريق العام عند أبا.. والتنسيق هنا كان يقضى على الدولة بأن تعقد مجلس دفاعها لدراسة الاحتمالات القريبة والبعيدة.. كان عليها أن تعبىء الرأى العام القارى والدولى ضد أى نزوة مخبولة قد تبدو من أى جهة كانت.. كان عليها أن تؤكد تأييدها ليوغندا التى تساند السودان فى أزمة جنوبه فى فعالية ملحوظة بشىء أكثر ابانة وأخطر أثرًا من برقية عابرة.

الجهاز المنفذ:

وزارة الخارجية يميزها أنها الوزارة الوحيدة التى صنعها السودانيون. لم يرثوا فيها الأضابير.. ولم تكبلهم فيها اللوائح والمنشورات الخالدة.. وهذان عاملان كان يمكن أن يمكنا القائمين بها من تطويرها لكيما تؤدى دورها فى انطلاق مبتدع.

ولدت الوزارة قبل أعوام تسعة.. وبدأت بهيكل مرتجل ـ وكان لابد أن يرتجل فى البداية، وحشدت لوظائفها مجموعة من المواطنين فيهم كثير من مستنيرى هذا البلد، حشدتهم لأمد محدود تجرب فيه طاقاتهم، وملكاتهم العقلية والخلقية ثم تقوم عند انتهاء هذا الأمد بنثر كنانتها وعجم عيدانها لاختيار الأصلح منها والأبقى..

ومضت سنون تتلى.. خبرت الوزارة فى غضونها موظفيها كفاية وخلقًا واستواء قصد.. وخبرت أجهزتها فى أتون الأحداث والتجارب.. فما الذى أصاب الجهاز الطارئ؟؟ وما الذى أصاب الكوكبة التى حشدت؟

خيبة الأمل الطاغية تعترى السائل عندما يعلم أن الجهاز الطارىء ـ فى وزارة السودانيين التى لم يرثوها ولم تكبلهم فيها قيود البروقراطية القديمة المتحجرة ـ قد ظل فى وجهه الأول.. بعد تسعة أعوام استقلت فيها القارة الأفريقية جميعها إلا بضعة أقطار، ليس بالوزارة قسم أفريقى بعديد دبلوماسييه ودراساته.. وبعد تسعة أعوام من

اشتراكنا فى الجامعة العربية ليس بالوزارة قسم عربى يبحث ويستقصى ويلاحق خطوط السير السياسى العربى سيما والحقيقة العربية لم تعد الآن صورة باهتة مهزوزة.. وبعد تسعة أعوام من انتمائنا إلى منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها الفنية ليس من قسم للمنظمات الدولية ينسق جهود مؤتمراتها ويتمركز فيه الاتصال بين تللث الهيئات والوزارات المختصة التى تتعامل معها على صعيد العمل الفنى مثل الاعداد للمؤتمرات والبعثات والزيارات وحلقات البحث.. لا أتحدث هنا عن عدم وجود قسم ثقافى يشرف على مركزية الاتصالات الثقافية مع المنظمات الدولية عدا اليونسكو التى تتعامل بحكم نظمها مع لجانها القومية فى الدول الأعضاء. وعندماأقول كل هذا أدرك جيداً أن ندرة الموظفين وقلة الاعتمادات إنما هى فى الغالب الأعم عقبة لئيمة.. ولكنى أدرك أيضا أن التخطيط فى مفهومه الواسع هو تحديد للأفضليات وتوزيع منطقى للامكانيات .. وفى اعتقادى المتواضع أن انشاء قسم أفريقى وقسم عربى لأهم للسودان من اقامة سفارة لنا فى روما مثلا أو حشد خمسة من الدبلوماسيين فى لندن بجانب الملحقين العسكرى والتجارى والثقافى.. وهو أمر لانشهده فى موسكو وواشنطون مركزى الثقل فى السياسة الدولية، ولا نشهده فى نيويورك معقل الدبلوماسية الأممية.. نعم أن الأمر لايبرره إلا أنا ورثنا «خانات» فى ميزانية وكالة حكومة للسودان فى لندن وملؤها لأسهل من الغائها لأن الالغاء يتطلب التفكير والتقدير والتدبير..

وخيبة الأمل الطاغية تعترى السائل عندما يرى أن عدوى الماسونية قد تغشت الوزارة الناشئة فى تقريرها الابقاء أو الاقصاء لمن حشدتهم من الموظفين.. فكثيرون ممن اختارتهم الوزارة فى الابتداء قد شيدوا للسودان خدمة دبلوماسية كريمة فحق لهم البقاء والترفيع.. وقلة اثبتت رغم قدراتها فى ميادين أخرى ـ إنها لا تستطيع التأقلم فى البيئة الجديدة لا فكرًا ولا عاطفة فوجب أن تعود من حيث أتت، فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى، وبعض قليل أثبت للقاصى والدانى أنه لايملك لا علمًا ولا خلقًا ولا مسلكًا ـ يمكنه من تمثيل

السودان فى داخله ناهيك عن تمثيله فى خارجه، ولكن المجاملة فى الشئون العامة أبت على المسئولين أقصاءهم فبقوا هانئين وكلهم كادح إلى الترقى كدحًا آليًا فملاقيه.. ولم يدر بخلد المسئولين هؤلاء أن روح المبادرة والتنافس الشريف الخلاق عند زملائهم تقضى بغيرهذا.. ولم يدر بخلد المسئولين هؤلاء أن امكانيات الترفيع فى وزارة صغيرة ناشئة قد تمكن هذا النفر القليل من ارتقاء مناصب لا يعادلها فى المسئولية ولا الخطورة ما كان يمكن لهم أن يتقلدوه من مناصب فى مصالحهم القديمة داخل السودان.

وقد كان فى مقدور ذوى الشأن معالجة مابدر فى الوزارة الناشئة من أخطاء أكثر من أى وزارة أخرى.. كان فى مقدورهم اللجوء إلى الانتداب الموقوت للوظائف الكبرى فى الوزارة، وهو أمر أرى أن المصلحة تقضى بتطبيقه وتعميمه على كل الوزارات فى السودان فى مستوياتها العليا عدا تلك التى تقضى طبيعتها الفنية البحتة بغير هذا كما أن الكثير من بلاد الله تعمل به .. لقد رأينا بالأمس مثلا حكومة مصر وهى تنتدب الدكتور عزت سلامة من مقعد الأستاذية فى جامعة عين شمس حيث كان يدرس تخطيط القوى العاملة لتجعل منه مديرًا لأسوان إدراكًا منها أن جميع الطاقات الإدارية والفنية فى مصر يجب أن توجه لبناء السد العالى الواعد بالخير.. ومبلغ ظنى المتواضع أن التنظيم والتنسيق الجديد للخدمة العامة يجب أن يصدر عن الواقع الجديد لا عن منشورات المستر بيرقس..

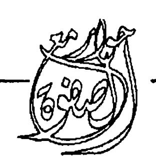
وأعود للخارجية فأقول أن الانتداب كان يمكن أن يعالج الكثير من الأخطاء.. وأن الاستعانة ـ على المستويات العليا ـ بكفاءات من خارج الخدمة كان يمكن أن يعالج الكثير من الأخطاء.. وكلا الأمرين معمول به فى بلاد العالم.. ولكن بعض القائمين بشأن الوزارة يقولون أنهم يريدون إنشاء خدمة خارجية مستقلة مثل بريطانيا لا مكان فيها للوافدين، والقول مردود لسببين: أولهما شكلى وهو أن مخططى السياسة فى الدولة الناشئة كان يجب أن يسترشدوا فى هذا المضمار بخبرات العالم الذى يعيش مايعيشون من ظروف.. خبرات الهند ومصر وغانا.. الدستور نريده من وستمنستر.. الصحافة نريدها على نمط

فليت ستريت.. الخدمة العامة نريدها على نسق هوايتهول.. والأمر فى يقينى نتاج عقدة جهل لا أكثر ولا أقل.. وثانيهما موضوعى وهو أن «موحى دلفى». هذا الذى هو بريطانيا - لم يشر بعدم الاستعانة بالكفاءات من الخارج والانتداب من الوزارات الأخرى فى الجهاز الدبلوماسى.. فبريطانيا تحدد أمر تمثيلها الدبلوماسى على أساس متطلبات السياسة العامة، فهى تقرر قبل ثلاثة أعوام إرسال اورمسبى قور وزير الدولة للشئون الخارجية سفيرًا لها فى واشنطن لأن ما كميلان يريد فى ذلك المنصب من يأتمنه هو شخصيًا، وترسل لنفس الأسباب اللورد هيد وهو نفسه السير انطون هيد وزير الحرب إبان الاعتداء على السويس سفيرًا لها فى ماليزيا قبل بضعة أشهر بعد انتداب قصير فى نيجيريا نتيجة للصراع السياسى الدائر هناك والذى يتهدد مستقبل بريطانيا كله فى شمال شرق آسيا.. وينتدب ماكميلان النائب العمالى ديفريتاس ليرسله سفيرًا لغانا لما له من علائق وثيقة بكوامى نيكروما، ويجىء ويلسون بالأمس لينتدب فريمان محرر النيوستيتسمان لمدة عامين كسفير لبريطانيا فى الهند لما له من علاقات فابية عميقة الجذور بقادة حزب المؤتمر.. إذن فالقول الثانى مردود لأنه كاذب ومغلوط.

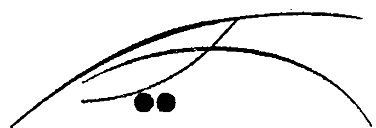
إن ولاية أمور الناس لأمر شاق ومضنى حتى قيل فيه «ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يدلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا» وأن اختيار من يلى أمور الناس لهو أشد مشقة وضنى.. على أن الميزان بسيط أن استوى القصد، ففى ما قال عمر «أن أحبكم إلينا قبل أن نرام هو أحسنكم سيرة، فإذا تكلمتم فابينكم منطقًا فإذا اختبرناكم فأحسنكم عملا..».

وبدون التطبيق الواعى الأمين لهذا المعيار السوى سيظل مستقبل هذه الأمة - فى داخلها بقدر مافى خارجها - حالكا مدجونا كالليل النابغى.





الشخصية السودانية والتخطيط (*) التربوى.. والثقافى



العلم مثلث الألوان ـ وإن رفرف خفاقا فى العالمين كما تقول أناشيد المدارس الوسطى ـ لا يكفى وحده لتأكيد معنى الاستقلال وهو معنى عميق رحيب.. فالاستقلال فى جوهره هو تأكيد الشخصية القومية فى أبعادها المختلفة، السياسية والاقتصادية والثقافية، كان ذلك فى الممارسة الطليقة لسيادة الأمة وارادتها أو فك طاقاتها وقدراتها الانتاجية من إسار الاستغلال أو إزالة ماران على كيانها من صدأ فكرى افتعله الحكم الأجنبى ليطمس به معالم الشخصية القومية.

وثمة دور رئيسى تلعبه الثقافة والتربية فى تأكيد الشخصية القومية.. فى خلق الفكر الوطنى الجديد الأصيل.. فى اقتفاء الجذور الحضارية التى تبدو الأمة بدونها خلقا شائها كطلع الشياطين.. إن الراشدين من ساسة العالم الذى يعيش ما نعيش من مرحلة تاريخية قد أدركوا هذا الدور أدركوا أن الاستقلال لا يكتمل إلا بتحرير العقول من ربقة الاستعباد الفكرى.. وأن النهج الوحيد التى تستطيع الأمم الناشئة أن تقتفيه حتى تدلى بدلوها فى بحر الحضارة الانسانية الطامى إنما هو نهج تدعيم كيانها الثقافى. إن أى ثقافة لا تنبجس مع واقع الأمة هى ثقافة دخيلة ممسوخة، لا مكان فيها للرأى الأصيل، ولا مكان فيها للفكر المستقل.. ومثل هذا الاحساس بالاصالة والجذور هو الذى جعل ليوبولد سيدار سنغور زعيم السنغال ورئيس دولتها يتبنى أفكار الكاتب المارتينكى أيمى سيزار حول الزنجية ثم يحورها ليخرج منها بفلسفة

(*) الأيام: ١١ مارس سنة ١٩٦٥.



جديدة عن التمازج بين الثقافة الزنجية والحضارة الأوروبية المسيحية تصبح أساسًا فكريًا لدولته الجديدة، ومثل هذا الاحساس بالاصالة هو الذى يجعل زعماء الثورة الجزائرية يتحدثون عن الجذور العربية الاسلامية فى الثورة الجزائرية ويقولون بأن الاشتراكية الجزائرية ستظل فاقدة لبعد من أهم أبعادها طالما عبر عنها أهلوها بالفرنسية لأن الاشتراكية الراشدة نفسها، فى اعتقادهم، لتقضى بالاسراع بالتعريب لتقريب مفاهيمها من وجدان الفلاح.. الصانع الحقيقى للثورة.. ومثل هذا الاحساس بالجذور هو الذى يجعل زعيمًا من أكثر زعماء أفريقيا وضوح رؤية، واستبانة هدف، وقوة بيان. .. وأعنى به مادبوكيتا.. تجعله فى إقامته لدولته الحديثة المتطلعة يرتكز على الجذور الثقافية لانسان السودان القديم أيام نهضة تمبكتو ومملكة مالى.

ومقدمة كهذه ضرورية لنرى ما فعلت بالسودان حكوماته المتعاقبة فى سبيل تأكيد الشخصية السودانية، وفى سبيل توجيه القوى الجديدة وهى تسعى لبناء أمة جديدة.. ولكيما نفعل هذا لابد لنا من تأكيد مفهومين أساسيين: أولهما أن السودان قطر عربى الثقافة ـ فى غالبه الأعم ـ وثانيهما أن السودان بلد متخلف ينشد تعبئة كل قواه لبناء الأمة وتحقيق المجتمع السعيد الواعد.. فإن جعلنا هذين المفهومين هما نقطة الانطلاق فى أى محاولة للتخطيط الثقافى وجب علينا أن نرى ما حدث فى الميدان التربوى فى الأعوام اللاجبة التى تلاحقت بعد الاستقلال.. نرى ما حدث لتحوير السلم التعليمى ليساير المتطلبات الجديدة للتنمية الاقتصادية.. نرى ماحدث من تطورعلى البرامج التربوية لتماشى احتياجات مجتمع السودان المستقل.. نرى ماحدث لاعادة التخطيط المدرسى بصورة تكفل المزيد من العدل والديمقراطية فى التعليم.. نرى ماحدث فى الميدان الثقافى للاستفادة من طاقات النشر كالراديو والمسرح فى بث الثقافة الوطنية واخراجها صقيلة للعالمين.

التخطيط التربوى:

طبيعة الأشياء تقضى بأن أبادر بالحديث عن التربية فهى الأساس.. وأردت أن أفرد لها مكانًا خاصًا لأن التعليم ليس هو الثقافة والثقافة ليست هى التعليم..

فبعض المثقفين ليسوا بمتعلمين وكثير من المتعلمين ليسوا بمثقفين.. بل أن الثقافة منهم براء.

.. وفى مطلع الحديث عن التخطيط التربوى نتساءل عن مافعله السودان المستقل لتأكيد شخصيته العربية.. ولكيما تكون هناك شخصية عربية، وكيان ثقافى وعربى، وحضارة عربية.. لابد أن يكون هنالك لسان عربى. إن الحقيقة الكبرى قد استبانها السيد ميرغنى حمزة أول وزير معارف للسودان بعد الاستقلال عندما استدعى لجنة المربى الهندى سيدين لتدريس اعادة تخطيط وزارة المعارف وبرامجها وتعريبها.. ودحضت اللجنة حجة القائلين باستحالة التعريب.. بل أن أحد أعضائها وهو الدكتور عبد العزيز السيد وزير التعليم العالى فى مصر وكان يومها استاذًا للتربية فى جامعة عين شمس ـ قد أشار فى تقريره بإمكانية التعريب الكامل فى المدارس الثانوية فى خمس سنوات.. حدث هذا فى عام ١٩٥٥. واليوم وبعد أعوام تسعة يلتفت المرء ليجد مدارس السودان العربى تدرس فى مرحلتها الثانوية العلوم، والرياضيات، والجغرافيا، وجزءًا من التاريخ باللغة الانجليزية والذى أعرفه أن وزارة المعارف نفسها قد قامت بتجرية تدريس الرياضيات باللغة العربية فى مدرسة خور طقت وأن التجرية قد أثبتت قدرة طلاب الفصول الأولى على اجتياز امتحانات الفصول النهائية بنجاح. وأقول أنا ـ بعقلية المواطن العادى الساذج ـ أن الأمر لم يكن بحاجة إلى تجربة فى خور طقت فإن المرء بطبعه لأقدر على التعبير بلسانه القومى الموروث منه بلغة أجنبية .. والذى أعرفه ـ فى هذا الميدان بالذات ـ أن تقرير لجنة سيدين يحتوى على رأى صائب مقتضب أبداه الأستاذ عبد الله محمد سليمان وهو أستاذ للرياضيات يقول فيه بامكانية تعريب هذا اللون من الدراسات ويمضى فيه للقول بأن الحقيقة الجديدة ـ حقيقة الاستقلال ـ لابد أن تشمل بالضرورة الجهاز التعليمى الذى يجب تطويعه لمجابهة ظروف السودان الحر المستقل. والذى يزيد فى دهاء الأمر أن حكام السودان العربى المستقل وأحزابه التى تملأ الدنيا ضجيجًا اليوم عن الفكر المستورد، وقد

تعاقب جميعها على الحكم، لم تدل فى الأمر برأى ولم تعد له عدة.. لا فى برامجها، ولا فى خططها العاجلة أو الآجلة. ويمضى المرء فى الالتفات اليوم ليجد أن معهد التربية الجديد يصر على جعل اللغة الانجليزية لغة أساسية لابد من اجتيازها والدلالة فى هذا الأمر هى أن القائمين بأمر التربية مازالوا يعتقدون فى صميم وجدانهم أن اللغة الإنجليزية ستبقى لا كلغة يدرسها فى مدارس السودان من يجيد الإنجليزية من المعلمين بل كوسيلة للتعبير يلزم مدرسو السودان العربى المستقل بتعلمها.

.. ومبلغ ظنى أن هناك الكثير من الحجج التى تساق فى هذا المضمار.. وكلها حجج مردودة لأنها تقوم على أساس واحد هو افتراض الالتزام الدائم بجامعات بريطانيا. ومعايير جامعات بريطانيا.. تحدث الناس فى الماضى عن «شهادة كامبردج».. ويتحدثون اليوم عن المستوى والاعتراف بالشهادة السودانية.. والاعتراف ليس هو الاعتراف المطلق الذى ينبنى على قواعد موضوعية تصدق فى لندن وباريس كما تصدق فى وارسو وهانوى. وإنما هو الاعتراف كما تريده جامعات لندن واكستر ونيوكاسل أبون تاين.

والحقيقة الواضحة هنا هى أن الاستقلال الثقافى لم يكتمل ولن يكتمل طالما عجز الحاكمون حتى الآن عن رسم مخطط موضوعى للأسلوب الذى يتم به استرداد الشخصية العربية فى مدارس السودان.. وأن الشخصية القومية لن تكتمل مالم ينطلق التخطيط الثقافى من تلك النقطة لتحوير برامجه التعليمية لتدل الناشئة على جذورهم الحضارية وتغرس فى نفوسهم تقدير أمجادهم القومية.. فإن من حق المستر سكوت بل ومن واجبه أن يربى الأيفاع فى السودان على بلاهات تفتقد حتى القيمة الجمالية مثل حسن والجمل والجمل جمل حسن.. ولكن ليس من حق ساسة السودان وأحزاب السودان ومربيى السودان أن يسهموا فى طمس معالم الشخصية السودانية.

.. ولكيما نبنى المجتمع السعيد الواعد لابد من أن ندرك فى تخطيطنا التربوى أن التعليم الذى ننشد إنما هو تكوين لرأسمال انتاجى.. تعليم يسميه مخططو التربية بالتعليم الاستثمارى.. وإن هذا التكوين لابد أن يتم فى إطار للعدل الاجتماعى جديد وشامل..

.. وهذا يقودنى للحديث عن التوسع التعليمى.. فحكومة السودان تقول فى إحدى نشرات مكتب الاستعلامات المركزى أصدرتها قبل عام ونصف بعنوان التعليم فى عهد الثورة.. تقول حكومة السودان آنذاك ـ لا رعاها الله ـ لقد قبل فى عهد الثورة فى عام واحد للمدارس الثانوية للأولاد عدداً من الطلبة ـ وأمانة النقل تقتضى منى نصب نائب الفاعل فى بيان وزير التربية والتعليم فى السودان العربى ـ ضعف ما كان موجوداً فى كل الفصول وفى كل المدارس بعد خمسين عاماً من الحكم الاستعمارى. وحدث نفس الشئ بالنسبة للطلبة الجامعيين. أما فى مدارس البنات الثانوية فقد قبل هذا العام ما بلغ عشرة أمثال ماكان موجوداً فى خمسين عاماً.. أنها حقا لمقارنة مدهشة.. لكنه الفرق بين الثورة والاستعمار وهو كالفرق بين الظلام والنور.. وهذه نهاية حديث عهد النور.. والنور هذا ـ للانصاف ـ لم يبزغ فى عهد وزير التربية المعنى وإنما بزغ فى عهود سبقته تعاقبت فيها على وزارة المعارف عديد الأحزاب.. وأكون صادقًا لوقلت تعاقب عليها وزراء من الأحزاب التقليدية الثلاثة فى السودان.

.. وبعد، لنترك الأرقام تتحدث، ولأنقل القارئ معى مرة أخرى إلى احصاء عام ١٩٥٦ وإلى تقرير الأمم المتحدة عن احصاء القوى العاملة فى السودان الذى صدر فى العام المنصرم. احصاء عام ١٩٥٦ يقول بأن فى السودان ٥٣٨,٠٠٠ مواطنًا أكمل الدراسة الأولية ومن بينهم ١٠٥,٠٠٠ قاموا بدراسات فوق الأولية. يضاف إلى هؤلاء ٦١٠,٠٠٠ ممن أكملوا دراستهم فى مدارس تحت الدرجة، ويقول الاحصاء الجديد فى عام ١٩٦٤ أن تقدمًا واضحًا قد طرأ خاصة فى تعليم الأطفال، ففى الوقت الذى نجد فيه اليوم أن ٧,٤ فى المائة من الرجال قد نالوا تعليمًا أوليًا نجد أن النسبة قد ارتفعت بين الأطفال إلى ١٦ فى المائة.. وفى الوقت الذى نجد فيه نسبة التعليم بين النساء ١,٦ فى المائة قد ارتفعت بين الفتيات إلى ٦,٢ فى المائة.. ولكن أين مكان هذا



فى إطار التوزيع؟؟ الاحصاء الجديد يقول أن هنالك بعض التركيز الجغرافى للتعليم فى الشرق والشمال.. فى مديرتى الخرطوم والشمالية على وجه التحديد.. والاحصاء الجديد يثبت أن هذا التركيز التعليمى قد أدى إلى استمرار تطور التعليم فى الشمال والشرق بصورة زادت الهوة التى تفصل بين مستويات التعليم فى الغرب والجنوب والشمال لأبعاد مريعة.. وإليك أرقام احصاء عام ١٩٥٦:

المديرية	التعليم الأولى	التعليم فوق الأولى
الخرطوم	٢٤,٦٪	٤٤,٦٪
النيل الأزرق	٢٤٪	١٥,٧٪
كسلا	٨,٨٪	٨,٣٪
دارفور	٣,٧٪	٢,٤٪
كردفان	٩,٧٪	٥,٩٪
الشمالية	١٢,٧٪	١٣,٦٪
بحر الغزال	٩,٩٪	٤,٩٪
الاستوائية	٩٪	٢٪

هذه نسب التعليم بين الرجال ونسبها بين النساء إنما تشير ايضا إلى المزيد من التفاوت بين الشمال الشرقى والجنوب الغربى.. والاحصاء يثبت أن ربع من اكملوا تعليمهم الأولى هم من سكان مديرية الخرطوم التى لايزيد سكانها عن واحد على عشرين من أهل السودان، ونقارن هذا بمديرية مثل دارفور التى يقطنها سبع سكان السودان نجد أن بها أقل نسبة من الذين حظيوا بإكمال تعليمهم.. والمحزن حقا أن تزداد الهوة وتعمق هذه الفوارق فى سنى مابعد الاستقلال نتيجة لفقدان أى تخطيط منطقى.. فالتقرير يقول مثلا أن الزيادة المضطردة فى تعليم البنين والبنات فى سنى مابعد الاستقلال تتركز عند أطفال المدن وبين أبناء الطبقات التى تحتل مركزًا أكثر امتيازًا فى المجتمع..

فبالرغم من أن ٨٪ من سكان السودان يعتبرون من أهل الحضر نجد أن ثلثى المتعلمات من النساء ونصف المتعلمين من الرجال يقطنون فى المراكز التى تسمى حضرية، والنسب المخجلة تؤكد هذا .. التعليم بين الرجال فى إحصائه الأخير يقول بأن المتعلمين ينقسمون على الوجه التالى: ٨٨٪ من أهل المدن، ٣,٥٪ من البدو الرعاة و ٨,٥٪ من أهل الريف المقيمين.

.. والتعليم بين النساء فى احصائه يقول بأن المتعلمات ينقسمن على الوجه التالى: ٨٩,١٪ من أهل المدن و٣,٨٪ من الرعاة و ٧,١٪ من أهل الريف المقيمين، والحديث عن تركيز التعليم فى السودان بين أبناء الطبقات المحظوظة حديث ليس بالجديد لدى مخططى التربية فى أحزاب السودان أو لا ينبغى له أن يكون. فهى حقيقة قد أكدها منذ ٦ أعوام تقرير وزارة المعارف عن الاحصاء التعليمى الذى أعده خبير اليونسكو المستر ماينس بالتعاون مع الأستاذين مهدى الأمين وبابكر الهادى - والذى عرض للبيع فى مكتبات السودات العامة. وتقرير المستر ماينس يحصر التعليم فى السودان بين أبناء الطبقات الوسطى ويقول أن طلاب مدارس السودان ينقسمون على الصورة التالية: ٣١,٧٪ من أبناء رجال الأعمال و ٤٣,٧٪ من أبناء موظفى الحكومة والشركات و ١٦,٨ من أبناء المزارعين و ٧,٨٪ من أبناء العمال.. وهذا يعنى أن ثلاثة أرباع الامكانيات التعليمية فى السودان لا يحظى بها أبناء طبقة لايعدو أفرادها عشر أهل السودان.. والأسباب الرئيسية لهذا هى أننا لم ندرك أن ديمقراطية التعليم تعنى إعادة النظر الكاملة فى كل الهيكل الاجتماعى، فهى ضرورة التعليم وهى ترتبط بالاسكان والاستقرار للبدو والرحل، وهى ترتبط بالقوانين الاجتماعية التى تحرم تخديم الأطفال دون سن محدودة.. ولكيما ندرك هذا كان الواجب يقضى على ساسة السودان بالأمس أن ينهجوا النهج الوحيد الصائب لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية متكاملة ومنطقية.. كان عليهم انتهاج النهج العلمى الذى يقوم على الاحصاء والأرقام.. ومن المعيب حقا أن يقول المرء أن حزبًا واحدًا من أحزاب السودان المصطرعة على الحكم لم يدرس نتائج احصاء السودان الذى تم قبيل المعركة الانتخابية الأخيرة.. وأن حزبًا واحدًا لم يجعل من تحليل الاحصاء الذى تم أيضا قبيل الانتخابات نقطة ارتكاز لتخطيط مايريد من سياسة.



التخطيط الثقافى:

وفى الحديث عن التخطيط الثقافى يبادر المرء بالحديث عن التثقيف الشعبى.. التثقيف الشعبى عنصر هام مكمل للتربية والتعليم فى البلاد النامية، فلكيما يكون هنالك تعليم للجميع لابد أن توفر نسبة معينة بين الأساتذة والتلاميذ، وقلما تتوفر مثل هذه النسبة فى بلد فقير نام يشق طريقه للتنمية فى شىء من العسر والضنى، وقد قضى هذا النقص الحاد فى الطاقات بأن تلجأ للدول فى نشرها للمعرفة إلى استخدام الوسائل المستحدثة كالمرئيات والسمعيات.. وكأجهزة الراديو والسينما والتلفزيون.. والتجرية هذه تطبقها بنجاح البلاد المتقدمة فى التعليم الجامعى للعلوم الانسانية .. والتجرية هذه تطبقها اليوم كوبا والجزائر وليس فقط لنشر العلم ومكافحة الأمية، بل ولترسيخ المحتوى الجديد للاستقلال الوطنى فى أذهان السامعين والرائين.. والتثقيف الشعبى يتم عن طريق حملات محو الأمية والملاحق التعليمية .. فمحو الأمية عن الطريق التقليدى إنما هو جهد ضائع بلا متابعة.. والمتابعة تحققها الدول الناهضة عن طريقة أندية الثقافة وحلقاتها فى المدن والدساكر.. وقد كان فى مقدور وزارة الاعلام التى قضى الوضع الإدارى فى السودان باشرافها على التثقيف العام أن تهتم بهذه الأندية بنفس القدر الذى أهتمت به بالأندية الرياضية ـ على أهمية الرياضة فى مفهومها السليم النظيف.

الفنون القومية

إن التخطيط الثقافى يجب أن يستهدف من بين مايستهدف تأكيد الشخصية القومية السودانية وإبراز مظاهر النهضة السودانية فى صورتها البعيدة التى طمست.. وفى صورتها القريبة التى تصارع شتى العوامل للبروز.. فهنالك مظاهر الثقافات المحلية من موسيقى ورقص ونحت وتصوير.. فقد كان فى مقدور المسرح القومى مثلا أن يلعب دورًا أساسيًا فى هذا، فالمسارح القومية قد قامت لإبراز الفن القومى فى تعابيره المسرحية المختلفة.

.. ولكن حكومة السودان فعلت بالمسرح مالم تفعله حكومة تحترم نفسها.. إن الحكومات لا تنافس أصحاب المراقص الليلية فى أعمالهم.. إن المسارح القومية لم تقم لتقدم للناس فرقة أضواء المدينة والثلاثى المرح وشادية.. فهذا عمل يقوم به فى مصر كازينو بديعة.. إن المسرح القومى فى مصر كان ذلك عند مبتدئه عندما افتتحه الخديوى لاستقبال أوبرا فيردى الخالدة ـ عايدة ـ أو عند منتهاه على عهود سليمان نجيب وعبد الرحمن صدقى إنما هو محفل للفن الرفيع يعرض فيها الناس فنونهم الأصيلة.. وهذا يتطلب أن يوضع المسرح على يد رجال يدركون أهميته الثقافية ويتميزون بفهم عميق لمدلول العمل المسرحى..

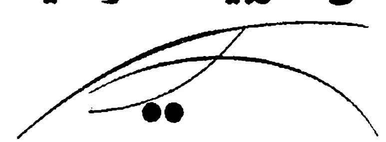
.. والموسيقى السودانية الأصيلة والرقصات السودانية الأصيلة كان فى مقدور وزارة الثقافة أن تقدمها وتخرجها فى صورة ناصعة جديدة للعالم.. لقد استدعى سيكوتورى فى العام الماضى الفنان الزنجى هارى بلافونتى لقضاء عام فى غينيا يقوم فيه بتكوين فرقة الباليه الغينى وإبراز الروائع الموسيقية للساحل الغينى فى صورة جديدة شائقة.. وقد خرجت فرقة الباليه الغينى فى الخريف الماضى لتلهب الاكف بالتصفيق أين ذهبت.. إن الفن السودانى الأصيل ليس هو الأغانى التى يرددها الفنانون العشرة الذين نسمعهم آناء الليل وأطراف النهار فحسب.. هنالك موسيقى رفيعة فى جنوب السودان.. وهنالك رقصات شعبية رائعة فى غرب السودان.. وهنالك أغان عظيمة المحتوى فى شمال السودان.

والتخطيط الثقافى يقضى بأن تجند وزارة الاعلام الطاقات العديدة المبددة.. أن تتيح لها فرص التعبير المنتظم.. أن تتيح لها فرص النشر والدعاية.. أن تعاونها على عرض انتاجها البديع الثر. إن للثقافة دورًا كبيرًا خطيرًا تؤديه فى سبيل تأكيد معنى الاستقلال.. فهل أدركناه!

■ ■ ■



الجامعة وجذورها (*) فى التربيـة السودانيـة



فى السودان جامعة ولدت فى اطار تنظيمى أجنبى.. ونمت فى جو فكرى أجنبى.. وفى مجتمع ماقبل الاستقلال تقبل الناس هذا الحال باعتباره حقيقة من حقائق الحياة والاحياء.. حقيقة تقتضيها طبيعة الحكم الأجنبى الذى يكيف الحياة.. ولكن الناس قد ظنوا - وبعض الظن إثم - أن مجتمع مابعد الاستقلال إنما هو مجتمع جديد تتغير فيه القيم وتتبدل فيه المفاهيم.. ظن الناس أن جامعة السودان الحر المستقل ستنضو عن جسمها ثوب الاتباعية المسترخية، وستطرح من كتفها أثقال الاستعباد الفكرى، .. وستلقى من أمامها ذلك الحجاب الصفيق الذى يفصل ما بينها وبين المجتمع الذى نعيش فيه حتى لايظل السودان مستغلقًا على بنيه. ظن الناس - وبعض الظن إثم - أن المجالس الإدارية التى تخطط لجامعة الخرطوم المنهج والسبيل وأن مجالس الوزراء التى تعين هذه المجالس.. وأن الأحزاب التى تنصب هؤلاء الوزراء ستدرك أن لجامعة السودان المستقبل رسالة غير تلك التى أرادتها لها بعثة ديلاوير وخططها لها الدكتور توتهل.. ظن الناس - وبعض الظن إثم - أن هؤلاء جميعًا سيدركون أن للجامعة وظيفة فى إعادة بناء الشخصية السودانية، فى تقصى جذور الفكر السودانى المطموس، فى الاسهام النشط فى بناء الأمة وتنمية المجتمع، فى تعميق المحتوى الفكرى للاستقلال الوطنى عند المثقفين، فى تأكيد كيان السودان

(*) الأيام: ١٤ مارس سنة ١٩٦٥.



العربى، فى خلق منارة للفكر الأفريقى فى أول بلد يستقل فى أفريقيا جنوب الصحراء لتكون هديا ونبراساً للقارة الناهضة... ولكن ما الذى حدث؟.. وأين نحن من كل هذه الأمانى وتلك الأحلام؟

الجامعة وجذورها العربية السودانية

لكيما يحور الكيان الجامعى لمجابهة احتياجات المجتمع الجديد فى السودان العربى.. لابد أن تتوفر لها فى المبدأ سمات الشخصية السودانية.. ولابد أن يتوفر لها الروح العربى.

وفى الحديث عن الشخصية السودانية ابدأ بقصة.. ووقائعها دارت عقب إعلان الاستقلال وتبدأ القصة بمقترح عابر تقدم به صديقى اللماح جمال محمد أحمد ـ وكان قد أدبر عن الجامعة يومها ـ يقترح فيه على كبير من رجال إدارتها تعيين الدكتور محمد عوض محمد أو الدكتور قسطنطين زريق لكيما يمكنا الجامعة الناشئة من اجتياز مرحلة الانتقال الفكرى من جو أفرنجى خالص إلى جو عربى خالص.. وكانت الجامعة يومها تتدارس أمر خلف لولشر.. وكان من رأى جمال ـ وقد قال رجال الإدارة يومها بعدم توفر الكفاءة السودانية لتولى إدارة الجامعة ـ كان من رأيه أن الدكتور عوض، وهو رجل درس على المنهج البريطانى فى اكسفورد وتمرس على العمل الجامعى فى مصر، وعرفه العالم العربى كعلم من أعلام النهضة الحديثة، لهو أقدر الناس على تحقيق الانتقال الفكرى الصحيح فى الجامعة.. ويومها أصيب الكبير من رجال إدارة الجامعة بما يشبه الصرع. وهو يقول أو تريد أن تسلم الجامعة للمصريين.. وقلت يومها لجمال مالهذا الرجل أوزايله عقله؟.. فقال جمال أن الرجل جحش لاعقل له.. ودلالة القصة ليست هى أن الدكتور عوض كان سيصبح مبعوث العناية الإلهية لانقاذ الجامعة بل الذى أعرف هو أن جمالا كان يعبر عن رأى عابر.. بل أنه ليس هنالك ما يؤكد أن الدكتور عوض كان سيقبل العرض لو قدم إليه.. فقد عين بعد الحادث ببضعة أسابيع وزيراً للمعارف فى حكومة عبد الناصر الثانية وهو

منصب أعفى منه بعد قليل ليتولى منصبًا آخر رآت حكومته أنه أكثر أهمية هو منصب رئيس اللجنة التنفيذية لليونسكو بباريس.. دلالة القصة إنما هى فى تصويرها للعقول الآسنة التى ظن الناس أنها قادرة على تحوير جامعة الخرطوم لمجابهة الحقيقة الجديدة.. حقيقة الاستقلال.. والعقول الآسنة هذه نفسها.. التى تغار على جامعة السودان المستقل من نفوذ مصر لحد رفض تنصيب احدى قمم الفكر العربى على رأسها لأنه مصرى، هى نفس العقول التى رحبت فى مكانه، بمايكل قرانت مديرًا لجامعة السودان المستقبل .. وكأن قرانت هذا الذى سيصون بكارة جامعة السودان الحر المستقل إنما هو سودانى من أبناء قبيلة الميدوب.

جاء قرانت ومضى الناس فى ظنهم ـ وبعض الظن إثم ـ أن إدارة الجامعة ستنصرف إلى وضع خطة لسودنة الجامعة واسترداد شخصيتها العربية.. ولم يفعل مجلس الجامعة فى عام قرانت الأولى ولا فى عامه الثانى شيئًا من هذا.. ومجلس الجامعة هذا كان يضم مندوبين عن البرلمان يمثلون أحزاب السودان جميعها.. كان فيه من يمثل حزب الحكومة.. وكان فيه زعيم المعارضة.. وكان فيه غير هؤلاء كوكبة ممن تسميهم الصحف السيارة بالصفوة.. وجاء الحديث عن سودنة الجامعة وضرورتها.. لا من مجلس الوزراء.. ولا من مجلس الجامعة.. ولا من أحزاب السودان التقليدية ولكن من اتحاد طلاب الجامعة.. جاء منهم مطلبًا تقدموا به فى عريضة.. وجاء منهم مطلبًا تظاهروا من أجل تحقيقه.. وإزاء هذا الضغط خرج قرانت مذعورًا كما خرجت بلجيكا من الكنغو.. وإزاء هذا الضغط أخرج المستر وود من وظيفته كمسجل للجامعة.. وظن الناس مرة أخرى أن مجلس الجامعة سيحسب هذه فاتحة عين ويحقق للجامعة السودنة الكاملة فى وظائفها الإدارية الباقية كوظائف للعمداء.. ومبلغ علمى أن سودنة وظيفة مدير الجامعة ومسجلها لم تتبعها فى الحال سودنة وظائف العمداء .. عدا كليتى الطب البيطرى والزراعة.. ومبلغ ظنى أنه كان فى مقدور الجامعة يومها أن تسودن جميع وظائف العمداء فلئن ارتضت الجامعة اليوم أن يحتل مناصب العمداء فيها السودانيون حتى وإن كانوا فى درجة محاضر فما الذى منعها عن تطبيق هذا بالأمس، وقد كان فى

كل كلية من كليات الجامعة دون استثناء محاضر سودانى.. والأمر لا توجبه العنصرية وإنما توجبه أولا ضرورة تطعيم هذه المؤسسة العلمية الكبرى بالروح الجديد.. وهو أمر حاربه الفرنجة الذين تقلدوا مناصب العمادة بالناب والظفر.. وما قصة كلية الحقوق التى يعرف أمرها عميداها السودانيان السابقان إلا إحدى النماذج المؤسفة الشائنة لقتل كل روح للتطور والابداع.

التعريـــب

ولكيما يكتمل استرداد الشخصية السودانية كان لابد لمخططى التعليم العالى أن يدركوا أن هذه الجامعة مرتبطة بالنهضة العربية فى حاضرها ومستقبلها، وبمثل هذا الإدراك لزم عليهم أن يرسموا خط سيرهم.. والحقيقة الأولى هى أن التعريب فى الجامعة مرتبط بالتعريب فى المدارس الثانوية، والحقيقة الثانية أن التعريب فى الجامعة مرتبط بقضية تعريب المصطلحات العلمية والتكنولوجيا فى العالم العربى.. ولكن هاتين الحقيقتين لاتجعلان من مشكلة التعريب فى الجامعة أمرًا يقبل الارجاء أو الإبطاء.. فالتخطيط لايعنى التعريب غدا ولا بعد الغد. لقد خططت الهند لجعل الهندوكية لغة رسمية فى البلاد منذ يوم استقلالها الأول، حددت له الطريق والميقات.. وتم تنفيذ القرار قبل خمسة أسابيع فقط.. وجامعة مثل جامعة القاهرة مازالت تدرس حتى اليوم الطب وبعض العلوم فى السنوات النهائية باللغة الانجليزية.. ولكن هذا يتم فى اطار مخطط مدروس وخاضع للتحويرات التى تمليها نتائج التطبيق العملى.. والذى أعرفه أن خطة كهذه لم ترسم.. لم يرسمها مخططو التربية فى وزارات السودان ولا فى أحزاب السودان.. بل إن أحدًا منهم لم يفكر من باب الدرس فى الافادة من تجارب الآخرين.

مؤتمرات الجامعة العربية لوزراء التربية عالجت من بين ما عالجت أمر التعريب وتوحيد المناهج إلا أن مقرراتها انتهت فى السودان فى أضابير إحدى مصالح الدولة.. والجامعة العربية تبدى اهتمامًا فائقًا بأمر المصطلحات العلمية.. عقدت لهذا مؤتمرًا

فى العام الماضى فى قسطنطينة دعت إليه حكومات العرب جميعها، فحضرت جميعها إلا السودان أكثر الأقطار العربية معاناة فى هذا المجال ـ إن استثنينا الجزائر والمغرب ـ والمسئولية ليست هى مسئولية الجامعة لا مسئولية وزارة التربية والتعليم وإنما هى مسئولية وزارة الدبلوماسية وحكومة وزارة الدبلوماسية فى أعلى مستوياتها وقدرتهما على تقييم الاحتياجات الحقيقية للسودان الجديد، والإدراك بأن هناك ترابطًا فى عالم اليوم بين ما يدور فى الداخل والخارج.. الحاجة للتعريب.. امكانيات التنمية الاقتصادية.. والمؤتمرات الدولية كلها تلتقى فى نقطة واحدة هى المصلحة القومية العليا فى اطار التزامات خلقية على الصعيد الإقليمى، والقارى، والأممى.

والذى يحز فى النفس بعد كل هذا هو أن مناخ الجامعة نفسها لا يعاون على هذا الفهم لأهمية التعريب.. فالجامعة التى تبعث باساتذتها السودانيين وكلهم ذوو لسان عربى غير ذى عوج ـ أو هكذا يفترض فيهم أن يكونوا ـ للتخصص فى اللغة العربية والشريعة الإسلامية فى جامعة لندن مع وافدى فارس وسرنديب، لجامعة غريبة، وكان فى ظن المرء ـ وبعض الظن اثم ـ أن جامعات مصر التى تضم قممًا شوامخ فى الأدب العربى مثل خلف الله والشايب وشوقى ضيف.. وقممًا شوامخ فى الفكر الإسلامى مثل أبى زهرة ومحمد يوسف موسى والخفيف لقادرة على أن تجيز لاساتيذ جامعة الخرطوم رسالة دكتوراه أوأطروحة أستاذية عن أبى حيان التوحيدى أو قواعد الميراث عند الحنفية.. ولكن فى الأمر عقدة هى عقدة نقص عند البعض.. وهى عقدة أستعلاء عند البعض الآخر.. وبين هؤلاء وأولئك تضيع الحقيقة فى مهمه مشتبه.

الجامعة والتنمية الاقتصادية

فى البلاد النامية لابد من الارتباط اللصيق بين التخطيط التربوى والتخطيط الاقتصادى.. وفى هذا الإطار لابد من تطويع الجامعة لتؤدى دورًا أكبر فعالية فى تدعيم التنمية الاقتصادية.. وهو أمر لابد أن يتبدى فى مناهجها.. فى بحوثها العلمية.. فى تحويرها لأساليب القبول والتخريج حتى تمد البلاد باحتياجاتها من

الخبراء والباحثين.. وقصة عجز الجامعات عن مسايرة التطور الاقتصادى والصناعى ليست بأمر جديد، هى مشكلة تعانى منها البلاد المتقدمة بنفس الصورة التى تعانيه بها البلاد النامية.. فقد كان حديث الناس فى بريطانيا فى الأعوام الأخيرة هو عجز الجامعات التقليدية عن إمداد بريطانيا بما تحتاج إليه من فنيين وعلماء.. وهو حديث انتقل من حلقات النقاش وصفحات الصحف إلى المجالس النيابية عندما بدأ البرلمان الانجليزى بالشكوى من هجرة العلماء الإنجليز إلى أمريكا وقاد الحديث بدوره ـ بالرغم من محاولة اللورد هليشام وزير العلوم وقتها وضع الصورة داخل اطار مزيف وهو الإغراء المادى الذى تقدمه أمريكا ـ إلى الحديث عن وجوب تحوير النظام التعليمى لتوفير المزيد من العلماء والخبراء ومن أجل هذا ألف البرلمان لجنة برلمانية هى اللجنة التى قالت بضرورة الاقلاع عن المفهوم التقليدى البريطانى للجامعات.. ففى الوقت الذى تبلغ فيه نسبة الجامعيين فى بريطانيا ـ وهى بلد يؤمن باحتكار الصفوة للتعليم العالى ـ ٣ فى الألف، ترتفع هذه النسبة إلى ١٥ فى الألف فى الولايات المتحدة و ٨ فى الألف فى الاتحاد السوفيتى و ٧ فى الألف فى اليابان وهى البلاد التى تؤمن بعدم اخضاع التعليم الجامعى للمقاييس التقليدية وتطويعه لكيما يساير مقتضيات التطور الاجتماعى، والاقتصادى، والديموغرافى فى الوطن الذى يخدمه.. ونتج عن هذا النقاش فى بريطانيا تحويل العديد من المعاهد العالية إلى جامعات وقد كان ذلك من الأمور المنكرة فيما مضى.. وليس هنالك ما يدفع المرء للقول بأن المستويات فى جامعات أمريكا والاتحاد السوفيتى واليابان قد انخفضت لأجل هذا.. سيما فى العلوم.. وخطاب السير شارلس سنو «س. ب. سنو» فى جامعة هارفرد قبل عامين والذى نشر فى كتيب عنوانه الثقافة والثقافة الأدبية لأحد الشواهد على هذا الرأى.. ومن واجبنا هنا أن نحدد إن كنا نريد أن نصنع من جامعة الخرطوم بريزنوز أخرى تخرج للناس صفوة تسبح فى أجواء غريبة على هذا الديار.. أم نريد منها جامعة تحدد خطر سيرها وفق احتياجات هذا القطر.. ووفق مقاييس

توضع فى الخرطوم لا فى لندن. إن أردنا الثانية فعلينا أن نعيد النظر فى الكثير.. الكليات التى يجب أن تنشأ.. المستويات العامة فى الامتحانات.. أسلوب ترفيع الأساتذة.. إلى آخر القائمة الطويلة.. فإن من حق الناس أن يروا فى جامعة السودان معهداً للاحصاء فى بلد نام لايستقيم تطوره دون احصاء لامكانياته وطاقته. وأن من من حق الناس أن يروا فى الجامعة معهداً للغات فى بلد يحتاج إلى أساتذة اللغات المدربين.. وأن من حق الناس أن يروا فى الجامعة معاهد عليا للبحث العلمى فمثل هذه المعاهد هى الأساس الذى يرتكز عليه التصنيع والتطوير الزراعى.. وأن من حق الناس أن يروا فى الجامعة معهداً للدراسات الأفريقية يسهم فى نشر الفكر الأفريقى الناهض.. وكل هذه أشياء أبى قصر خيال مجالس إدارة الجامعة أو تخريب المشبوهين من الأساتذة الأجانب أن يجعل منها حقيقة.. ومن حق الناس أن يروا الجامعة تعدل من أساليب تقييمها للامتحانات التى تقضى باقصاء العشرات من الطلاب.. فلو بلغت نسبة السقوط مثلا بين طلاب هم خيرة ما أنجبته مدارس السودان الثانوية السبعة أو العشرة فى المائة لهان الأمر أما أن ترتفع نسبة السقوط فوق هذا فإن الأمر ليتطلب تغييراً جذريًا فى المقاييس التى تطبق.. فالأمر فى اعتقادى يعنى أن هناك عيبًا عضويًا فى هذه المقاييس .. وليس لى فى الأمر رأى محدد.. ولكن الذى أعرفه هو أن المقاييس التى تطبقها جامعات بريطانيا فى الامتحانات ليست هى المقاييس الوحيدة الفريدة فى العالم.. فجامعات أمريكا وكندا مثلا لاتحدد نسبة مسبقة للنجاح بل تعتبر أعلى رقم يناله طالب فى الامتحان هو الدرجة العليا، أى درجة الامتياز وعلى هذا الأساس تنبنى الدرجات الدنيا لأن المصحح يضع فى اعتباره أن أداء الطلاب ما كان ليكون بهذه الصورة لولا أن ظروفًا موضوعية عامة قضت بذلك.. وأنا لا أقول بالأخذ بهذا المنهج لأن الأمر قمين بالدراسة والبحث فى تجارب الآخرين.. فى بريطانيا كما فى البنجاب واوكلاهوما.. دراسة تضع نصب عينها أن السودان لايحتمل أن تفصل جامعته العشرات من الطلاب

كل عام وكلهم ممن ظلت الأمة تترجاه فى معركتها الكبرى من أجل النمو الاقتصادى والتطور الاجتماعى.

الجامعة والبحث العلمى

للدراسات الانسانية فى أية جامعة دور رئيسى لايمكن اغفاله أو إنكاره.. ففى بلد مثل أمريكا يعطى العلم والتكنولوجيا اعتبارًا هامًا فى تخطيطه التربوى تبلغ نسبة طلاب الدراسات الإنسانية ٤٠ فى المائة من مجموع طلاب الألفى جامعة فى الولايات المتحدة. ولذا فليس من الغريب أن تهتم جامعة السودان وتولى من العناية الكثير للدراسات الانسانية.. ولكن من واجب الجامعة كأكبر قلاع العلم فى القطر، وهو قطر يشق طريق تقدمه مغالبًا قوى الطبيعة، لابد من المزيد من الاهتمام بالدراسات العلمية والبحث العلمى.. فدراسة مفضليات الضبى ومرثية توماس قرى لاتكفى وحدها كسلاح لخوض معركة التقدم الاقتصادى.. فالتنمية الاقتصادية تحتاج إلى الخبراء الزراعيين والمهندسين والأطباء وفوق هذا الباحثين العلميين.. وموضوع البحث العلمى موضوع اهتم به الراشدون من ساسة هذه القارة فعملوا لدعوة مؤتمر لاغوس لتنظيم البحث العلمى وهو مؤتمر ـ لحسن الحظ ـ اشترك فيه السودان وكان من أهم ما أوصى به المؤتمر هو انشاء هيئات قومية للبحث العلمى.. لنسمها مجالس عليا للعلوم أو أكاديميات علمية.. على أن تكون هذه الهيئات على صلة وثيقة بالهيئة التى تقوم بالتخطيط للتنمية، وبالهيئات التى تنفذ الخطة الاقتصادية كانت فى القطاع العام أو الخاص مثل وزارة الصناعة ووزارة الزراعة والمشاريع الزراعية والصناعية الكبرى.. ومثل هذه الهيئة إن انشئت وأفردت لها ميزانية خاصة تستطيع القيام بمهام عظيمة فى مسح القوى العاملة، وتحديد احتياجات البلاد للباحثين العلميين، وخلق الوعى العلمى بين الأهلين. والجامعة نفسها ينبغى أن تغير من مقاييسها للترفيع والترقية تشجيعًا للبحث العلمى وألا تقيم جهود أساتذتها بالأقدمية شأنها شأن مصلحة المخازن والمهمات.. والدولة حتى اليوم لم تفكر فى تجنيد

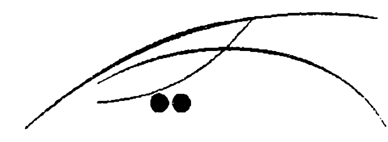
الطاقات المعطلة فى الجامعة لهذا الهدف.. بل لم تفكر فى الاستشارة بها .. فقد كنت آمل أن أرى الجامعة ممثلة فى مؤتمر العلم والتكنولوجيا وأثرها على التنمية الاقتصادية التى انعقد فى جنيف.. كنت آمل أن أراها ممثلة فى مؤتمر المنظمة الأفريقية للبحث العلمى.. وكنت آمل أن أراها فى مؤتمر المصطلحات العلمية العربية فى قسطنطينة.. ولكن شيئًا من هذا لم يقع لأن الجامعة عند بعض الناس إنما هى مصنع تفريخ.. لامعقل فكر له دور هام يؤديه إن لم يكن الدور الأكبر فى معركة التقدم فى هذا القطر.. على صعيديها الثقافى والعلمى..

■■■

يوم أكل الثور الأبيض
الشيوعية وخطرها
الداهم !

ديسمبر ١٩٦٥

الديـــن والأخـــلاق(*)



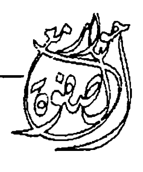
... حديث كثير تردد فى مجالس السياسة بالسودان.. ومداد غزير سال على صفحات صحفه - فى الآونة الأخيرة - حول القواعد الخلقية التى يجب أن يرعاها الناس فى العمل السياسى.. والظاهرة طيبة.. سيما وسياسة السودان الحزبية ظلت تقوم أمدًا طويلا على المخاتلة الكائدة أسلوبًا.. وعلى النهج الباطل فلسفة..

الديـن والأخـلاق

... وعندما اتحدث عن الدين والأخلاق أبادر فأقول أن لا انفصام بين الاثنين.. والدين هنا هو الدين المتكامل الذى يعنى شيئًا أوسع من الطقوس.. وأرحب من مظاهر العبادات.. الدين كعقيدة شاملة تخطط العلائق بين البشر.. وترسم لهم السلوك الاجتماعى وتحدد مسئولياتهم تجاه الكون الكبير، وعلى الصعيد الاجتماعى يصدق هذا إن كان الدين ماديًا أو روحانيًا.. والأخلاق فى جوهرها إنماهى مظهر اجتماعى..

ولذا فإن القول بأن الشيوعية كفلسفة هى صنو لعدم الأخلاق قول فسل.. فمن حق الناس أن يقولوا إن الفلسفة المادية التى ترتكز عليها الشيوعية تناقض القيم الروحية التى يؤمن بها المجتمع المسلم ولذا فلن يقبلها ذلك المجتمع.. وهذا يجعل القضية قضية فكر لا قضية أخلاق.. ومن حق الناس أن يقولوا أن ممارسة الشيوعيين تناقض القيم الروحية التى يؤمن بها المجتمع المسلم ولذا فلن يقبلها ذلك المجتمع.. وهذا يجعل القضية قضية فكر لا قضية أخلاق.. ومن حق الناس أن يقولوا أن ممارسة الشيوعية

(*) الأيام: ١٢ ديمسبر سنة ١٩٦٥.



لأفكارهم فى حدود القانون يجب أن لايصحبها اعتداء على معتقدات الآخرين أو هدم للقيم الروحية التى يعتز بها الآخرون هؤلاء.. وهذا يجعل القضية قضية شرعية وقانونية.. أما أن يذهب الناس للقول بأن الشيوعية كفكرة إنما هى عدم الأخلاق وأن الشيوعيين فى السودان إنما هم الشر المستطير الذى يهدد أخلاف الأمة فهذا أمر لا يبرره الواقع ولا تؤيده الحقيقة... فالشيوعية كفلسفة تلزم معتنقيها بسلوك معين فى الحياة تجاه بعضهم البعض وتجاه المجتمع السودانى الكبير.. والمراقب الأمين ليعترف بأن الكثير من مظاهر الانحلال والفجور التى تغمر المجتمع الغربى المسيحى لا تعرفها أوروبا الشيوعية.. فأوروبا الشيوعية لا تعرف المواخير التى تعج بها باريس.. ولاتعرف (ملك الليل) التى تمتلىء بها روما.. ولا تعرف كتائب المنحرفين الذى تسد المسالك فى حدائق لندن العامة.. ولسنا هنا بسبب اصدار أحكام ولكنا بصدد تقرير حقائق.. فالغرب يقول إن هذا الفساد إنما هو مظهر من مظاهر الحرية الفردية.. والشرق يقول إن المجتمع يجب أن يفرض على أفراده الأخلاق العامة.. قسرًا إن لزم.

وفى السودان ليس هنالك مايجعل المرء يظن بأن مظاهر الفسوق عند الشيوعيين أكثر منها عند غيرهم من السودانيين الذين لا يعتنقون الشيوعية بل ويظنونها وبالا وشرًا مستطيرًا.. فالحقيقة التى لا مرية فيها هى أن الكثيرين من الذين يحملون راية الدعوة ضد الشيوعية المفسدة إنما هم غارقون إلى آخرشعرة فى رؤوسهم فى الرجس.. وسادرون، إلى آخر أشواطه، فى عمل الشيطان مما يجب على المسلمين اجتنابه.. والإسلام ليس بكتاب (محفوظات) يأخذ منه الناس مايهوون ويتركون مالا يشتهون.. إن الإسلام دين متكامل، وفلسفة شاملة.. يحدد العبادات.. ويقرر أسلوب المعاملات.. ويرسم المنهج والسبيل.

الإسلام وشيوخه التقليديون

..الصيحات التى انبعثت من شيوخ الإسلام خلال الأسابيع القليلة الماضية إنما صورت لنا، على البعد، قارعة كبرى تتهدد الدين الحنيف فى السودان، لقد ظننا ـ ونحن نسمع الأحكام عن الردة، واهدار الدماء، والإفتاء بحل الأحزاب ـ إن الأمر ليس

بأمر طالب مغمور ـ لا أكاد أذكر أسمه ـ ولا أمر حزب لاتتعدى عضويته بضع آلاف، وإنما هو أمر حرب بخيلها وعتادها وعسكرها تتهدد دولة الإسلام فى قلب أفريقيا مما حمل الكثيرين من المسلمين الشرفاء الصادقين على الاستجابة للنذير.. والهلع من الشر المستطير.

،، ولكن شيوخ الإسلام هؤلاء الذين يريدون منا الظن بأن لهم السيطرة على ضمائر العباد ولم يكن رسول المسلمين نفسه بمسيطر على العباد «ولست عليهم بمسيطر».. هؤلاء الشيوخ كان أجدر بهم أن يدركوا أن الإسلام لم يضع اليوم ولا الأمس.. ولم يضع لأن بعضًا من شباب السودان قد اعتنق الشيوعية مذهبًا.. كان عليهم أن يدركوا أن دار الاسلام هذه قد غشيها ما غشيها من الفساد والانحلال بفضلهم أولا وفى المبتدأ.. بفضلهم يوم أن عجزوا على أن يضفوا على الدين ثوبًا يجعله يلائم مقتضى العصر.. وبفضلهم يوم أن عجزوا عن أن يردوا السلطان عن ضلاله وهم العارفون بأن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق تقال عند سلطان جائر.. وبفضلهم يوم أن عجزوا عن أن يدعموا ركن الاسلام لا بالبسملات والحوقالات وإنما بالقدوة الحسنة والمثل الشجاع.. وأنى لهم أن يفعلوا ذلك وهم الذين آثروا الهين بالدعوة الصالحة للأمراء على ركوب الصعب بالدعوة الجسورة إلى دين الله.

كتب حجة الإسلام الإمام الغزالى فى رسالته (أيها الولد) ـ اقصر وآخر ماكتب ـ ملخصًا فيها آراءه حول المقصود الأقصى من الدين ـ كتب فى نصحيته الثالثة لحواريه يقول «مما تدع ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولاتراهم لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة. ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه»... وهكذا بفضل الشيوخ الأجلاء أطاع الناس الأمير وعصوا الله فى أرضه.

أولا يعرف شيوخ الإسلام هؤلاء أن هذه البلاد قد ظلت تعيش فى سنواتها العشر الماضية حربا صليبية جائرة تقودها قوى كبرى يعرفها القاصى والدانى.. حربا جعلت مسلمى هذه البلاد ينفقون المال الوفير وهم المدقعون.. ويجودون بدماء شبابهم الأثير



وهم الأقلون. ويلتفتون إلى شيوخهم اللائذين بالصمت والساهمين فى الفراغ وكأن على آذانهم وقر وفى عيونهم غشاوة.. علم الله أننى لأخجل أن أرى شيوخ الإسلام فى السودان يسيرون المواكب تظاهرًا على حديث فسل لطالب صفيق، ولا يسيرونها احتجاجًا على ما تفعله القوى الكبرى التى تغذى هذه الحروب الصليبية الجائرة فى جنوب السودان وهم الذين يدركون قبل غيرهم حدود الاسلام وحكمه «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

.. وكانت ـ وأيم الحق ـ دهرًا تلك السنوات العشر.. شهدت الولاة المغامرين الذين آثروا واغتنوا من كد المسلمين وعرق العاملين فظلت أصوات شيوخنا حبيسة لم تنطلق برأى الإسلام تبينه وتعلنه كما انطلق صوت ذلك الشيخ الهمام الرشيد الإمام الشافعى ليقول: «من ولى القضاء ولم يفتقر فهو لص».. وشهدت حكما يبيح لبعض الناس احتكار أموال المسلمين لتعيش أمة الإسلام فى املاق إلا أن شيوخنا «أبوا» أن يجابهوا السلطان الظالم والبطانة المنتفعة بحكم الإسلام كما حدده محمد بن عبدالله، «من احتكر طعامًا أربعين يومًا يريد به الغلاء فقد برئ من الله تعالى منه».

صمت شيوخ الاسلام وانحبست أصواتهم وهم الذين قرأوا أحاديث الرسول مسندها وصحيحها. وهم الذين قرأوا فيما قرأوا قول محمد النضير، كما رواه ابن ماجه: «ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجومًا بلجام من نار».

الإسلام والقيادة الرشيدة

إن الإسلام ليس بملك لفرد أوجماعة.. فلا يكفى أن تأتى الدولة أو الصدفة التاريخية أو الميراث برجل توليه مكان الصدارة فى أمور الدين فيظن بعض الناس، ويظن هو بظنهم، أنه قد أضحى كبيرًا للمجتهدين، وواليا على المؤمنين، وظلا على أرضه لله المكين..

وقد ظننت أن الأخوان المسلمين وهم الذين يقولون بالعمل على ابراز الإسلام فى صورته الصقيلة التى تناسب العصر، ظننت أنهم لن يروا فى تأييد هذا النفر من شيوخ الدين التقليديين مكسبًا ولن يروا فى مؤازرتهم ربحا.. ظننت هذا وهم الذين يذكرون أن علم الشيخ المراغى ـ غفرالله له ـ لم يمنعه من أن يكون مفتيًا لأخطاء الملعون فاروق.

وأن إباحة الافطار للمسلمين فى تونس لم تجد لها من سند إلا عند الشيخ بن عاشور مفتى الديار التونسية.. وأن الافتاء بكفر الأخوان المسلمين ـ يوم أن حاربتهم الدولة ـ إنما قال به الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر الشريف.

هذه حقائق يجب أن يعرفها الناس... ويعرفوا معها أن لارهبانية فى الاسلام.. وأن الألقاب التى تمنحها الدولة لبعض شيوخ المسلمين لاتجعل منهم أكثر فهما للدين، ولا أقدرهم ادراكًا لحدود الله.. فاتباع الناس لشيوخهم، وإيمانهم بهم، واعتمادهم عليهم. إنما يقرره علم هؤلاء الشيوخ بأمور دينهم ودنياهم وشجاعتهم فى قول الحق ورد الباطل.. أما الذين يبذلون علمهم لأهل الدنيا فيسهونون ويهون معهم علمهم. رحم الله عبد الله بن مسعود حين قال «لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم... ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا على أهلها».

إن علماء الإسلام الذين اعتد بهم المسلمون وساروا بهديهم ونهجوا مناهجهم إنما هم ذلك الرهط من العلماء الذين رفعوا راية الإسلام عقيدة وقيمًا ومثلا.. اقتصوا لحقوق المسلمين عند الحاكم الجائر.. وردوا السلطان المخطئ إلى الجادة.. وقالوا بحكم الله فى جسارة لم يخشوا معها لومة لائم. لقد عرف الإسلام فى تاريخه التليد قضاة مثل أبى يوسف. طلب الرشيد رأيه فى جباية الأموال فلم يحثه «بالخراج» فحسب وإنما قدم لكتابه بعيون الحكم فى أدب الحكم «إن الله ولله الحمد قد قلدك أمرًا عظيمًا، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير،

قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وإبتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه»..
إلى آخر المقدمة الجريئة الوضيئة..

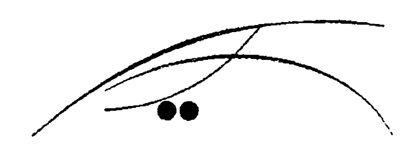
وشهد الإسلام فى تاريخه الطارف شيوخًا مثل محمد عبده فى مصر وعبد الرحمن الكواكبى فى سوريا وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر.. كانوا معالم طريق فى النضال الوطنى، وسراجًا وهاجًا فى التبشير الدينى فتبعهم الناس واهتدوا بهديهم لأنهم عاشوا مع أمة المسلمين تجربتهم المريرة، فى دينهم ودنياهم.. فأصبحوا بحق القدوة المثلى.. والمنارة الهادية..

وشهد الإسلام فى تاريخه المعاصر رجالا مثل الشيخ البشير الإبراهيمى فى الجزائر دعا للإسلام فى أبعاده الثورية الحقيقية وأعطى الثورة الوطنية مضمونًا فكريًا إسلاميًا قبله كل عاقل واسترشد به كل أمين.

فليأتنا علماء السودان بواحد مثل هؤلاء لنقول له سمعًا وطاعة. أما من نعرف من علماء السودان فمن حقهم - والسودان بلد حر - أن يقولوا مايشاؤون.. ولكن آن لهم أن يعرفوا أن من حق الآخرين أن يقولوا ما يشاؤون.. فيهم وفيما يدعون. فالإسلام دين الله وليس دين مشيخة، أو مجلس، أو هيئة علماء..

■ ■ ■

مدلول الحرية بين (*)
سوداني ١٩٥٦ و ١٩٦٥



.. لا أود الخوض هنا فى جدل فقهى ليس هذا بمكانه المناسب.. ولا أريد الانصراف إلى نقاش دستورى تضيع الحقيقة السياسية فى معارجه.. وإنما أود أن أبين، حسب فهمى المتواضع، المضمون السياسى للحرية فى اطار دستور السودان الذى قبله الناس وارتضوه.. والذى يدفعنى لهذا ليس فقط تحريم الأحزاب الحاكمة لنشاط الشيوعيين، ولا البساطة المستهينة التى يعدل بها الدستور كل صباح.. وإنما قبول الناس للأحكام الجزافية التى تصدر باهدار دماء المواطنين واباحة العبث بما يملكون مما يعنى حمل بعض الناس للقانون فى أيديهم فى بلد لهادستور - أو كان لها دستور - وفى بلد تعترف بسيادة القانون..

دستور السودان المستقل

.. الدستور الذى يحكم به السودان اليوم هو فى جوهره دستور عام ١٩٥٦ المؤقت.. ودستور ٥٦ فى جوهره بل وفى نصوصه الغالبة هو دستور الحكم الذاتى الذى أعده القاضى ستانلى بيكر ولجنته المعروفة.. والذى حدث عندما حلت على البلاد نعمة الاستقلال أن فوضت الأحزاب لجنة ضمت أعضاء ثلاثة أن تعدل دستور القاضى الأفرنجى كيما يتمشى مع روح السودان المستقبل.. فاجتمعت اللجنة يومًا وبضع يوم لتخرج على الناس بالدستور المؤقت بعد أن أجرت عليه تعديلات ثلاثة بجانب التعديلات الشكلية كاستبدال الحاكم العام ولجنته بمجلس السيادة واحالة

(*) الأيام: ١٢ مارس سنة ١٩٦٥.



سلطاتهما إلى رئيس الوزراء أو مجلس السيادة أو رئيس القضاءحسب مقتضيات الحال.. والتعديلات الثلاثة فيها واحد تناول أمر الجنوب وهو النص المعنى بدراسة موضوع (الفدريشن) عند وضع الدستور النهائى للسودان وهذا التعديل لم يكن لأحزاب شمال السودان من فضل فيه إذ أنه وضع تحقيقًا لرغبة حزب الأحرار الجنوبى... وأما التعديلان الثانيان فأولهما يتعلق بالغاء النص القاضى بتحريم العمل بالمحاماة لقضاة المحاكم العليا.. وثانيهما هو الغاء النص القاضى بالحاق مكتب مسجل الأراضى العام بالهيئة القضائية.. ولا فضل فى هذين التعديلين لأحزاب شمال السودان إذ أن أمرهما يتعلق بصراع القوى بين الهيئة القضائية ووزارة العدل الناشئة ـ وكان النائب العام يومها أحد الأعضاء الثلاثة الذين اشتركوا فى تعديل الدستور.

إذن فقد رأت أحزاب السودان يومها أن دستور ستانلى بيكر وهو أصلح دستور لحكم السودان المستقل.. ارتضته جميعها حتى الأحزاب التى رفضت هذا الدستور عند الحكم الذاتى قبل الاستقلال.. ودستور ستانلى بيكر هذا دستور غربى.. غربى فى هيكله، وفى مفاهيمه، وفى معطياته الأساسية.. ومضت الأحزاب تحكم السودان بهذا الدستور وحتى السابع عشر من نوفمبر ١٩٥٨ عندما حل بالبلاد الكرب العظيم (والطريق الذى سلكنا بعد أكتوبر لايشير ولا يدل على أن ذلك الكرب سيكون أعظم الكروب فى تاريخ السودان المعاصر).

وبعد سنوات ست أبيد الحكم العكسرى وبدأ الناس يتحدثون عن الحكم الجديد ودستوره... ودار الحديث حول مبادئ عامة نعرفها.. حرية التجمع، حرية التعبير، استقلال الجامعة، استقلال القضاء، حق الانتخاب لكل مواطن راشد.. وهذه كلها هى المعالم الأساسية للديمقراطية البرلمانية الغربية.. وعندما ارتفعت يومها بعض الأصوات تقول إن تجارب جديدة فى الحكم يعيشها العالم الثالث.. بل وتعيشها فى داخل هذا العالم بعض جاراتنا كمصر وكينيا والجزائر ـ وأشير بذلك إلى نظام الحزب الواحد ـ قيل لنا أن مصر ليست ديمقراطية... وأن الجزائر لاتعرف

الديمقراطية.. وأن غانا تحكمها الدكتاتورية... وارتفعت أصوات أخرى تقول أننا نريد للسودان جبهة موحدة للقوى الشعبية تنصهر فيها جميع الأحزاب قيل لنا أن السودان بطوائفه وقبائله وتشكيلاته السياسية لا يحتمل هذا النوع من الحكم وأن الديمقراطية لاتستقيم إلا بتعدد الأحزاب.. وأن أخطاء هذه الأحزاب تعالجها قيود النظام نفسه.. وبقية انشائيات ليس آخرها هو «إن العلاج لأخطاء الحرية هوالمزيد من الحرية».. وعندما نادى نفر بانشاء دوائر للخريجين قيل إن هذا ضد الديمقراطية التى تعطى كل راشد صوتا واحدًا أيا كان امتيازه..

إذن فالديمقراطية التى ارتضتها الأحزاب الحاكمة ونادت بها وعملت على تحقيقها هى ديمقراطية بكل أحكامها.. وكل مظاهرها..

الدستور.. والإسلام

قلنا إن دستور السودان الذى ارتضاه ساسته وارتضته أحزابه دستور غربى فى جوهره ومظهره.. ولكن قيل لنا اليوم إن السودان بلد مسلم وفى هذا الإطار يجب أن يفهم الدستور..

وأقول أن الخيار هنا بين أمرين لا ثالث لهما. أما أن السودان بلد مسلم يلتزم بتعاليم الإسلام فى العبادات والمعاملات والحدود. ولذا فالشرع يقضى فيه، بحق، بأن يهدر دم المرتد.. ويحارب المشركون حتى يدخلوا فى دين الله أفواجًا (فبجانب الشيوعيين ما أكثرهم عبدة الأحجار والأشجار فى أدغال الجنوب).. ويجلد لاعب الميسر والمخمور.. ويقام حكم الشورى لا على أساس المفهوم الانتخابى الغربى وإنما على الأساس الذى أختطه الإسلام.. فالشورى فى الإسلام هى شورى أهل الرأى.. وأما أن السودان بلد دين أهله الغالب هو الإسلام يباشرونه عقيدة بينهم وبين ربهم ويكيف سلوكهم الفردى نحو أهلهم وذويهم.. أما حقوقهم وواجباتهم العامة فيحددها الدستور الغربى القائم بنصوصه وأحكامه المستوردة من الغرب وقوانيه المستوردة من قوانين المجوس فى بلاد الهند أو النصارى فى بلاد الإنجليز.

١ ـ الشيوعيون والاستيلاء القهرى على الحكم:

... وقال قائل بأن الشيوعين فى واقع الأمر أعداء للديمقراطية الغربية وسيقومون بالغائها إن سيطروا على الحكم.. وتاريخهم يشهد بالمحاولات الثورية الرامية إلى قلب أنظمة الحكم.

.. وهذا الحديث على مافى مظهره من صحة وصدق يغفل جانبًا أساسيًا فى المفهوم الديمقراطى.. وهو ليس بالحديد الجديد.. فاما أن الشيوعية ترفض الديمقراطية الغربية منهاجًا للحكم فهذه حقيقة.. وأما أنها ترفض تعدد الأحزاب فهذه حقيقة ثانية.. ولكن ليس مبعث هذا أن الشيوعية فلسفة مادية ملحدة.. وليس مبعثه أنها فلسفة مخربة.. وإنما مبعثه رأى قائل بأن النظام الذى يرتكز على الأغلبية ـ أغلبية مؤيدة عن يقين واع لا عن سيطرة عاطفية لاشعورية ـ يجب أن لايمنح الحرية لخصومه لأنهم خصوم الحرية نفسها.. هذا هو رأيهم.. وهو الرأى الذى يقول به دعاة الحزب الواحد وغالبهم الأعم غير شيوعى بل كلهم فى بلاد العالم الثالث ليسوا بشيوعيين.. لذا فإن الأمانة لتقضى بأن نفصل الحدود بين الفكر المادى والشيوعى والمنهج الدستورى الذى يقبله الشيوعيون فى الحكم.. ولذا فإن جاز لنا أن نصادر حرية الشيوعيين باعتبار ماسيقع منهم إن سيطروا على الحكم مستقبلا فما بالنا لا نصادر حرية القوميين العرب الذين يرون فى أسلوب الحكم فى مصر نموذجًا يجب أن يحتذى.. ومابالنا لانصادر حرية الأفراد العديدين الذين ينادون على صفحات صحف السودان بوجوب اختيار نظام الحزب الواحد وسيلة للحكم.

وأما أن الشيوعيين سيعمدون إلى استعمال القوة للاستيلاء على الحكم كما فعلوا فى بعض بلاد الله الأخرى حسبما ردد بعض المتحدثين فهو قول فيه اغفال لبضع حقائق تاريخية أساسية.. فالشيوعية فى السودان ليست كشيوعية أوروبا الشرقية التى جاء استيلاؤها على الحكم عقب حرب عالمية.. وجيش أحمر.. وتنظيمات

شيوعية قوية أسهمت بدور فعال فى المقاومة للنازية.. ومعاهدات كيالتا وبوتسدام بين المنتصرين لتحديد مناطق النفوذ .. هذا واقع تاريخى يجب أن نضع فى نطاقه أمر استيلاء شيوعى أوروبا على الحكم بالقوة.. والشيوعية فى السودان ليست كالشيوعية فى آسيا الشرقية حيث كان الحزب الشيوعى هو القائد الذى لا منازع له للحركات التحريرية.. كما هو الحال فى الصين والهند الصينية..

إن الحزب الشيوعى السودانى حزب صفوة.. وهو حزب أقلية.. أقلية بحكم تكوينها وطاقاتها لاتملك غير العمل فى الإطار الديمقراطى لنشر أفكارها... وفى العالم الثالث أحزاب شيوعية كثيرة عملت على هذا النمط واستطاعت توجيه سياسة بلادها.. فى الوطن العربى شهد الناس خالد بكداش نائبًا عن دمشق.. وفى الهند شهد الناس شيوعيى كيرالا يستولون على الحكم عن طريق الانتخابات... وحتى فلاسفتهم النظريون فقد اتفقوا على أن الطريق للحكم لا ينبغى دومًا أن يكون طريقا دمويًا بل يمكن للشيوعيين الوصول إلى غاياتهم فى إطار ديمقراطى غربى.. ودونك خطاب خروشوف فى المؤتمر العشرين الذى كان نقطة افتراق هامة فى تاريخ الشوعية المعاصر..

فالسودان إذن ليس ببلغاريا أو لاوس فإن ظن الشيوعيون أن فى مقدورهم الاستيلاء على الحكم قهرًا وممارسته فى السودان بقبائله وطوائفه وتقاليده لاضحوا مخبولين فى تقديرى.. وإن ظن بعض الناس أن الشيوعيين لفاعلون هذا لاضحوا بلهاء سذجًا فى اعتقادى..

٢ ـ التعايش بين الديمقراطية والشيوعية:

والقول بأن الديمقراطية والشيوعية لاتتعايشان ولذا فلا بد من القضاء على الشيوعية كتنظيم خوفًا من خطرها مستقبلا.. هذا القول ليس بالقول الجديد.. ولكنه قول مردود لأنه يتعارض مع جوهر الديمقراطية الغربية نفسها..

قال به فى بريطانيا قاضيها العالم وقانونيها الضليع اللوردديننق فى إحدى محاضراته التى نشرت فى كتيب صدر فى منتصف الخمسينات تحت عنوان (الحرية



تحت القانون).. وطالب دينق فى حديثه بعدم السماح للشيوعيين بممارسة حرياتهم لأنهم لو انتصروا لما أبقوها لبقية البشر.. وثارت ثائرة الدنيا على دينق وأتهم حديثه بالفاشية وبالهدم لكل القيم الأساسية للديمقراطية الغربية. فلو فعل الغرب هذا لفقد الحجة الوحيدة التى يقارع بها الشيوعيين.. فلم يستطع الغرب القول أن الشيوعية لا توفر للناس الغذاء والكساء وضروريات الحياة.. ولكنه كان ومازال يقول «ليس بالخبز وحده»، بل أن صحيفة التربيون اليفانية قد تعجبت من أن يكون بين قضاة انجلترا الديمقراطية من ينادى بمثل هذا الرأى.. وحمل عليه أيضا القانون العمالى المعروف قاردنر (والذى أصبح الآن اللورد قاردنر رئيس مجلس اللوردات).. وقال بهذا الرأى فى أمريكا المستشارون القانونيون للحكومة الفيدرالية.. وعلى ضوء هذا القول صدر قانون (توقيع الولاء) فى عهد ترومان والذى يقضى بأن يوقع جمع الشيوعيين وغيرهم من المتهمين بالنشاط المعادى لأمريكا على صكوك يعلنون فيها ولاءهم للولايات المتحدة دون غيرها.. وأعقبه قانون النشاط الهدام الأمريكى لعام ١٩٥٠ وهو القانون الذى ينص على وجوب تسجيل الحزب الشيوعى لدى وزارة العدل باعتباره تنظيمًا يباشر نشاط معاديًا لأمريكا.. وقانون سمث.. وقانون مراقبة الشيوعية لعام١٩٥٤ الذى يلزم الحزب الشيوعى وما يسمونها بالجبهات المتعاونة معه بتسجيل أسماء قادتهم ومصادر تمويلهم.. إلا أن كل هذه القوانين لم تقدم على حل الحزب الشيوعى لإدراك المشرع بأن عملا كهذا لعمل غير دستورى.. وقرار المحكمة العليا الذى أشرت إليه فى مقالى الأول يؤيد هذا.. بل وقرارها فى عام ١٩٥٧ فى القضية الدستورية المعروفة (ييتس ضد الولايات المتحدة) التى اتهم فيها أربعة عشر عضوًا من أعضاء الحزب الشيوعى بكاليفورنيا بمحاولة قلب نظام الحكم لعقدهم الاجتماعات وإثارتهم للعمال لاوضح فى تأييده. فقد قضت المحكمة الابتدائية بسجنهم خمسة سنوات وتغريم كل منهم ١٠ آلاف دولارًا إلا أن المحكمة العليا رفضت القرار بقولها إن العمل الشيوعى الذى يحرمه القانون ليس هو اثارة الفئات ضد

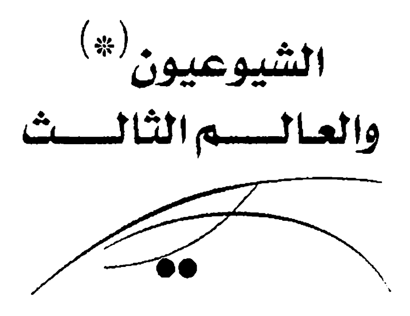
الأحزاب القائمة، ولا نشر أفكار راديكالية، وإنما هو محاولة للوصول للحكم بالقوة والارهاب والقهر فى خطة متكاملة .. أما فيما عدا هذا فإن الدستور يكفل للمواطن الأمريكى شيوعيًا كان أم كاثوليكيا حريات أساسية لاتلغيها القوانين.

وفى أوروبا الغربية أحزاب شيوعية عاملة فى غالب بلادها الأعم.. فى بلاد الشمال.. فى الأراضى الواطئة.. فى بريطانيا.. فى فرنسا.. وفى ايطاليا حيث أكبر حزب شيوعى أوروبى بعد الحزب السوفيتى.. والبلاد الأوروبية الوحيدة التى ألغت الأحزاب الشيوعية هى أسبانيا والبرتغال واليونان وألمانيا، أما أسبانيا والبرتغال فقد الغيتا الأحزاب جميعها.. وليستا بمثل يحتذى.. وأما ألمانيا فهى بلد تعيش فى حالة حرب حتى اليوم ونصفها يسيطر عليه الشيوعيون.. وبالرغم من كل هذا لم تنج من الاتهام بطعن الديمقراطية طعنة نجلاء بتحريمها للنشاط الشيوعى.. وأما اليونان فقد ألغت حزبها الشيوعى بعد ثورة أهلية دامية قادها ماركوس لم تنته إلا بتدخل جيوش الغرب وتوسط الأمم المتحدة.. وقد أعقب هذا الحل حملة مطاردة ضارية ضد كل القوى المناهضة للنظام وبعضهم مازال حتى الآن يتفسخ فى سجنه.. ولاشك فى أن الكثيرين يذكرون الحملة الضخمة التى قادها فنر بروكواى ومايكل فوت فى داخل مجلس العموم البريطانى وبجانبهما عدد ضخم من نواب العمال إبان حكومة اللورد هيوم مطالبين الدولة بعدم السماح لملك اليونان بزيارة بريطانيا مالم يطلق سراح عشرات الأحرار الذين اعتقلوا بعد حرب الأربعينات ومازالوا يرزحون تحت الأصفاد.

■■■



الشيوعيون (*) والعالـــم الثالـــث



يقول بعض ساسة السودان أننا نقبل الديمقراطية ولكنا لانريد لأنفسنا أن نكون البلد المسلم الوحيد الذى يسمح بقيام حزب شيوعى.. وتضرب الأمثال بمصر.. ولكن الناس ينسون أن هذه البلاد لم تلغ الحزب الشيوعى وإنما ألغت الأحزاب جميعها ولم تحارب التنظيم الشيوعى لأنه أقدر منها على الاستحواذ على مشاعر المواطنين وإنما لأنها كانت تخوض بحزبها الواحد أو جبهتها الواحدة ـ حسب واقع الحال ـ معركة تحرير وتعمير لا يحتمل معها الصف انفصامًا.. إذن فثمة حقيقتان أساسيتان صحبتا محاربة الشيوعية فى بعض بلاد العالم الثالث كمصر وسوريا والجزائر.. أولها وحدة الصف فى الحزب الواحد.. وثانيها وحدة الهدف فى الفلسفة السياسية الشاملة التى يقود لواءها هذا الحزب الواحد. فجبهة التحرير فى الجزائر إنما كانت ومازالت سيف الله فى مغربه العربى ترد للعرب مجدًا أرسى أساسه المرابطون، وتعيد للإسلام عزة رفع رايتها عقبة بن نافع.. وعبد الناصر الذى حارب نشاط الشيوعيين فى مصر إنما فعل هذا وهو يخوض كالجواد القارح مع أهل المغرب معركتهم الكبرى لاسترداد كرامتهم التى أذلها الفرنجة قرنًا ونصف القرن من الزمان.. ويحارب مع أهل المشرق لاسترداد أرزاقهم المسلوبة فى الخليج والجنوب، وحماية أرضهم التى تنتهكها قواعد الاحتلال فى دجلة وصحراء فزان.. ويؤازر المسلمين فى توطيد أركانهم على حفافى المحيط الهندى فى الصومال، وضفاف النيجر فى تشاد، وعلى سفوح جبال تكرور فى نيجيريا.. وبدهى

(*) الأيام: ١٤مارس سنة ١٩٦٥.



أن يجد مثل هذا النمط من الزعماء التأييد الكامل والمساندة ضد دعوات الانقسام. سيجدونها طالما حملوا لواء الدعوة الشريفة.. وطالما ناضلوا من أجل حقوق الإنسان العربى.. وطالما سعوا جاهدين مخلصين له الدين لتحقيق مجتمع الكفاية والعدل..

البرلمان.. والإرادة الشعبية

.. وجاء قائل يقول بأن البرلمانات تمثل إرادة الأمة وتعبر عن مشيئتها .. ولذا ففى مقدورها أن تصدر ماتشاء من قوانين، ومايروق لها من لوائح.. وهذا القول مردود لأنه لو كان الحال هكذا لما كان هنالك شىء اسمه المراقبة الدستورية تمارسه المحاكم.. فاعضاء البرلمان الذين يعبرون عن مشيئة الأمة يجب أن يكون تعبيرهم هذا فى إطار الدستور الذى ارتضته الأمة... وإلا فلجاز - وفق منطق هذا القول - أن تقرر الأغلبية للأحزاب التى تملك الأغلبية تعطيل جميع الصحف التى لاتناصرها..

أما القول بأن برلمان السودان قد قرر استجابة لنداء الجماهير المحتشدة التى أحاطت به فقول يجب أن ينظر إليه الناس فى حذر.. فأنا لم أعش التجربة ولا أريد أن أقول مع القائلين بأن الذين اجتمعوا إنما هم همج هامج ورعاع منتشر.. ولا أريد أن أقول أن قوى خفية قد وجهتهم تلك الوجهة.. وأنما أريد من الناس أن يتذكروا التاريخ ويتعظوا بتجاربه.. فإرادة الأمة، ومشيئة الشعب لايعبر عنها تحت ظل الضغط وتحت سوط الارهاب.

أريد من الناس أن يتذكروا أن القرارات التى تتخذها الأغلبيات الميكانيكية مهما كان التزامها للشكليات البرلمانية ليست دومًا بالقرارات الدستورية.. وقد تصبح، وهى القرارات التى اتخذت باسم الأمة تعبيرًا عن مشيئتها، هى الخطوة الأولى نحو مصادرة حرية الأمة وتعطيل إرادتها.. وأريد من الناس أن يتذكروا أن المواكب التى تزجى ليست دومًا بالمواكب التى تعبر عن الاحساس الواعى.. أو تنطلق بالدوافع الذاتية.. فكثيرًا ماكانت هذه المواكب وليدة إثارة مفتعلة لاتخدم إلا مصالح الذين يحركون الخيوط وراء الكواليس..

... وفى النهاية إن لم يكن الأمر أمر فكر مادى ملحد نرفضه لأننا لانتعايش مع المادية والالحاد... وإن لم يكن الأمر أمر أخلاق فاخلاق الأمة قد فسدت بالرغم من الشيوعية وليس بسببها... وإن لم يكن الأمر أمر ديمقراطية يتهددها الخطر الشيوعى فالديمقراطيات التى نقتفى أثرها تتعايش جميعها مع الشيوعيين.. وإن لم يكن الأمر امر اقتفاء لأثر إخواتنا العربيات التى حاربت الشيوعية فقد رفضنا الاقتداء بهم ويوم قالوا بالحزب الواحد، ورفضنا أن نحذو حذوهم يوم أن اتخذوا المنهج الاشتراكى طريقًا للعمل..

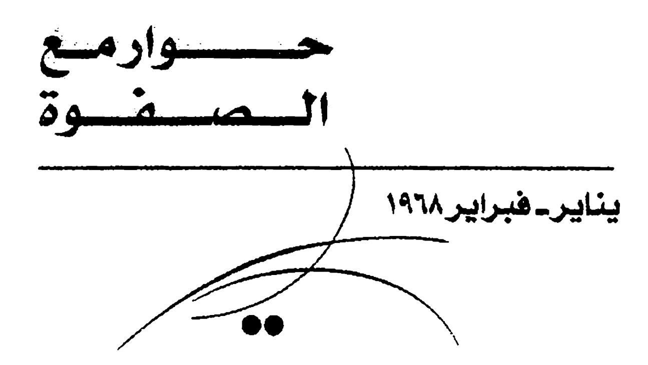
نعم فى النهاية إن لم يكن الأمر لا هذا ولا ذاك فما هو إذن؟

لقد أسلفت القول بأن الروح الجديد الذى غمر ماكانوا يسمونها بالقارة المظلمة قد وجد طريقه إلى شباب السودان فتحفز لينقض.. وفطنت الأحزاب الشمطاء إلى الخطر فعمدت إلى صبغ وجهها بمساحيق الاشتراكية والديمقراطية علَّها ترضى الخاطب الجديد.. صبغت مع الابقاء على القيادة القديمة.. والابقاء على الهيكل الحزبى القديم.. ولم يدرك الزعماء الأجلاء أن الفكر السياسى ليس بلافتة.. فميثاق عبد الناصر ـ وإن شارك فى وضعه الكثيرون ـ قد حدد خط سيره جمال الذى جلس الأيام الطوال فى مؤتمر قوى الشعب العاملة يناقشه بندا بندًا، ويرد على معارضيه واحدًا واحدًا.. وأفكار نكروما لم تكن برسالة مختصرة مبتسرة أعدها له أنصار حزبه فى جامعة ليقون وإنما كانت فلسفته شاملة كان الرجل يدعو لها من أيام الطلبة فى مانشستر وبنسلفانيا، ولايمضى على أهل غانا عام دون أن يصدر لهم فيه كوامى نكروما مؤلفًا يحدد خط السير ويوضح الطريق .. وميثاق طرابلس الذى تحكم به الجزائر لم يكن ببحث أعده مفكرو الجزائر وإنما كان أفكارًا منقحة جلس قادة الجزائر جميعا يناقشونها فى مؤتمر السومام ومؤتمر طرابلس يضيفون إليها من تجاربهم المستمدة من واقعهم الذى يعيشون..

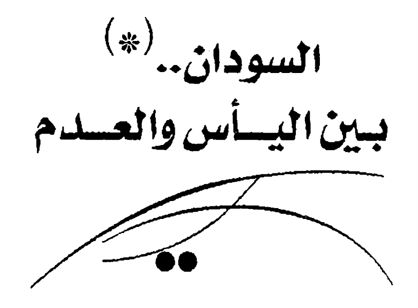


أما أحزاب السودان فقد أتت باناس لم يقرأ بعضهم تلك المواثيق والبرامج الجديدة التى صيغت لهم ناهيك عن الإيمان بها فقلدتهم الصدارة بحكم وضعهم الأسرى، أو نفوذهم القبلى أو الطائفى دون أن يؤهلهم ـ فى الكثير من الأحيان ـ خلق أو كفاءة لما احتلوه من مركز صدارة..

■ ■ ■


حوار مع
الصفوة
يناير - فبراير ١٩٦٨

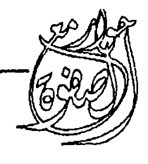
السودان..(*)
بين اليأس والعدم



أحداث الأشهر الماضية التى هزت الكيان العربى من اقصاه إلى أقصاه كانت ذات دلالة خاصة فى السودان، دلالتها فى التعاطف التلقائى مع الأمة العربية.. فى إزالة صدأ السلبية الذى ران على سياسة السودان الخارجية.. فى تجاوب القيادة مع الشعب كأصدق مايكون التجاوب..

جاءت أحداث الأشهر الأخيرة ونحن فى شغل شاغل باحداث بلادنا الداخلية. ويومها بدا لنا السودان ـ ونحن نتابع أحداثه من على البعد ـ بدا لنا مركبًا تائهًا ـ فى محيط نزق عصى المرفأ يقوده ملاحون مغامرون.. كنا نتابع من على البعد نقاش أهل السودان حول دستورهم الدائم.. وحول حكمهم القائم.. نتابع مايدور فى صحفه من نقاش أهل السياسة وهو نقاش يذكره المرء بتهارش من شعراء النقائض بالألفاظ، غير أن تهارش فيه من قحة النقائضيين الكثير وليس فيه من جزالة لفظهم ورخامة حاشيته أقل القليل.. كنا نتابع ذلك الذى يدور فى الخرطوم من على البعد ثم تأتى رسائل الأصدقاء أو القلة منهم التى لم تشغلها اللجاجة حول الرئاسية والبرلمانية والإسلامية والعلمانية فى أندية «اليعاقبة» أو لأقل فى حاناتهم ـ عن ذكر الصحاب.. وكان هذا القليل الذى يصلنا إنما يزيد النفس ايلاما لأنه يصور ما يعتمل فى وجدان الصفوة من حيرة قاتلة ومن قلق مستبهم.. صديق كتب يقول.. إن الذى يعيش فى السودان لابد أن يكون فى شجاعة أبى الفوارس عنترة بن شداد.. وصديق ثان كتب يردد مع فدوى طوقان:

(*) الأيام: ٣ يناير سنة ١٩٦٨



«نحن باقون حيث نحن فى ضباب الضباب».

كأنا سؤال بغير جواب. وصديق ثالث أبى ألا أن يمحضنى النصح بأن أنأى بنفسى عن التهلكة. والتهلكة هى السودان ـ حماه الله من العوادى ـ كتب الصديق يقول فى شاعرية بارعة:

إبق حيث أنت فى أوروبا فنحن أناس أدمنوا الموت ـ وأنا أعيذك أيها العزيز ـ من مثل هذا الحنين القتال.. لقد جاء بنا الفتح العربى إلى هذه الأرض الخبيثة.. وتبع آباؤنا الأعراب عجالهم إلى السلم الشاحب فى صحراء السودان فأضلهم السراب.

فالشمس تطلع فى السودان كاذبة وليس تنبت غير اليأس والعدم
أثارها الفجر فقاعا أكابده كأسا يحف وقفرا طامسا بدم

ويملك التشاؤم أقطار النفس أقطار نفسى وأنا نزيح فى أمريكا وأوروبا.. فاصرفه كما اعتدت أن أفعل فى السنوات الأخيرة بأن أغرس ذاتى فى دفات ديوان الشريف الرضى.. فهو صديق أهواه.. وشريفى ليس بشريف ليلة السفح، وبوم الجزع، وليالى الحيف... بل هوالشريف الذى عاش ليرى حضارة الإسلام السامقة تنهار، ويرى مجد العرب الاثيل ينهدم على يد المغامرين والبلهاء من حكام الدولة العباسية الثانية، فينأى بنفسه عنهم.. قلدوه النقابة على الطالبين فأباها.. وولوه السفارة على رأس الحجيج الأعظم إلى مكة فرفضها.. وشرد ببصره بعيداً عن أرض العراق التى لوثها الطائع.. حاكم غافل أحمق ـ يذكرنى ببعض أهل بلادى ـ شرد ببصره بعيداً عبر بيداء الشام إلى مصر وهو ينشد:

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وانف حمى
وفؤاد محلق بى على الضيم كما راش طائر وحشى
البس الذى فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولاى إذا سامنى البعيد القصى
لفت عرقى بعرقه سيد الناس محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجو عز واوامى بذلك النقع رى

وواقع الأمر أن العزاء الذى ننشده إنما هو عزاء موقوت.. والتسلية التى نرجوها إنما هى تسلية عابرة.. ولامشاحة فى هذا.. فالحقيقة أكبر منها.. لأنها وجود.. لأنها ارتباط عضوى بالتاريخ لانملك منه فكاكا وإن أردنا.. لأنها وجدان فطرى قبل أن تكون التزامًا اختياريًا.. وهذه الوجدانية التى هى تملك علينا ـ نحن النازحين ـ أحاسيسنا إلا عند من أعشت أبصارهم منا أضواء المدينة الغربية، ومظاهر حياتها اللاهية... وهى هى التى تجعلنا نردد دومًا ونحن ـ كما قلت ـ نزيحون فى أوروبا وأمريكا.

متى سألت بغداد عنى وأهلها فإنى عن أهل العواصم سال

وماء بلادى كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

فيا وطنى إن فاتنى بك سابق من الدهر فلينعم لسكانك البال

ثم جاءت أحداث الأشهر الأخيرة.. جاءت لتقول للمتشائمين بان البلاد لم تصبح بعد صعيدًا زلقا، ولم يصبح ماؤها غورا.. شعب السودان كبير كبير.. والخيرون بين قادته ـ على قلتهم ـ قادرون على تحمل تبعات القيادة عندما تكون المصيبة.. ولاتثريب فى أن يكون عدد الخيرين قليل.... قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، ولكن القلة الخيرة ـ واحسرتاه ـ لاتريد أن تتحلى بالأناة، والاصرار، والمثابرة.. وهى صفات لاتستقيم القيادة بدونها ولاتجوز الريادة إلا بها..

لامكان للتشاؤم إذن فالتشاؤم والانهزام صنوان.. ومبعث تشاؤمنا ياصحاب مرده أن جميع مانلناه كان سهلا رخيصًا.. من نال القيادة نالها بغير كبير جهد. ومن احتل الصدارة احتلها دون أن يؤهله لها علم ولا خلق.. والتاريخ يحدثنا ـ فيما يحدث ـ بان اتيان المعالى رخيصة إنما يقتل الخيال.. يثبط الهمم.. يعطل الإرادة يصدئ الحياة.. ولو قرأ الناس أبا الطيب لأدركوا بأن صعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل. لقد جاءت أحداث الأشهر القليلة لتتيح لشعب السودان أن يؤكد دوره ومكانه فى الموضع الذى أعده تاريخه وتراثه ووجدانه.. واستجابت حكومته

يومها والأمانة العلمية تقضى بقول الحق.. استجابت حكومته من بعد أن كانت تابعًا متراخيًا.. وارتفع صوتها فى مجالس الأمم.. وقد شهدت وسمعت رئيسها يتحدث حديث رجل رشيق اللفظ، اصمعى الفؤاد.. وأقدمت لأول مرة لتحطيم القفص السياسى والثقافى الذى أراد لنا الاستعمار أن نبقى فيه، معطلا بذلك إرادة الأمة من الانطلاق نحو مستقبلها الواعد.. وقلت يومها لبعض الأصدقاء إن انطلاقة اليوم هذه يجب أن لاتنسينا أن هذا المد الثورى والانفتاح الفكرى.. إنما هو هشيم إن لم تحتويه أوعية سياسية رشيدة.. وإن لم يصبح منهجًا وتفكيرًا وأسلوب عمل.. سيما والقلة والخيرة - أينما كانت - إنما تعمل فى اطار فاسد.. يحيط بها الانهزاميون فاقدو النخاع.. ويحيط بها السلبيون الفارغون من عمل الدنيا ومن عمل الآخرة .. ويحيط بها ذوو الركب الرخوة عديمو الثقة فى طاقاتهم الذاتية.. وتحيط بها الامساخ الثقافية التى فقدت كل وشيجة تربطها بتربتها الوطنية ولم تعد إلا صورة مشوهة متسخة للرجل الغربى.. فى حالى هذا ذكرت صحابيا عظيمًا من أصحاب رسول الله.. ذكرت المسلم القانت، والمناضل الجسور حذيفة بن اليمان.. جاء إلى رسول الله متسائلا تساؤل الحذر الذى يخشى على دين الله وأمة محمد من التهالك مع ماحققت من نصر.. جاء حذيفة ليقول:

... «يارسول الله لقد كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر»؟

قال: نعم

قال: فهل بعد هذا الشر من خير؟

قال: نعم وفيه دخن.

قال: ومادخنه؟

قال: قوم يستنون بغير سنتى ويهتدون بغير هديى. تعرف منهم وتنكر.

قال: وهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها.

قال: يارسول الله فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

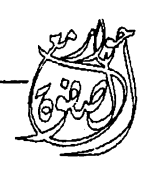
قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: تعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

... وعدت إلى السودان عابرًا غداة فترة التجلى الثورى هذا لأجد عربدة.. أعرف منها وأنكر... ويزيد الأسى فى النفس أن تلك العربدة لاتلاقى عند الصفوة غير الزفرات والأنين فى مجالس السمر، مما يجعل النقد السياسى والمحاسبة أشبه بالممارسة الروحية للعادة السرية.. وفى يقينى أن هذا الأمر طبيعى لأننا لانريد أن نسبر غور المشكل.. لانريد أن نذهب أبعد من حدود الإطار الذى فرض علينا.. لا نريد أن نمارس «اللعبة» إلا وفق القواعد التى رسمت لنا.. وفى يقينى ـ والحال هذه ـ تصبح محنة السودان هى انعدام الاصالة وبالتالى انعدام الفعالية عند صفوته... ومثل هذا الحديث يقودنى بالضروة للحديث فى موضوعات شتى يأبى الخيال إلا أن يجوس فى متاهاتها..

مثل هذا الحديث يقودنى إلى حديث عن القومية.. وحديث عن أصالة الثقافة.. وحديث عن فاعلية الإسلام.. وحديث عن مكان السودان فى أسرته العربية وفى قارته الأفريقية وفى عالمه الرحب.. موضوعات عديدة من حق بلادنا علينا أن نوليها الدرس والتقصى.. وهذا أضعف الإيمان.





حديث(*) عن القومية

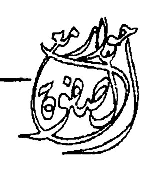


الاستقلال قبل أن يكون علمًا يرفع، ونشيدًا يردد، ومناصب يتعاورها الحكام إنما هو فى أساسه وعى بالذات، وإدراك قومى عميق، وإحساس عميق بالكينونة المتميزة. وقد أثبت تاريخ الإنسانية المعاصر أن المسخ الاستعمارى المتعمد للخصائص الأصيلة فى نفوس الشعوب المستعبدة خلف فيها أنماطًا من العقد والمركبات، وشوه فى عقولها حتى معالم البديهات .. الأمر الذى جعل من القومية وهى الفكرة البديهة ـ بل أقول الحقيقة البيولوجية ـ فكرة مهزوزة تحتاج إلى صقل مستمر، وجلاء دائم... يصدق هذا على كل بلاد العالم المستعبدة.. تلك التى أكتملت لها عناصر الوحدة الوطنية والتجانس العرقى وتلك التى لم تكتمل لها هذه العناصر من الشعوب الهجين كالسودان.

القومية وجدان وحضارة

والقومية فوق أنها وجدان إنما هى أيضا محصلة حضارية لذا فإن إدراك الخصائص القومية، وتنمية جوانبها الايجابية، وتوكيد الثقة بالنفس، وإبراز التراث الحضارى للأمة إنما هى جهد ضرورى لابد منه لدعم الاستقلال السياسى.. فبدون كل هذه العناصر يصبح الاستقلال مظهرًا فارغًا أجوف، وتصبح الحرية الوطنية صدى يتردد لشعار فاقد المضمون، وفى بلد كالسودان يعانى من كل عوامل انفصام الشخصية، وانشطار الوجدان يصبح الترشيد القومى ضرورة ملحة وركنا أساسيًا

(*) الأيام: ٥ يناير سنة ١٩٦٨.



لبناء الأمة.. فنحن عرب ثقافة وأسلوب حياة.. ونحن أفارقة تكوينًا ووجودًا... ومثقفونا - على قلتهم - عاشوا تحت ظل تجربة أوروبية طمست معالم ثقافتهم الوطنية ولم ينالوا من ثقافة الغرب إلا بضع كلمات يلوكونها، وبزة يرتدونها مع الابقاء على كل عناصر الجلافة البدوية فى أحشائهم.. ونتيجة لهذا أصابنا مايصيب كل الشعوب الهجين: الحيرة الفكرية، والارتجاج العاطفى، الهروب من مواقلف الالتزام وانعدام الفعالية لرغبتنا فى ارضاء اليمين واليسار وما بينهما من أمور متشابهات.

قلت أن صيانة الاستقلال ليست بشعار أجوف وإنما هى فى المبتدأ إدراك للخصائص القومية وتنمية لجوانبها الايجابية.. وفى مجتمع ديناميكى متحرك لابد أن تصاغ الثقافة القومية والبناء الوطنى فى اطار تصور تقدمى للمجتمع القومى والمجتمع الانسانى الذى يحتويه، وإلا فستصبح القومية قوة رجعية رهيبة. فالقومية قد ولدت خوزى مارتى وهوشى منه ولكنها ولدت أيضا أدولف هتلر وهيرمان جورنج. إذن فالقومية كما أفهمها تعنى بالضرورة وضع المواطن فى إطار سوسيولوجى أصيل فى اتجاه حضارى تقدمى معين.. فالإطار السوسيولوجى هو المنبت.. والاتجاه الحضارى هو المستقبل.

القومية.. حتى لدى الأمميين

والتاريخ يحدثنا - وقوله قول فصل - عن الدور الذى لعبته القومية ليس فقط كمحرك أساسى لقوى التحرر الوطنى، بل وكفوة دافعة للتنمية الاجتماعية وكركيزة للاتجاه الفلسفى والعقيدة السياسية حتى فى البلاد التى نادت بعقائدية أممية.. أصدق نموذج لهذا فى عالم اليوم هو الاتحاد السوفيتى .. وكتاب ستالين عن القوميات الذى يبرز فيه حتى الجوانب النفسانية فى التكوين القومى قد أصبح سفرا كلاسيكيًا فى هذا المضمار. ولا أغالى إن قلت إن الاحساس القومى عند أهل الاتحاد السوفيتى الذين يدعو نظام حكمهم للأممية إنما هو أقوى منه، فى كثير من مظاهره، عن بلاد أوروبا الغربية.. يبدو هذا بصورة أوضح فى الفنون أكثر منه فى السياسة

حيث يغالى فنانو الاتحاد السوفيتى فى إبراز أمجاد روسيا الغابرة وربما كرد فعل لاتهام البرجوازية الغربية للبلاشفة بأنهم أجلاف لايرتقون إلى المستوى الرفيع من الفن البرجوازى الأوروبى.. ومن الطريف حقًا أن يجد المرء أكثر الأوبرات رواجًا فى الاتحاد السوفيتى هى أوبرا بوريس قودينوف، قيصر روسيا فى القرن الثانى عشر، فى الوقت الذى صاغ فيه الموسيقيون المعاصرون فى روسيا بضع روائع تصور انتصارات الإنسان الجديد عجزت حتى الآن أن تجد طريقها إلى الأوبرا.. ومن الطريف حقًا أن يجد المرء أن الباليه الروسى ذائع الصيت فى العرض والأداء هو أكثر الباليهات تخلفًا، مع روعته من ناحية رفضه للتجديد واصراره على الابقاءعلى مظهره الروسى القديم والقشيب حتى أن المحاولات الرائدة قبل بضعة أعوام لعرض مقطوعتى كاتشتوريان عن سبارتاكس وشوستو كوفتش عن نضال لينتجراد قد أثارت ثائرة بعض النقاد فى موسكو باعتبارها بربرية فنية.

الوعـى بالـذات

حديث طويل عن القومية التى هى الركيزة الكبرى لتقدم المجتمع.. وحديث طويل عن الأممية التى لاترفض القومية بل تعطيها مضمونًا جديدًا وبعدًا أوسع.. وكلا الحديثين مدخل لابد منه.. لمقدمة لابد منها.. لبحث لابد منه.. والذى أريد أن أقوله فى اختصار هو أن محنة السودان هى فقدان الوعى بالذات، هى انعدام الاحساس بالكيان القومى، هى الجهل المفضوح بالتراث الحضارى للأمة، هى عدم الإدراك للديناميكية الاجتماعية فى العالم الذى نعيش فيه والذى يغذ السير نحو القرن الحادى والعشرين فى ثورة تقنية وعلمية لم يشهد لها التاريخ مثالا، هى فى الرفض المستريب أحيانًا والمريب أحيانًا كثيرة أخرى للتلاحم المصيرى بين قوى العالم النامى الذى يشق طريقه صعودًا نحو مستقبله الوارف.. وانعدام كل هذه المميزات قد جعل من كل عناصر القوة فى بلاد السودان عناصر ضعف وموات.. رقعة الأرض الفسيحة أصبحت حملا ثقيلا على كاهل القارة بدلا من أن تكون مصدر ثراء وعطاء.. الملايين

التى تقطنها أصبحت كما مهملا فى قارة يتحدث باسمها فى المحافل من هم أقل عددًا وأضعف بنية.. والتراث الحضارى الذاخر أصبح سلاحًا لتفتيت عناصر الوحدة حتى فى داخل الأمة نفسها..

فى ايجاز أصبح السودان المنعزل فى حاضره رجل أفريقيا المريض... أقول ـ فى حاضره ـ وفى اللسان مرارة.. فالسودان ـ فى ماضيه ـ هو سودان أولباب كبير البجة الذى تحالف مع زنوبيا ملكة تدمرلصد عدوان الرومان... هو سودان كندسى ملكة مروى التى ورد إليها نبأ الدين الجديد من بيت المقدس فلم ترد لبلادها أن تنعزل عنه وأوفدت رسولها للقاء بولس فى أورشليم لمحاورته.. هو سودان بعنجى وتهارقا والأسرة الخامسة والعشرين ... هو سودان فيراكى عظيم النوبة الذى شد الرحال إلى دار السلام للقاء المتوكل ومساجلته فيها يهم أمر أهله فيما حدثنا المقريزى.. هو سودان الحوارب الذين حموا للإسلام دولته من بعد أن ذبل غصنه...، وصوح عوده فى الشط الآخر من بحر القلزم.. حموه ضد طعنات المسيحية من المشرق وهجماتها من الشمال فيما أورد لنا القلقشندى.. هو سودان الامام المهدى الذى رسمت ثورته الكبرى معالم الطريق لأول ثورة عربية أصيلة تنبع من ضمير الأمة وتستهدى بثقافتها وتؤكد فى السودان القديم مبادئ تطرح نفسها اليوم فى الحاح داو.. مبادئ العدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطنى، والوحدة العربية الإسلامية.. هى مبادئ تهدف إلى أن تعيد للدين أبعاده الثورية الحقيقية من بعد أن أصبح وسيلة لتخدير الأمة وصرفها عن قضايا واقعها المعاش.

سودان اليوم بعيد كل البعد عن المكان الذى أعده له تاريخه ووجوده الجغرافى.. وعن الموضع الذى أرادته له مقتضيات زمانه ومكانه...

السياسة.. والفكر

.. قلت أن الإدراك للخصائص القومية ضرورى لكيما تقوم السياسة على أساس متين سيما والسياسة فى البلاد النامية هى المنفذ الأساسى للتغيير فى المجتمع. وقلت

أن القومية لابد أن يحتويها اطار سوسيولوجى معين هو المنبت... وقلت أن لابد أن هذه القومية توضع فى اتجاه حضارى منفتح على التجارب الانسانية على اختلاف ألوانها.. وكل هذه أمور لاتتم إلا بالتكوين الثقافى. إذن فالثقافة هى الأساس المكين لكل سياسة رشيدة.. فالسياسة بلا ثقافة تصبح تهريجًا.. والنشاط السياسى بلا قاعدة فكرية يصبح تخبطًا، ولكيما تكون الثقافة أقرب إلى الواقع لابد لها من الأصالة، ولكيما تكون أكثر فعالية لابد لها من الألمام الواعى بافكار العصر وأساليبه. وظاهرة التهريج أو السياسة اللاثقافية ليست بظاهرة غريبة أو مستحدثة.. نراها فى السودان كما نراها فى عديد من الدول النامية إذ هى فى الواقع مظهر التخلف فى المجتمع. فمحاربتنا إياها لابد أن تتم فى إطار محاربتنا للتخلف الاجتماعى.. وهى حرب لن يقوم بها ويقودها غير الصفوة.. فى هذا المضمار قرأت حديثين رائعين أحدهما للكاتب الجزائرى المرموق مالك بن نبى وهو يعلق على حديث بن بلا عقب مؤتمر طرابلس، وهو الحديث الذى قال به بن بلا أن السياسة شىء غير (البولتيك) - والبولتيك كلمة يطلقها أهل الجزائر على احتراف الدجل السياسى - فالسياسة التى تفصل الفكرة عن النشاط تجعل الأولى عاجزة وتجعل الثانية تخبطًا، ويعقب بن نبى على هذا الحديث بقول المح من ورائه الأستاذ جاك بيرك العالم الاجتماعى المعروف، ليقول إن اللافعالية السياسية إنما هى انعكاس للافعالية الفردية.. ففقدان الفعالية على المستوى الفردى يعنى التخلف على مستوى المجتمع. وبالرغم من أن الأفراد وليدو ظروفهم إلا أن واجب القادرين، وهم الصفوة فى المجتمع، هو محاربة هذه الظروف بتقديم المثل كل فى ميدانه.

والحديث الآخر الذى قرأت للكاتب المصرى أحمد بهاء الدين عقب النكسة حول دور الفرد والمسئولية الفردية فى إقامة المجتمع العصرى الجديد.. فقد ظل الناس زمانًا يتحدثون عن المبادئ حتى أضحت المبادئ شعارات باهتة اللون تثير من الغثيان أكثر مما تثير من الحماس.. ويبحثون عن كباش الفداء تبريرًا للأخطاء أكثر

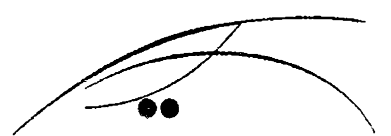
من نقد الذات ومحاسبتها.. يصدق هذا كما قلت على الصفوة قبل غيرها.. بل ودون غيرها.

وحديث بهاء يشير إلى انعدام الوعى والشللية لدى الصفوة والامتيازات الفردية مما هو كفيل بهدم النظام السياسى الجديد والكيان الاقتصادى الجديد.. ويمضى المقال للحديث عن الدولة العصرية التى نريد أن نقيمها فينبه إلى أن العصرية ليست هى اقتناء الآلات الحديثة وإنما هى تطور فى العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية لأن «مايسود الحياة العربية اليوم من تقديم الشخصية على الموضوعية ومن الدور الكبير الذى تلعبه المعرفة والعلاقات الشخصية والألفة الفردية فى وضع الناس فى هذا المكان أو ذاك، قبل الصفات الاجتماعية أو الموضوعية أو مدي الالتزام بالقضية، ليس جوا يناسب مجتمعنا عصريا ويحرم البلادمن كفاياتها الحقيقية فوق أنه ينمى صفات الزلفى والملق وحاجة كل فرد إلى أن يحمى نفسه باتصالاته لابعمله، الأمر الذى ينطوى على سلبيات خطيرة».

كلا الكاتبين تحدث عن انعدام المسئولية الفردية وبالتالى انعدام الفعالية.. وكلاهما كان يتحدث فى حوار مفتوح مع الصفوة.. مع المثقفين.. وكلا الحديثين يهدف إلى توكيد حقيقة أساسية هى أن الأفكار والأنظمة السياسية ليست بشعارات نقتنع بها اقتناعًا نظريًا كاقتناعنا بنظرية فيثاغورث بل لابد أن يصحب هذا الاقتناع النظرى التزام وجدانى.. وأن هذه الأفكار والأنظمة ليست بالفاظ نفرزها خطابة وكتابة وإنما هى سلوك ومنهاج حياة...

■ ■ ■

الثقافة السودانية(*) وأمساخ الثالودوميد



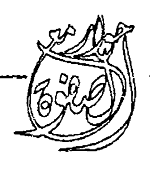
... الثقافة لكيما تكون أصيلة لابد لها من أن تكون وفية لمصادرها الفكرية، واعية بتراثها الحضارى، ومخلصة لينابيعها الروحية... ولابد لها فوق كل هذا من أن تكون خالية من العقد الموروثة والمكتسبة، عقد الاستعلاء التى تواكب الحنين للمجد الغابر.. وعقد النقص التى تلازم الاتصال بحضارة جديدة متقدمة.. والمثقف الأصيل هو المثقف الذى يستمد أفكاره من واقع وتاريخها واضعًا فى تقديره تجارب الانسانية الصاعدة، ومستهديًا بتجاربها الرائدة.

وفى بلادنا ستظل الثقافة ممسوخة إن لم تضع فى اعتبارها الأول عروبة السودان.. وقومية السودان.. وزنجية السودان... وستظل الثقافة الوطنية ثقافة ممسوخة إن لم تعمق فى ضمائر ملتمسيها أن أوروبا كأسلوب حياة إنما هى شىء طارئ فى حياة السودان.. وأن أوروبا كنهج حضارى إنما هى تراث إنسانى أسهمت فيه الإنسانية كلها، شرقها وغربها، أبيضها وأسودها، إن الثقافة التى لاتؤكد هذه المعانى إنما هى ثقافة ممسوخة ومنحرفة .. ولاتلد - بالضرورة - إلا أجيالا من منحرفى الفكر وأمساخه .. أجيالا من أطفال الثالودوميد .. منبتين.. لم يقطعوا أرضًا ولم يبقوا ظهرًا ..

اطار بلامحتوى

والذى حدث فى السودان - والحق يقال لم يكن لنا فيه قصب السبق.. فهو مظهر من مظاهر انحراف الصفوة والقيادة فى الكثير من البلاد النامية.. البلاد التى

(*) الأيام: ٩ يناير سنة ١٩٦٨.



عجزت صفوتها وقيادتها عن أن تدرك أن الاستقلال السياسى بلا انعتاق ثقافى إنما هو إطار بلا محتوى، ومظهر دون مخبر. والانعتاق الثقافى لايتم بالتهريج وإنما يتم بالإدراك المتكامل لماهية الثقافة الوطنية، والوعى الرشيد بجذورها، ثم الاحتشاد المادى والمعنوى لوضعها فى إطار عصرى تقدمى.. ومثل هذا الجهد لايمكن تحقيقه بالطريقة العفوية والسطحية التى عولجت بها بعض قضايا الثقافة الأساسية مثل التعريب، وتخطيط التعليم.

أسباب التخبط والحيرة

بدأت حديثى بقولى بأن الوعى بالذات هو المنطلق الأساسى لأى عمل سياسى قمين بالبقاء.. ووراء انعدام هذا الوعى عاملان أولهما الجهل بالتراث الثقافى وثانيهما التقديس المذعن لحضارة الرجل الأبيض الأوروبى.. هذا العاملان ومانجم عنهما من عقد النقص هما وراء كل مانشهده اليوم وماشهدناه من قبل تخبط سياسى، وحيرة ثقافية، وارتجاج اجتماعى. والعاملان، إلى حد ما، مرتبطان ومتكاملان.. فالجهل بالتراث القومى واللغة القومية والأمجاد القومية قد دفعت بالبعض إلى ارتداء سمل غريب؛ مستورد يبدون فى داخله كالدراويش. والاحتكاك السطحى بالثقافة الأوروبية دون سبر غورها وإدراك أبعادها الإنسانية وتقييم جوانبها السلبية والإيجابية ثم تطبيقها تطبيقًا واعيا فى الإطار القومى الذى لايمكن له أن يقبلها كلها لأنها غريبة عليه فى نشأتها وفى معطياتها، ولايمكن له أن يرفضها كلها لأنها تمثل جزءًا من التراث الانسانى الذاخر.. هذا الاحتكاك السطحى قد أدى بالضرورة إلى ما أسميته بالتقديس المذعن لحضارة الإنسان الأوروبى.

وفى معرض الحديث عن الجهل بالتراث القومى أذكر ـ على سبيل المثال العابر ـ حملة انقاذ آثار النوبة.. فقد تابعتها فى باريس فى اطار عملى باليونسكو.. وتابعتها فى أمريكا خلال عملى فى بعض جامعاتها فشهدت بعض نتائج المذهلة التى قاد إليها الكشف الجيد.. بعضها يتعلق بأصل الإنسان وبعضها يتعلق بزحف الحضارة السامية

من الجنوب.. وبعضها يكشف جوانب غامضة عن أثر الثقافة المسيحية فى السودان. ولكن الذى أدهشنى خلال متابعتى لهذه الحملة ليس هو الكشف العلمى الجديد، ولا الاهتمام الطاغى الذى أبدته دور العلم والحكومات بل وبعض الأفراد فى أوروبا وأمريكا.. الذى أدهشنى أكثر من كل هذا بروز اهتمام السودان الحديث بهذه الحملة.. بروز اهتمام هيئاته العلمية، وتنظيماته السياسية، أفراده المثقفين وهو بروز بالغياب ـ فيما يقول تعبير الفرنجة.. استثنى من هذا بلاشك الجهد الرسمى الذى قامت به مصلحة الآثار فى إطار امكانياتها المادية و البشرية المحدودة.. لقد حز فى نفسى حقا وأنا أتابع هذه الحملة أن أقرأ عن جهود جامعة همبولدت الألمانية فى سكوت.. وجهود معهد الآثار بجامعة وارسو فى فرس.. وجهود المعهد الأسبانى للتاريخ القديم فى المقبرة المروية بأرقين.. وجهود معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاجو فى سره شرق وجزيرة دورقنارتى.. وجهود جامعة كاليفورنيا فى وبنارتى.. وجهود جامعة كلورادو فى فركه والجزيرة دبروسه.. وجهود جامعة براون فى سمنه شرق.. وجهود جامعة غانا (البرفسور شينى) فى مروى القديمة.. وجهود جامعة لايدن فى دبيره غرب .. وجهود الجمعية البريطانية للاكتشافات المصرية فى بوهين.. حز فى نفسى أن أقرأ أنباء هذه الجهود العظيمة للبحث عن تاريخ بلادنا ولا أجد مايقابلها ـ لا أقول من الجهد ـ ولكن من الاهتمام عند الذين يدعون الحديث باسم هذه البلاد وتتورم حلاقيمهم صراخًا حول الحمى والذمار..

يرونهـا عـــارًا

.. وفى معرض الحديث عن التراث القومى أيضا أذكر كيف أن العروبة والتعريب عند كثير من المثقفين ظلت تحسب فى عداد العار والشنار .. وإن نسيت ـ فى هذا الشأن ـ فلن أنسى نقاشًا دار بينى وبين أحد الذين أرادت لهم صدف التاريخ أن يحددوا خط السيرَ الثقافى للأمة.. قال لى فى معرض رده على حديثى عن حتمية الالتزام العربى فى السودان ـ سياسة وثقافة ـ قال إن ارتباطنا الثقافى ببريطانيا

يجب أن يبقى ويدعم لأن هذا هو منفذنا الوحيد للحضارة.. وما قاله محدثى يؤمن به الكثيرون.. بعضهم تسترا وراء الثقافة الانجليزية لجهلهم بلغتهم وتراثهم، وبعضهم الآخر يخلط بين وظيفة اللغة وطبيعة اللغة.. فاللغة وسيلة للتعبير.. ولكن اللغة أيضا تعبير عن ضمير الأمة...

والحقيقة الجلية هى أن اللغة الإنجليزية إنما هى شىء طارىء فى حياة السودان.. طارىء بحساب الزمان، وطارئ بحساب الكم والكيف.. فلغة الإنجليز لم تمس فى السودان إلا أقلية بسيطة هى تلك التى اتيحت لها فرص المعرفة. وفى إطار هذه الأقلية لم تنل الغالبية من الثقافة الإنجليزية غير قشور معرفة ولسان ذى عوج. فالثقافة الانجليزية لا تكتسب بقراءة قاموس مايكل وست، وقصة ديفيد كوبرفيلد فى طبعتها المختصرة، ولاتنال بالتجوال الرسمى فى لندن - لا لندن العلم والفن ولكن لندن القماشين فى شارع اكسفورد، ولندن المستوصفات الطبية فى شارع هارلى - ولا تنال بقضاء عطل رأس الأسبوع مع قدامى المفتشين فى ضواحى اكسفورد وفى ساحل كنت.

أما الثقافة الإنجليزية كوسيلة فإن المثقف الحقيقى ليقدر لها دورها الهام فى فتح نوافذ الفكر الأوروبى على ثقافتنا العربية.. ومساهمتها فى اخصاب هذه الثقافة واثرائها.. أننى التفت حولى - وأنا استمع إلى مايقوله بعض مثقفينا عن ثقافتهم الإنجليزية - التفت حولى إلى بلاد شقيقة عاشت محنة الاستعمار كما عشناها، بل أشد ضراوة، التفت إلى بلاد أراد الاستعمار الأوروبى مسخ كيانها الثقافى وطمس معالمه مثل الجزائر.. التفت إلى هذه البلاد فأجد مثقفين مثل مصطفى الأشرف وكاتب ياسين ومالك حداد.. وكل من هؤلاء يكتب لغة الفرنجة كأعظم ماتكون الكتابة بها.. وبعضهم مثل كاتب ياسين يعيش محنة العجزعن التعبير بلسان أمته. ولكن السمة المميزة للفكر الصادرعن هؤلاء المثقفين هى الاصرار على توكيد الشخصية الوطنية، والذاتية المستقلة، وفضح الوهم الذى أراد الاستعمار غرسه فى النفوس حول الانصهار الثقافى، وما يعنيه هذا من نكران للوجود القومى الثقافى.

والتفت حولى.. التفت إلى مصر لأرى مثقفين عاشوا حضارة أوروبا.. ووردوا من مناهل الفكر الأوروبى.. ودربوا على أساليبه المبتدعة باعتبارها تطورًا طبيعيًا لوسائل التعبير الإنسانى.. أخذوا كل هذا ليستخدموه فى خلق ثقافة عربية جديدة تصب فى بحر الحضارة الإنسانية الطامى كأحدى روافده الثره..

والتفت قريبًا إلى رجال من بنى جلدتى عاشوا ثقافة بريطانيا حسا ومعنى ... عاشوها فكرًا وعاشوها ممارسية حياتية فلم يقض هذا على أصالتهم وعلى شخصيتهم الوطنية.. أتحدث هنا عن صديقى الطيب صالح الذى استطاع أن يصور مجتمع بلاده من بعيد وهو نزيح عنها.. بلاد الخرافات الحقيقة.. يصورها بتعاطف وصدق وأصالة لم يستطعها مئات المثقفين وأشباه المثقفين الذين يعايشونها بجسومهم.

إن الثقافة الانجليزية ـ شأن كل اللغات الأجنبية الحية الأخرى التى نتعلمها ـ إنما هى سلاح عظيم يمكن لنا أن نستخدمه فى صقل ثقافتنا العربية لإزالة ماران عليها من صدأ بفعل قرون من الانحلال والتفسخ.. وبالتالى تسهم معرفتنا بها فى اثراء فكرنا العربى وثقافتنا الأفريقية.. وهكذا يجب أن تفهم.

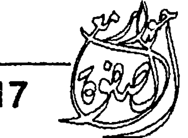
■ ■ ■



الاسـلام بين محمـد (*)
ويزيد بن المقفع

قلت إن الثقافة لابد أن تكون وفية لينابيعها الروحية لكيما تكون أصيلة.. وهذا الحديث يقودنى بالضرورة لحديث عن الدين... حديث عن الإسلام.. فالسودان بلد مسلم ولكن مشكلة الاسلام فيه ـ بل فى كل بلاد المسلمين ـ هى التحجر الفكرى الذى منى به من خولوا لأنفسهم حمل رايته.. إن النكسات التى أصابت الفكر الإسلامى ولا أقول الدولة الإسلامية، لأن الدولة قدشاخت وفنيت للأسباب التى تفنى بها الدول.. إن النكسات التى أصابت ذلك الفكرتتركز فى عجز قيادة المسلمين عن مجابهة تحديات العصر.. فى حكمهم كرهبانية طاغية لايعرفها الإسلام.. فى تخويلهم لأنفسهم حقا إلهيًا فى فرض أحكام الدين وفق مايرتؤون... ومع كل هذا ـ بل وقبل كل هذا ـ فى خضوعهم المذعن أمام السلاطين.. باختصار أصبح شيوخ الدين فى العصرالحديث يمثلون أسوأ ما فى العصور الاسلام من انحطاط فكرى، وتحجر عقلى، واستخذاء سياسى، ونكران للعلم والتقدم، بل وعداء للحياة نفسها.. ليس هذا فحسب بل كانوا هم العقبة الكئود فى طريق كل مبادرة رشيد لوضع الإسلام فى اطار العصر.. اتهموا الشيخ محمد عبده بالكفر.. واتهموا الإمام المهدى بالمروق على سلطان المسلمين ومضوا يدفعون عن الحاكم المستمر التركى بقولهم «إن الأرض لم تملأ.. جورًا وظلما وأن الجميع يرتعون فى بحبوحة الأمن تحت رعاية أفندينا الخديوى والحكمدار عبد القارد باشا» ... ورموا الشيخ على عبدالرازق ذلك العقل الوقاد، والرائد الجسور.. رموه بالزندقة..

(*) الأيام: ١٩٦٨/١/١١



إن مسلك الحق والخيرالذى يجب أن يسلكه شيوخ الإسلام فى دواوين السلاطين قد رسمه بالأمس أبو يوسف فى بلاد الرشيد، والإمام الأوزاعى فى بلاد المنصور، والحسن البصرى فى مجلس ابن هبيرة.. إن شيوخ الإسلام الذين نعايشهم، يمارسون لونًا من تخدير الأمة معتمدين على أوهام من واجب الشرفاء والراشدين أن يفضحوها.. بعضهم يمارسها بادعاء حسب ونسب لامكان لهما فى دين محمد. وما أحوجهم لأن يعيدوا قراءة قول ابى عبد الله السفاح للمتاجرين باسم النسب الشريف «أرى جل فخركم بالنساء لتضلوا به الجفاة والغوغاء، ولو كانت هنالك امرأة لتكرم لكانت آمنة بنت وهب التى جاءت بمحمد وليست فاطمة التى جاء بها محمد».. وما أحوجهم لمن يذكرهم بقول عمرو بن الخطاب فى رجل له فى الإسلام مكانة لم يعرفها من حسباء السودان ونسبائه من تقدم منهم ومن تأخر.. أشير إلى سعد بن أبى وقاص خال رسول الله وصاحبه، وقد أخذته فى نفسه عزة بحكم قرابته للرسول.. قال عمرلسعد خال الرسول، وفاتح المدائن، وغازى عروش الأكاسرة «لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد من نسب إلا بطاعته. والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء... الله ربهم وهم عباده. يتفاضلون بالعافية، ويدركون ماعند الله بالطاعة.. فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه فإنه الأمر».

لاحاجة بنا لأوصياء يمارسون دعاواهم باسم العلم والفقه وعلمهم الذى لايعرف العصر ولايعترف به كعلم على بن القارح الذى أضاع نصف عمره وحفظ نصفه. ومهما يكن من شىء فليس فى علم الدين من احتكار، فالعلم فيما يحدثنا حجة الإسلام الغزالى بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا قليلون.. وحتى الأقلية فيما يقول لنا حجة الإسلام فى منقذه من الضلال - وأشير هنا إلى جانب من حديثه عن حوارالفقهاء حول الإمام المعصوم.. «ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء بل هم مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الإمام المعصوم طالما

جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم وإلى العلم المعصوم. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب العلم وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئًا أصلا».

.. إن العلم الرشيد ليس بحاجة إلى أوصياء معرفة عليه فليس هنالك أخطر على الدعوة من أوصياء الدعوة وادعيائها .. والراشدون يحذرون مع معاذ بن جبل «زيغ الحكيم ويعرفون الحق بالحق فإن للحق نورًا»...

وبعض شيوخ الاسلام فرض لنفسه سيادة على المسلمين وهم بذلك يهدمون أولى دعائم الإسلام... عدالته وانسانيته وينسون أن الدين الذى يتحدثون باسمه إنما هو الدين الذى جاء به محمد الذى مافتىء يردد حتى توفاه الله «أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى شعاب مكة».. إن أخلاق هذا النمط من الشيوخ إنماهى أخلاق مرازبة الفرس لا أخلاق محمد وصحب محمد.. وروى أبوهريرة «دخلت السوق مع رسول الله ليشترى سراويل فوثب البائع إلى يد النبى صلى الله عليه وسلم ليقبلها فضرب الرسول يده وقال هذا ماتفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم. ثم أخذ سراويله وحملها فأردت حملها عنه فأبى وقال: صاحب الشىء أحق بأن يحمله».

التخدير الفكرى

وفى ممارسة شيوخ الدين لكل ألوان التحذير الفكرى والعاطفى مضوا لرفض كل مظهر من مظاهر التقدم وتجديد الحياة.. وبالتالى مضوا لرفض العلم، والإسلام الحقيقى دين العلم.. بل هو الدين الوحيد الذى يقدم العالم على العابد... روى الترمذى عن رسول الله «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».. وذهب حجة الإسلام الغزالى للقول بأن الانسان لم يخلق إلا للعلم.. قال - رضوان الله عليه - فى «احياء علوم الدين»: إن الإنسان انسان بما هو شريف لأجله.. وليس ذلك بقوة جسمه فإن الجمل أقوى منه، ولابعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا بقدرته على

الجماع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه.. بل لم يخلق إلا للعلم». وفى رأى علماء المسلمين يحسب أعداء التطور فى عداد الهمج الهامج.. روى ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» الناس ثلاث: فعالم ربانى ومتعلم فى سبيل نجاة والباقى همج رعاع أتباع كل ناعق».

ذكرت أن فقدان الدين لكل ارتباط بالعصر هو المسئول عن رفض الناشئة للدين قيما وطقوسا.. ولكيما يمنح الاسلام ـ كثقافة ـ مضمونًا عصريا فلابد لنا من إخراجه من القوقعة التى ادخلها فيه شيوخه.. لابد أن نخرجه من قوقعة «العزية» و«الجوهرة» والحفظ الببغاوى لآى الذكر الحكيم.. ولابد أن نخرجه من اطار التعليم الدينى التقليدى والترشيد الدينى التقليدى الذى لاتعادل ركاكة مؤلفاته إلا فسولة أفكار كاتبيها.. إن الإسلام لايمكن له أن يبدو فى صورته العصرية المجددة إن ترك شأنه لاناس مكانهم الحقيقى ـ فكرًا وعاطفة ـ فى عصور المماليك ودولة آل سلجوق.

الإسلام كتراث

والحديث عن الإسلام كثقافة ينحسب بالضرورة للحديث عن الإسلام كتراث لابد من أخذه بالاعتبار فى تكييفنا للكيان السياسى لدولة السودان. وهنا أيضًا أجد العجز الكامل عن التمييز بين الإسلام كقيم سامية وكقوة روحية دافعة للمجتمع.. وبين المؤسسات التى صنعها الإنسان المسلم فى تجارب المحاولات والخطأ، والتى لايصلح غالبها ـ بالضرورة ـ لواقع النصف الثانى من القرن العشرين.. فالمحاولات التى نراها الآن والتى ترتكز إلى حد كبير على الكيانات القائمة ـ وأغلبها كيانات فاسدة ـ لن تؤدى بهذه البلاد إلا إلى حكم دينى كذلك الذى شهدته ـ دولة حديثة كالباكستان.. دولة بدأت برجال خيرين أفذاذ كالقائد الأعظم محمد على جناح ولياقات على خان.. ثم انحدرت لحكام من أفسد من عرفه العالم الثالث مثل خوجة نظام الدين، حسين سهروردى، واسكندر ميرزا، وغلام محمد وفيروز نون خان، باسم الإسلام أغرقوها فى الأحلاف.. وبأسم الإسلام استولوا على أموال المكدودين.. وباسم الإسلام أماتوا

الكرامة فى نفوس أهليها.. حتى جاء أيوب خان ليحاول انقاذ مايمكن انقاذه.. ومازال يحاول جاهداً.. ويصيب مرة ويخطىء مرات..

قلت إن الإسلام يمكن - بل يجب - أن يكون القوة الأساسية الدافعة للتقدم فى بلد مسلم كالسودان.. وتجربة الجزائر الرائدة فى هذا المضمار لتصور لنا أن ما أدعيت ليس بوهم فكرى.. فأنا لن أنسى قول بن بلا فى إحدى ملاقاته الأسبوعية مع طلاب جامعة الجزائر بأن أية سياسة لكيما تكون جزائرية لابد لها أن تظل وفية لينابيعها الروحية، ولرسالة الشهداء، وموثق الأحياء.. «ذلك أن السياسة التى لاتمتلك جذورها داخل روح الشعب لايمكنها أن توجه نشاطًا جماعيًا لأنها تكون عاجزة عن مد النشاط الفردى بأسمى بواعثه.. فالثورة الجزائرية ثورة فلاحية لا بعدد شهدائها فحسب بل وبروحها.. والفلاح الجزائرى قد ثار لاسترداد شخصيته العربية المسلمة».. وحاول الأستاذ مالك بن نبى مدير جامعة الجزائر السابق تحليل حديث بن بلا فقال.. إن الحكم هنا لاينصب على قيم غيبية وإنما ينصب على نشاط إنسانى فالمشكلة لا تتمثل فى تلقين المسلم عقيدته لكنها تتمثل فى إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها فى الحياة».

هذا هو الفهم العصرى المستير للاسلام ولدور الإسلام الدين كقوة للدفع الثورى، والدين كوسيلة للتغيير الاجتماعى.. فالدين، بل الأديان كلها، ثورات كما قال فيها الميثاق المصرى: «إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته. وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته.. إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة».. لذا فإن أية محاولة لوضع الدين فى الإطار العصرى لابد أن تحدد وضع الدين من القضايا التى تمس حياة الناس فى المجتمع المعاصر.. بل لابد لها من أن تؤكد ارتباطه بكل القيم الثورية السامية.. إن الدين لابد أن يرتبط بقضية التنمية.

ولابد أن يرتبط بقضية العدالة الاجتماعية ولابد أن يرتبط بقضية الديمقراطية الحقيقة التى ترفض التسلط العاطفى والاستغلال الاقتصادى..

ولابد أن يرتبط بقضية مقاومة الاستعمار الذى هو ـ فى جوهره ـ هدم لانسانية الإنسان.. وجوهر الدين ليقبل كل هذا الارتباط بل ويحث عليه. روى ابن القيم فى «أعلام الموقعين»: أن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض. فاذا ظهرت امارات الحق وأدلته بأى طريق فذلك من شرع الله ودينه ورضاه وأمره».

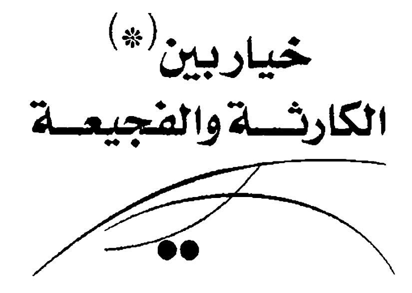
إن المثقف المدرك لجوهر دينه يجب أن يدرك أن الاسلام قوة يمكن أن تتفجر ينابيع من العدالة والتحرر.. وتجربة الإمام المهدى ـ المفكر والقائد الأول فى تاريخ السودان الحديث ـ لتدل على هذا.. ولئن استطاع الإمام المهدى وهو يعيش فى عصر من أشد عصور الإظلام الفكرى فى السودان أن ينفذ إلى جوهر الدين فلا أرى ما يمنع من تفجير نفس الطاقة ونحن فى عصر العلم والنور.. لا أرى مايحول بيننا وبين ذلك غير التبعية الفكرية، وانعدام الاصالة، والتقديس المذعن للفكر الأوروبى..

قصة بن المقفع

هذا وجه.. أما الوجه الآخر فليس هنالك من أحد يملك أن يملى على الناس بأن له حقًا إلهيًا فى تفسير أحكام الدين.. وإصدار صكوك الغفران للمسلمين.. من معنا هو المسلم القانت ومن حاربنا إنما هو كافر ملحد زنديق.. إن الذين يريدون اقامة دولة دينية على الكيانات الدينية القائمة إنما يسعون لتشييد الملك العضوض لا اقامة دولة الإسلام.. إنهم ليسوا بتابعى محمد بل هم أخلاف يزيد بن المقفع الذى وقف يوم تنصيب معاوية ليقول لمن حوله من المسلمين «الخلافه لهذا ـ وأشار ـ إلى معاوية.. ومن بعده لهذا ـ وأشار ـ إلى يزيد ـ ومن لم يقبل فهذا: وأشار إلى سيفه»..

■ ■ ■

خيار بين (*) الكارثـة والفجيعـة

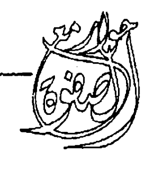


فى اجتهادى أن انعدام الاصالة الفكرية قد أدى بنا إلى الإيمان دون وعى، والتشبث دون إدراك بأفكار ومؤسسات لامكانة لها فى اطار مجتمعنا المتخلف.. مثال لذلك.

الحوار حول الدستور

لقد ظللت أتابع منذ عام أو يزيد تلك اللجاجة الصاخبة حول دستور السودان.. ظللت أتابعها على صفحات الصحف.. وفى نقاش اللجان. وفى الحوار بين رجال السياسة. وأكثر ماهالنى فى الأمر أن يجتمع سامر القوم وينفض وكأنى بالمتحدثين يناقشون أطروحة لنيل اجازة فى القانون من جامعة ليدز.. حديث طويل معاد مكرر عن الرئاسة والبرلمانية.. عن المجلس والمجلسين.. عن القضاء والخدمة العامة المحايدة.. عن تجارب أمريكا وبريطانيا وفرنسا.. عن أقوال مونتسكيو ودايسى.. ليس هذا فحسب بل وهناك شىء أشبه بالإيمان عند الكثيرين ممن يجادلون فى أن خلاص السودان.. واستقرار الأمور فيه إنما هو رهين باكمالهم حياكة هذا السمل الدستورى الذى يصنعون. ظللت أتابع هذا ـ كما قلت ـ وأنا فى حيرة من أمرى.. أو حقًا يتحدث هؤلاء القوم عن بلد اسمه السودان يرقد فى أعماق أفريقيا ويشاركها كل مظاهر تخلفها الاقتصادى والاجتماعى.. أو حقا يتحدثون عن بلد يجهل ثلثا أهله القراءة والكتابة ويعيش ثلث أهله مع القردة والأفاعى فى الغاب؟؟ أو حقًا يتحدثون عن بلد مازال الجانب المتطور منه فى الشمال بعد نصف قرن من الانفتاح نحو الحضارة الأوروبية المعاصرة..

(*) الأيام: ١٩٦٨/١/٢٢



مازال خاضعًا لكل قيم وأخلاقيات المجتمعات البدوية.. حقيقة الأمر أن بعض القوم لايدركون طبيعة المجتمع الذى يعالجون.. فلو أدركوها لأدركوا معها أنهم أمام قضية لن تفلح كل كتب القانون الدستورى وحدها فى معالجتها.. فالأمم كائنات اجتماعية حية تتكيف بالظروف التى تحيط بها.. والدساتير إنما هى هياكل تشريعية تتضمن أهداف الأمة، وتقنن مكاسبها، وتحدد الطريق لتحقيق هذه الأهداف وحماية تلك المكاسب.. وفى المجتمعات المتخلفة فى الدول الناشئة ليس هنالك من هدف غير التنمية وإزالة وصمة التخلف.. وهو هدف أدركه المواطن العادى مع كل مظاهر تخلفه بفضل وسائل الاعلام الجماعى.. فالفقر - كما قال نهرو - ليس بالشىء الجديد فى الهند وإنما الجديد هو الإنسان الهندى.. فالدساتير إذن ليست بعقود حوالة وعوار نبحث عن أساطين القانون لتسطيرها لنا.. ودساتير أوروبا نفسها التى نريد أن نستهدى بها قد ولدت فى إطار واقع سوسيولوجى وسياسى معين، وأشرف على ميلادها رجال كانت ذخيرتهم الكبرى هى الإدراك الواعى لواقعهم بكل امكاناته وقيوده.. ولذا فلم تكن تلك الدساتير افرازا لفظيًا لما حفظوه عن كتب الغابرين.. دستور أمريكا صنعه الآباء المؤسسون جيمس ماديسون والاسكندر هاملتون وادمز وبنجامين فرانكلين.. ودستور فرنسا كان تعبيرًا عن صيحات الكميون، وجدأل اليعاقبة، وقيم الطهارة الكالفنية التى عاش فى كنفها جان جاك روسو.

الهلاك المطلق

.. وفى السودان قضيتنا - فى المبتدأ - هى قضية تطور الإنسان.. وفى سبيل هذا التطور يجب أن نحدد أنجع المناهج.. وأوفق النظم.. وفى اختيارنا لتلك المناهج والنظم لابد أن نسترشد بالتجارب الانسانية كلها استرشادًا واعيًا مميزًا.. فنظم الحكم لايمكن أن تعيش خارج الاطار السوسيولوجى الذى ولدت فيه.. إذن فالنقل والتقليد الأعمى لن يعود علينا إلا بالخراب.. والذى يعول على التقليد فيما قال الغزالى - يهلك هلاكًا مطلقًا..

دساتير الأسلاب والمغانم

ولاشك فى أن خبرتنا فى العشر سنوات التى خلت تنبؤنا بأن دساتير النقل الأعجف ـ وهى فى واقع الأمر دساتير الأسلاب والمناصب لأنها لاتعنى بشىء غير أجهزة الحكم التى لا تعنى بدورها غير القلة التى نمثلها نحن الصفوة المنتفعة.. قلت إن دساتير كهذه لن تقيم إلا دولة كدويلات بنى الأحمر.. ماقامت منها واحدة إلا لتهوى... ألقاب مملكة فى غير موضعها.. ولن تخلق إلا حكامًا كحكام بنى العباس فى آخريات أيامهم وقد تهالكوا على النار.. حكامًا مثل أولئك الذين قال فيهم دعبل شاعر العلويين المبدع وصوتهم الصداح غداة خلع المأمون وبيعة إبراهيم بن المهدى:

نعق ابن شكلة بالعراق وأهله ... فهفا إليه كل أخرق مائق

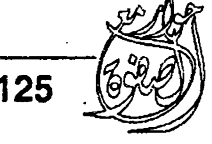
انى يكون . ولايكون . ولم يكن ... يرث الخلافة فاسق عن فاسق

التحول الجذرى ضرورة

إن النظام الذى ننشده يجب أن يكون نظامًا يرتكز على الترابط الوثيق بين الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية.. ويجب أن يكون نظامًا يمكن الدولة من تحقيق التحول الجذرى المرغوب فى المجتمع.. ويجب أن يكون نظامًا يضمن الديمقراطية الحقيقية لا الشكلية التى هى فى واقع الأمرحماية شرعية لكل أنواع التسلط القبلى والطائفى والبرقراطى.. وهذا لايتم بالنقل.. ولن نجد له جوابًا عند مونتسكيو.. فلنتعلم إذن مرة واحدة أن نكون أصليين.. لنتعلم مرة واحدة أن نكون مبدعين.. لنتعلم مرة واحدة أن لانكون طفيليات فكرية تعيش على اجتهاد الغير..

السودان يعيش أزمة حضارية

إن السودان يعيش اليوم أزمة حضارية.. وأشير هنا إلى الحضارة بمعناها الأنثربولوجى الشامل.. أزمة تتبدى مظاهرها فى القيادات.. وتتبدى فى المؤسسات.. وتتبدى فى القيم والأخلاقيات.. فمجتمعنا ـ كما أسلفت ـ مجتمع بدوى متخلف، إلا



أن الدولة التى تحكمه دولة عصرية أو نريد لها أن تكون.. وفى وضع كهذا لا معدى من الارتجاج الاجتماعى مالم نستطع أن نطوع المجتمع التقليدى لقبول المؤسسات الجديدة والقيم الجديدة تطويعًا علميًا وموضوعيًا.. وفى وضع كهذا لا تستطيع المحافظة على الدولة العصرية والتمكين لها لكى تنمو وتتطور ما لم تفلح فى القضاء على كل الجوانب السلبية فى قيم وأخلاقيات المجتمع التقليدى.. وهنا يجىء دور الفكر الأصيل فى حل هذه المعادلة الصعبة.. إما أن نظن أن الاستقرار آت لاريب فيه لأنا أقمنا خدمة مدنية على نسق هوايتهول... وأقمنا برلمانا على نسق وستمنستر فهذا دليل على سذاجة فكرية مابعدها سذاجة.

إن العمل الذى لايصحبه فكر سياسى إنما هو تخبط وتهريج...

والزعامات التى لا تملك الأحلام الكبار للمجتمع الذى تقوده إنما هى زعامات فاشلة فارغة.. وقف ماديبو كيتا ـ ابن أفريقيا الرشيد ـ ليقول لمثقفى مالى «اجمعوا أمركم وكونوا أوفياء لتراثكم.. ولتحلموا أحلامًا كبارًا لبلادكم.. فليس هنالك من عمل عظيم لم يسبقه حلم كبير.. فالآمال لا تخدع.. الإنسانية لن تحقق الكمال مالم تتمناه.. ومالم ترغبه..» وأتهم متحدث بن بلا بأنه رجل حالم.. فاجابه الرجل:

«ما كنا لنثور لو لم نكن نحلم».. إن تجربة عقدين من الزمان فى العمل السياسى المنظم بالسودان قد تميزت بظاهرة واحدة هامة.. هذه الظاهرة هى عقم الفكر السياسى. فالعمل السياسى العظيم الذى تم فى معركة التحرير الوطنى والذى توج بالاستقلال.. لم يكن يواكبه عمل فكرى يحدد خط السير.. يرسم المنهج.. يبين الطريق.

فى هذا الجو الفكرى العقيم ولدت الأحزاب السياسية وكان طبيعيًا أن تنحرف لتصبح واجهات أو بديلاد، ممسوخة للطائفية والقبلية.. أقول بديلا ممسوخًا لأن الأحزاب قد أخذت من الطائفية كل جوانبها السلبية ولكنها لم تأخذ شيئًا واحدًا من الجوانب الإيجابية فيها.. فالطائفية والقبلية تمثلان نظامًا اقتضته مرحلة التطور

الاجتماعى ـ ويجب هنا أن نفرق بين الطائفية والقبلية كمؤسسات اجتماعية وبين استغلال هذه المؤسسات لأهداف سياسية أو اقتصادية مغينة..

جوانب ايجابية

أقول إن الطائفة أو القبيلة كأى كائن اجتماعى لها قانونها.. ونظمها.. وأخلاقياتها.. فهناك التسلط الفردى فى القيادة.. وهناك الطاعة المطلقة فى القاعدة.. وهناك الامتيازات للزعيم أو الشيخ.. وهناك التكافل والتآزر الاجتماعى بين التابعين. بيد أن القيادة ـ لاسيما القيادات الطائفية ـ كانت قيادات خلقية ولذا فهى لم تلجأ فى معاملتها مع أنصارها إلى الدسن، والمخاتلة والتمويهات.. وكانت الزعامة زعامة أبوية فهى بالضروة زعامة عادلة بين الأبناء.. لا تلجأ لفرض سيطرتها وسيادتها إلى ضرب البعض بالبعض وكانت الحدود بين الطوائف حدودًا واضحة المعالم لأن هنالك أسسًا فكرية ووجدانية معينة تحدد الالتزام الطائفى..

وبمولد الدولة العصرية وبروز القيم الجديدة كان لابد للطوائف أن تختفى.. وكان لابد للقبلية أن تختفى كمؤسسات سياسية مناسبة.. وكان لابد من خلق أجهزة سياسية عصرية تناسب متطلبات الدولة الحديثة.. فكانت الأحزاب.. ولكن عقم الفكر السياسى جعل من هذه الأحزاب اطارًا عصريًا لتجمع طائفى.. أصبحت الأحزاب السياسية امتدادًا للصراع الطائفى والقبلى القديم.. أصبحت واجهات للطوائف.. وهو أمر ما كان ليتم لو كان هنالك فكر.. ولو كان هنالك ابداع.. ولو كان هنالك إدراك علمى لطبيعة المجتمع ولأحكام العصر..

طوائف ممسوخة

ولكن الكارثة الكبرى ليست فى طائفية الأحزاب بقدر ماهى فى أن الأحزاب أصبحت مسخًا للطوائف.. فالحزبية طائفية بلا أخلاقيات الطائفية .. والحزبية قبلية بلا تكاتف أو تكافل القبلية.. فالأحزاب عرفت الزعامات الفردية دون

مسئوليات تلك الزعامات، كالعدالة والارتفاع عن صغائر الخلافات والخصومات بين الأتباع والابتعاد عن السلوك الذى يشين لأن كل رأسمال الزعامات الطائفية ومصدر طاعتها الأساسى هو تميزها الخلقى.. أقول تميزها لأنه حتى المفسدين من زعماء الطوائف والقبائل كانوا يحرصون بالرغم من كل مالهم من سلطان. على ممارسة فسادهم بعيداً عن أعين الرقباء وهذا فى حد ذاته نوع من أنواع الحياء النسبى والحنشية الجزئية.. وشعور التعاضد الطائفى والتكافل الاجتماعى القبلى الذى كان يقوم على الحدود الواضحة بين القبائل والطوائف قد اختفى وما كان ليختفى لو كانت هنالك حدود فكرية واضحة والتزام وجدانى عميق بين الأحزاب.

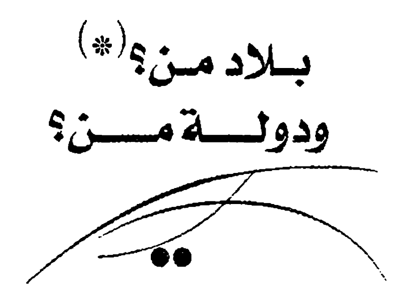
ومضت عشرون سنة.. دخل فيها العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين.. غزا أهلوه - كما قلت فى مناسبة سابقة - غزا أهلوه السماء، واخترقوا الفضاء، ودخلوا - على أبراجها - الجوزاء .. وتغير وجه الحياة السياسية فى الإقليم الذى نعيش فيه.. وأدرك انسان النصف الثانى من القرن العشرين أن لاتقدم بلا علم.. فالاقتصاد علم.. والسياسة علم.. والبناء الوطنى علم.. حتى الدين ابيح لنفس الادعاء بأنه قد أصبح علماً - على يد البابوية الجديدة.. يوحنا الثانى والعشرين من بعده بولس السادس.. أدركا أن لامكان للدين فى مجتمع القرن العشرين مالم ينفض عن نفسه غبار القدم ومالم يدخل فى حلبة الصراع العصرى المستعر.. مالم يدل برأيه فى قضايا الاستعمار، والسلام العالمى والتنمية الاقتصادية، والانفجارالسكانى.. وإن حوار المجمع المسكونى قبل عامين لدليل على الروح العلمى الذى بدأ يبرز بين الكاثوليك - أكثر الأديان محافظة - والذى جعل البابوية تناقش فى موضوعية هادفة كل شىء حتى الماركسية فى محاورات مجمعها المسكونى وبصورة حازت الإعجاب حتى من بعض الماركسيين - أشير هنا - على وجه التحديد - إلى مقالات روجيه جارودى أعمق مفكرى الماركسية المعاصرة فى فرنسا..

فى هذا العالم الذى يثب وثبا نحو غده المأمول يعيش أهل السودان فى بلقع فكرى.. فلا مشاحة إذن فى أن يظل العمل السياسى فى الكيانات التقليدية القائمة

امتدادًا للصراع القديم بين الشوقست والفيلست حتى عامنا هذا.. عام ثمان وستين وتسعمائة وألف.. يصدق هذا بالرغم من كل ما نردده عن اليمين واليسار.. عن القديم والجديد.. عن مظاهر الاستقطاب السياسى المفتعل.. وفى حال كهذا يجد الناس أنفسهم أمام اختيار عسير مضن.. فالاختيار بين الكيانات القائمة ليس اختيارًا بين الحسن والأحسن.. ولا اختيارًا بين الحسن والسىء... ولا اختيارًا بين السىء والأسوأ.. إنما هو ـ فى واقع الأمر ـ اختيار بين الكارثة والفجيعة.

■ ■ ■

بلاد من؟(*)
ودولة من؟



المبادىء السياسية ليست أفكارًا تجريدية، وليست شعارات خالية من المحتوى وإنما هى - قبل كل شىء - منهج، والتزام، وأسلوب حياة،، فالمبادىء السياسية التى لاتخرج عن اطار الميتافيزيقيا والجدلية العقيمة لاتعدو أن تكون ضربًا من التهريج أو فى أحسن حالاتها لونًا من ألوان الترف الفكرى الذى يمارسه المثقفون وأشباه المثقفين.

وقد ظلت شعوب عديدة من العالم الثالث ترزخ فى الأعوام الأخيرة تحت اسار قيادات سياسية تغذيها بالشعارات التى لاتخرج عن إطار التجريدات ولاتمس حيوات الناس وواقعهم المعاش.

ومثل هذه الشعارات التى لاتقوم على المجابهة الصريحة، والحوار الواعى، ولاتنعكس أخلاقياتها فى تصرفات القيادة ومسلكها العام والخاص. بل وتخلق لدى الشعوب تطلعات نحو أهداف عصية التحقيق.. مثل هذه الشعارات تنتهى دومًا بكفران الناس بالمبادىء نفسها، واستجابتهم لمنطق ردود الفعل ومايصحبها من تخاذل وخذلان.. وأسلوب كهذا فى العمل السياسى يفتقد أهم مايجب أن تتميز به القيادات السياسية ألا وهو المسئولية. فالمسئولية، فيما يقولون، هى الحد الوحيد للحرية السياسية والممارسة السياسية.

الالتزام بالمسئولية التزام خلقى

وواقع الأمر أن أكبر الأزمات التى يعانيها العالم الثالث اليوم هى أن أقل عناصره إدراكًا لمستلزمات المسئولية الوطنية عقب الاستقلال هى الصفوة والالتزام بالمسئولية هنا ليس

(*) الأيام: ١٩٦٨/٢/١١



التزامًا سياسيًا أو تنظيميا فحسب وإنما هو بالمكان الأول، التزام خلقى. بيد أن موقف عدم الالتزام هذا إنما هو نتيجة حتمية للوضع الذى وجدت الصفوة نفسها فيه.

فالصفوة هى حاملة راية التحرير الوطنى.. وهى ناشرة لواء العدالة الاجتماعية والممارسة الديمقراطية.. إلا أنها فى نفس الوقت هى الوريث المباشر والوحيد للحكم الأجنبى وامتيازاته.. وفى الغالب الأعم لامتيازاته دون مسئولياته.. ولذا فإن لم تستطع الصفوة القسوة مع نفسها فى الحساب فستنتهى بالضرورة إلى الإنحراف.. والإنحراف ظاهرة طبيعية لأن الإنسان بطبعه هلوع يعشق المتعة، ويحب الدعة، ويجفل من البذل باستثناء العصبة أولى العزم.

والذى ينظر إلى الوضع الاقتصادى الذى ينحدر من سىء إلى اسوأ فى الكثير من بلاد أفريقيا الناشئة.. وينظر إلى الفوارق الطبقية المريعة التى بدأت تطل بوجهها الكالح ليدرك ما أعنى... وفى الصورة القاتمة التى رسمها البروفسير رينيه دومونت فى كتابه «أفريقيا تتنكب الطريق» والذى ظل حديث الإفريقيين والمتأفرقين خلال الأعوام الأربعة الماضية.. فى الصورة القاتمة التى رسمها دومونت نموذج لما يمكن أن تؤول إليه الأحوال على يد الصفوة ومن قبل دومونت كتب محمدو ديا السياسى السنغالى المعروف يحدثنا عن مخاطر البرجوازية الجديدة - برجوازية الصفوة - فيقول «فى إطار البروقراطية الجديدة أخذت برجوازية جديدة تطل على المجتمع الأفريقى.. أنها ليست ببرجوازية المغامرة والفتح والعمل التى قادت أوربا إلى مرحلة الإنطلاق وإنما هى برجوازية المثقفين الذين وصلوا نتيجة وضعهم الممتاز إلى مراكز القوة ولم بعد لهم من هدف بعد هذا إلا الحفاظ على المواقع التى استولوا عليها وتبديد أموال الجماهير فى الإنفاق عديم الجدوى».

صفوة السودان

والسودان.. شأنه شأن بلاد العالم الثالث الأخرى - أو أكثرها - لم ينج من هذه الظاهرة السلبية.. وهى سلبية تتبدى - كما أسلفت - فى الحرص على الابقاء على كل

الامتيازات الموروثة من الحكم الأجنبى ـ وتتبدى فى الانصراف نحو الإنفاق المبدد فى بلاد تحسب مالها بالدانق والسحتوت.. وتتبدى فى الإغفال التام للريف وتركيز كل مظاهر التطور والتجديد فى مراكز التجمعات الحضرية، بالرغم من أن الريف «هو المستودع الدائم للقيم التقليدية» التى يقف كثير من تصوراتها وممارساتها عقبة كؤودا فى وجه التطور الذى يقوده المجتمع القومى.

ولو تناول المرء مثلاً ظاهرة واحدة مثل ظاهرة الإنفاق المبدد لوجد هذا الإنفاق تمارسه وتمكن له نفس الطبقة والقيادات التى تتحدث عن التنمية والعدالة الاجتماعية، والتحول الاشتراكى... ولن يحتاج المرء لأكثر من النظر إلى احصائيات التجارة الخارجية التى تصدرها وزارة التجارة السودانية.. لن يحتاج المرء لأكثر من النظر إلى هذه الاحصائيات ليدرك صدق ما أقول... ولتنظر معى إلى هذه الأرقام التى تنقل صورة منتقاة من احصائيات التجارة الخارجية فى الخمس أشهر الأولى من عام ١٩٦٥.. فى خلال هذه الفترة بلغت قيمة ما استورده السودان من التبغ والمشروبات ٣٩١,٣١٥ جنيها يقابلها ٦٧٣,٦٩٠ جنيها لاستيراد الأدوية والمنتجات الصيدلية.. وبلغت قيمة ما استورده السودان من سيارات النقل المشترك ١٧٠,٥٦٨ جنيها يقابلها ٣٤٤,٠٦٤ للسيارات الخاصة.. وبلغت قيمة ما استورده السودان من الآلات الزراعية (وهذا يشمل آلات تحضير التربة، والحصاد والجرارات وصناعة الألبان) ٢٦٧,٥٨٤ جنيها يقابلها ٥٥٥,٣٣٧ لاستيراد الفواكه من أمريكا والملايو والمريه من إيطاليا وبلجيكا والدنمارك وبولندا والبطاطس من هولندا وألمانيا وقبرص وإيطاليا وهذا عدا ١١,٦٠٩ جنيها لاستيراد البسكويت نعم البسكويت.... تالله لقد ظلم مدرسو التاريخ فى مدارس السودان مارى انطوانيت ظلما فادحا وفى ذراهم ماريات كثر...

وينتقل المرء للخمس أشهر الأولى فى عام ١٩٦٦ ليجد أن قيمة ما استورد من التبغ والمشروبات خلال هذه الفترة قد بلغ ٢٣٠,٨١٣ جنيها وانخفض قيمة ما استورد

من الأدوية والمنتجات الطبية إلى ٥٧٢,٣٠٧ جنيها.. وبلغت قيمة ما استورد من العطور ومستحضرات التجميل ١٤٠,٨١٤ جنيها..

وما استورد من الخضروات والفواكه ٢٣٥,٣٣٦ بجانبها ٢٨٠,٦٧٢ لمنتجات الألبان.. وما استورد من السيارات الخاصة بلغت قيمته ٤٤٣,٦٦٩ جنيها مقابل ٥٦,٤٩٧ جنيها لوسائل النقل المشترك.. أما البسكويت فقد بلغت قيمته ١٨٣,٠٧٤ جنيها.. وحرصا على جلب السعادة لشعب مارى انطوانيت هذا فقد ذهبنا لاستيراده من هولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وألمانيا، والدنمارك، وهنغاريا، واستراليا والصين.

عشرة فى المائة

وراء هذه الأرقام المزرية يكمن جانب كبير من مأساتنا، والسر فى مأساتنا.. السودان الذى تبلغ مساحته مليونًا مربعًا من الأميال.. ويشقه أكبر أنهار العالم.. أو لأقل خشية من حساسية مدرسى الجغرافيا.. أكبر أنهار العالم بعد المسيسبى - ميسورى.. بلد هذا حاله يستورد خلال خمس أشهر من الفواكه والخضروات ما تربو قيمته على نصف المليون من الجنيهات.. أى ضعف ما أنفق لاستيراد الآلات والمعدات الزراعية.. وقائمة الواردات التى أشرت إليها كلها وبلا استثناء لا يستهلكها أكثر من ١٠ فى المائة من أهل السودان.. هذه العشر فى المائة هى نحن دعاة التجديد.. حماة الديمقراطية.. رافعو راية العدالة الاجتماعية.

لنتناول الظاهرة الثانية.. ظاهرة الانفصام الضار بين أهل المدن وأهل البادية.. بين الريف والمدينة.. وظاهرة الانفصام هذه ظاهرة قديمة منذ أن برزت المدينة فى الكيان السودانى.. وقد ظلت المدن فى السودان الحديث تتطور بصورة أخذت معها المدن تبدو كبثور غريبة طارئة فى جسم الأمة.. فبحكم نفوذها الاقتصادى، ووضعها السياسى وامكانياتها الثقافية فرضت المدينة نفسها على بقية أجزاء القطر فرضا.. وهو فرض لم تصحبه المحاولات العلمية الجادة لإحداث التغيير الحضارى الضرورى الذى يجعل من المجتمع القومى كله وحدة فكرية واقتصادية.. وقد أدرك المستعمرون

فى الماضى أخطاء هذا الانفصام سيما وهم يدركون أن المدينة شىء جديد طارئ فى المجتمع الأفريقى.. ما كتبه اللورد لوقارد والسير دونالد كاميرون من غرب أفريقيا يشير إلى هذا.. وتقرير لجنة ديلاوار عن السودان تشير إلى هذا.. إلا أن معالجة الاستعمار لهذه الظاهرة كانت ـ بالضرورة ـ معالجة فى اطار الوضع الاستعمارى وكانت تستهدف حماية المصالح الاستعمارية.. أشير هنا ـ على وجه التحديد ـ إلى ما ذكره السير دوقلاس نيوبولد فى فبراير عام ١٩٣٩ والتى قال فيها بأن الطريق لانهاء هذا الانفصام بين الريف والمدينة لن يتم إلا بفتح أبواب المدارس الأولية والوسطى لأبناء القطر.. وفتح أبواب المدارس الثانوية لأبناء نظار العموم.. وادخال بعض عناصر «الأفندية فى المجالس الريفية.. وتدريس التربية الوطنية فى المدارس الثانوية.. وانشاء مدارس للتعليم الريفى فى بعض المدن.. وتوسيع آفاق «الأفندية» باتاحة الفرصة لهم للخروج إلى مراكز التجمع الريفى.. واستبدال الإدارة الأهلية بالحكم المحلى الذى يمكن آن يشمل، على حد قول نيوبولد، سلطنة دار مساليت بجانب مجلس بلدى بورت سودان..

وجاء الحكم الوطنى..

نعم لقد أدرك الاستعمار هذه الظاهرة الخطيرة ومضى يحللها بمنطقه وبفهمه ويحاول حلها وفق أهدافه.. وجاء الحكم الوطنى.. وجاء معه المثقفون الذين أسماهم السير دوقلاس بالأفندية يشقون طريقهم صعوداً إلى دست الحكم فى اطار سياسى واجتماعى جديد، وفى الإطار الجديد لايختلف اثنان ـ أو يجب أن لايختلفا ـ فى أن الهدف الرئيس لأية حكومة.. لأى نظام.. لأى خطة سياسية.. هو تحقيق الوحدة الوطنية، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية. وهذان الهدفان لايمكن تحقيقهما فى أى وضع يغفل المجتمع الريفى فلا وحدة وطنية بلا ريف، ولا تنمية بلا ريف... فالمشكلات التى تعانى منها المجتمعات المتخلفة مكانها فى الريف، وموضوعها الإنسان الريفى، وغاية التنمية هى تحويل الريف إلى مراكز انتاجية حديثة، وتحويل الإنسان الريفى إلى

انسان قومى ينفعل بالأحداث التى تدور فى المجتمع القومى، ويتحرك معها ويسهم فيها بحيث تتفق فى الوحدة القانونية والسياسية للوطن أو المجتمع القومى وحدة اجتماعية، واقتصادية، وفكرية.. ويتم التفاعل بين الريف والمدينة فلا تظل المدينة معدة نهمة وخزينة طامعة، وسلطة باطشة والريف مزروعة قانعة، وضريبة متصلة وذلا مقيمًا...

صلة غوغائية فقط..

وقد ظلت الأرياف بالنسبة للقيادات السياسية فى السودان مستودعًا لاستجلاب الناخبين والهتافة.. وظلت بالنسبة للقيادات الادارية منفى لغير ذوى الحظوة.. والصلة الوحيدة التى ظلت تقوم بين التنظيمات السياسية والأرياف صلة غوغائية.. صلة الليالى السياسية العابرة، والحشود المصطنعة، والخطابيات المعادة عن الحرية الحمراء واليد المضرجة.. أما الحوار.. أما التوعية.. أما الوجود السياسى الدائم فلا مكان له فى قواميس الأحزاب..

إننا نتحدث اليوم عن الديمقراطية، وحكم الشعب، والاشتراكية ومجتمع الكفاية، والتنمية.. وكل هذه الأفكار غيبيات عند الرجل الريفى. ولايمكن له أن يستجيب لها، ويتفاعل معها مالم تكن هناك توعية، ومالم تكن هناك إبانة، ومالم يكن هنالك ترشيد، توعية وابانة و ترشيد تعرف الإنسان الريفى بأن هذه الأفكار إنما ترتبط ارتباطًا عضويًا بواقعه وحياته.. بل هى قدره ومصيره وحياته.. ومثل هذه التوعية لايمكن أن تتم بالانشائيات ولا بخطابات الليالى السياسية العابرة.. ولا عن طريق لجان التشريفات الفرعية التى تضم التجار وباشكاتب المركز، وشيخ المركز، وفضيلة قاضى الشرع وكل من توفر فى الأقليم من أرباب المعاشات..

إن القيادات الرشيدة فى العالم الثالث هى تلك القيادات التى أدركت أن التغيير الحضارى لايتم إلا بالانتقال بالحركة السياسية إلى مراكز التخلف.. وبمحاربة الانحراف لدى الصفوة.. المعلم جوليوس نيريرى زعيم يمكن أن يتعلم منه ساسة أفريقيا الكثير فى هذا الميدان.. لقد ترك نيريرى مركزه كرئيس لحكومة تنجانيقا

غداة الاستقلال تركه لرشيد كاواوا وذهب طواعية إلى الريف ليعيش مع أهل تنجانيقا عاما كاملا يدرس أحوالهم، ويدرسهم أفكاره، وذهب، على حد قوله، ليشرح لهم معنى الشعارات التى بدأ ينادى بها فى دار السلام.. الاشتراكية.. الحياد الإيجابى.. محاربة العنصرية والاستعمار.. التنمية الاقتصادية..

مقررات أروشا

وعاد نيريرى ليقيم دولته الجديدة ومن ورائه شعب يتفاعل معه.. وبدأ خطوته الثانية فى تنظيف داره وتطهيرها بدأها بمحاسبة القيادة والصفوة .. وكانت مقررات أروشا فى مطلع العام الماضى.. التضحيات والمحاسبة تبدأ فى أعلى المستويات.. أعضاء الحزب.. أعضاء البرلمان.. الوزراء.. كبار الموظفين.. قادة النقابات المهنية والعمالية.. فالقيادة التى لا تحاسب الأقوياء لايحق لها أن تحاسب الضعفاء.. والقيادة التى لاتفرض التضحيات على القادرين لا تملك أن تفرضها على المساكين.

بلاد من؟

إن لمن المحزن حقا أن يستمع المرء إلى الأصوات التى ترتفع كل يوم حول فقدان المسئولية عند العامل والزارع الذى يطالب بالمزيد غير عابئ بالضنك الذى تعانيه البلاد .. من المحزن حقا أن تلك الأصوات لاتقف لحظة لتتساءل.. بلاد من؟ إن فالح الأرض فى الجزيرة الذى يدر على السودان ستين فى المائة من عائد استيراده من حقه أن يتساءل عندما يرى هذا العائد ينفق انفاقًا طفيليًا مبددًا لا فى استيراد الآلات الانتاجية وتحسين الخبرات بل لاستيراد العطور والسيارات الخاصة والبسكويت.. وعندما يرى أن بلاده تنفق فى استيراد التبغ والمشروبات مايقارب انفاقها فى استيراد الأدوية والمستحضرات الصيدلية فى الوقت الذى يفتك فيه وباء بدائى مستوطن كالبلهارسيا بأهل أقليمه.. من حقه عندما يرى كل هذا أن يسأل الذين يتحدثون عن التضحية من أجل البلاد ومن أجل الدولة.. بلاد من؟ .. ودولة من؟ إن التضحيات إن كانت هناك تضحيات يجب أن يبدأها القادرون.

وواقع الأمر أنه ليس هناك من تضحية.. وإنما هنالك دين مستحق طال أمد سداده.. فالامتيازات التى ورثناها من الاستعمار لم نرثها إلا لمركز ممتاز، والمركز الممتاز لم ينحدر إلينا من آبائنا من آل بوربون وآل هابسبرج وإنما حصلنا عليه نتيجة مانلناه من تعليم.. والتعليم ما كنا لنناله لولا التضحيات التى قدمها شعب السودان ليمكن لأبنائه المعرفة.. ولا أظن أن هنالك بين شعوب الأرض شعبا انفق بقدر ما انفق شعب السودان ليعلم ناشئته.. لقد رسم نيريرى صورة رائعة للمثقف الأفريقى الذى يجفل من التضحية فى سبيل مجتمعه.. «مثله مثل الرجل الذى جمعت له القرية كل مالها وأرسلته ليأتيها بطعامها فذهب ولم يعد».

حديث لعبد الناصر..

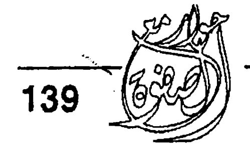
وتحدث عبد الناصر فى مطلع العام الماضى إلى مثقفى مصر بمناسبة عيد العلم حديثا ما أجدرنا بأن نعيه وما أجدر قادتنا بأن يرددوا مثله.. قال: «فليتحول كل مثقف بما أخذه إلى مصدر عطاء للذين أتاحوا له، ومكنوه، وحققوا امتيازه وإلا فهو شجرة عقيمة، عاشت من الأرض، وارتوت بعرق السواعد، واحاطتها الرعاية بكل أنواعها، وامتلأت بشعاع الشمس ثم لم تعد فى النهاية زهرًا، أو ثمرًا أو ظلاً».

لقد قلت فى مطلع هذه المقالات أن السودان قد شهد فى الإمام المهدى المفكر السياسى الأصيل الأول والأخير.. وأضيف اليوم بأن السودان قد شهد فيه أيضا الزعامة السياسية الوحيدة التى أدركت أن قيادة أى مجتمع نحو الأخير لابد أن تكون قيادة خلقية.. وأن المجتمع الطاهر لايمكن أن يقوم مالم تتطهر القيادة.. وأن العامة لن تصلح مالم تصلح الصفوة وأن البذل والتضحية يصبحان عنتا واقتسارًا مالم يفرضا على القادرين قبل جمهرة الكادحين.. كتاب الإمام لمحمد الخير عبد الله خوجلى حول غنايم برير لسفرعظيم جدير بحكام السودان الجديد أن يقرأوه فى غمرة حديثهم الدائب عن الفضيلة والخير.. والصلاح فى دولة لايخلو جهاز واحد منها من الفساد.. ولا تخلو دائرة واحدة فيها من المفسدين «إنك جدير بعظمة ماعند الله، وخسة ما فى

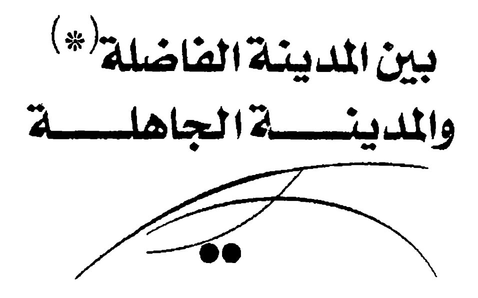
الدنيا وإن كثر.. وقد تعلم أنها لاتعلو همة أحد فى الجهاد فى هذا الزمن لاكتساب شىء من خسيس الدنيا الفانية غير الترك الكافرين، وأعوانهم الكاذبين الضالين، ومن نحا نحوهم من الأغبياء والمنافقين الداخلين فى وعيده تعالى. (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإذا أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) أعيذ نفسى واياكم والمسلمين ممن هذا حاله».

ومثل هذه القيادة التى تبدأ محاسبتها فى القمة.. والتى تحاسب الكبار حتى على الدوانق هى القيادة التى تجسر على دعوة الشعب للبذل والتضحية، .. وأسلوب كهذا فى التوجيه سينتهى بالضرورة إلى تعميق معنى المسئولية الوطنية لدى الذين يتصدرون أمور البشر.. ولذا فقد شهدنا يوم ذاك كيف أن الصفوة الحاكمة أخذت تعامل الملكية العامة ومال الأمة بحساب يشبه التقديس.. رسالة الأمير عبد الرحمن النجومى وحمدان أبو عنجة إلى المهدى لشهيد على ذلك.. «إننا حضرنا بجهة مندر وإن إخواننا الفقراء لما رأينا مأكولهم البليلة أذناهم بتعاطى قليل من البصل والويكة والسمسم. وقد رأينا ذلك غير مخلص عند الله تعالى بلا رفع الأمر لسيادتكم.. وحيث أن الأخوان حاصل لهم التعب.. ومعنا ابقار قليلة التزمنا بتحرير هذا العرض لسيادتكم راجين الأذن فى راحة الأخوان.. وأن تبينوا لنا الجائز تعاطيه منها والممنوع لسلوك طريق الرشاد».. رسالة بسيطة فى تعبيرها.. ساذجة فى تقريرها.. إلا أنها تفيض نبلا، وثورية ومسئولية.. ورد الإمام عليها درس آخر فى المسئولية والوطنية: «أسأل الله أن يجزيكم ويعطيكم أحسن الجزاء والثواب. وأن يجزيكم عنا وعن دينه والمسلمين خيرًا واحسانًا، ويكفيكم شرا وامتحانًا. فشدوا على ذلك وزيدوا فيما هنالك مما تكرمون به عند الله وتفوزون به إلى الدرجات العلى وتدخلون به مع الملأ الأعلى. أما البصل والسمسم والويكة وغيرها من المأكولات فجائز للمجاهد أن يأخذها بضرورة من غير ادخار وتمول».

■ ■ ■



بين المدينة الفاضلة(*) والمدينـــة الجاهلـــة



بدأت حديثى بالقول بأن الفكر السياسى لكيما ينمو لابد له أن يكون أصيلا وضاربًا بعروقه فى أعماق التربة الوطنية.. ولكيما يزدهر لابد له من أن يكون عصريًا ومنفتحًا على الفكر الإنسانى كله وقلت أن «العلمية» قد أصبحت السمة المميزة لكل المناشط الإنسانية فى النصف الثانى من القرن العشرين.. كان فى ذلك الأفكار أو فى الأساليب.

فى اليمين

إن أية نظرة عابرة يلقيها المرء اليوم على الكيانات السياسية والتنظيم السياسى المعاصر لتصور مدى هذا التغيير الذى اقتضته ضرورة التجديد.. يستوى فى ذلك المحافظون والمتطرفون.. ويستوى فيه السلفيون والمستقبليون، حتى العناصر التقليدية قد قبلت، راغمة، الرضوخ لمنطق العصر وأسلوبه، حزب المحافظين البريطانى نموذج قريب لهذا.. فالصراع المستمر الذى ظل يدور فى أروقة الحزب خلال العقد الأخير كان فى أساسه صراعًا بين جيلين: الجيل الجديد الذى يؤمن بسياسة الحوار.. وديمقراطية رجل الشارع ونهاية الامبريالية العتيقة وافلاس منطق العهد الفكتورى.. والجيل القديم الذى يؤمن بعلائق الأندية.. والكليات.. وحلبات سباق الخيل.. فى اسكوت ونيو ماركت.. صراع وصفته الصحف البريطانية بالصراع بين جيل الحرب العالمية الأولى: ايدن، وماكميلان، وهتلر، وهيوم، وجيل مابين الحربين حيث ايان ماكلاود، وهيث، وانتهت

(*) الأيام: ١٢/٢/١٩٦٨



المعركة فى بريطانيا التقليدية بل فى أكبر قلاع المحافظة فيها بانتصار جيل الأسلوب الجديد على جيل الياقات المنشاة والأفكار المنشاة.

وفى فرنسا أدرك اليمين أن معركته فى عالم الأيديولوجيات والإحصاء الدقيق والتخطيط الصارم لايمكن أن يقودها ساسة الانشائيات الخطابية... وكان هذا سببا فى بروز الساسة التكنقراطيين.. والقوة الحقيقية التى توجه فرنسا اليوم جيسكار ديستان.. ليكانيويه.. بيرفت.. كابتان.. وفالون..

وفـى اليســار

وفى أقصى اليسار يجد المرء نفس الظاهرة فى الاتحاد السوفيتى.. ظاهرة الإدراك بأن جيل المجتمع التكنى لابد أن يحكنه اناس يدركون ماهية التكنية.. وفى هذا الاطار يجب أن نفهم اختفاء كل وجوه الثورة الأولى.. آخرهم ميكويان الذى خرج فبل عام وبضع عام مكرمًا بأعظم أوسمة الدولة.. ويمكن أن نفهم انتقال القيادة لرجال مثل المهندس كوسيجن الذى يسميه خبراء السوفييت فى أمريكا بالعقل الالكترونى الشيوعى.. نسبة لايمانه الصارم بمبدأ التخطيط العلمى والتحليل الاحصائى.. حتى آخر معاقل المحافظة فى الاتحاد السوفيتى.. الجيش الأحمر لم ينج من ظاهرة التجديد هذه بعد وفاة قوميساره الجبار المارشال مالو نوفسكى.. فقد كان من أ كثر ما أثار اهتمامى من تعليق عقب وفاة مالو نوفسكى فى مطلع العام الماضى مقال نشرته الأزفستيا حول طبيعة الدفاع فى هذه المرحلة فى تاريخ العالم التى تقتضى أن نترك أمور الجيش والاستراتيجية والعتاد للعلماء.. للباحثين العلميين والمهندسين والإخصائيين والكيماويين.. وهو مقال يذكر المرء بقوله كليمنصو المشهورة عن جنرالات الحرب الأولى.. «إن الحرب لأكثر بكثير من أن تترك للجنرالات».. الحوار الخطير الذى بدأته الأزفستيا انتهى بالطبع إلى انتقال الجانب الأكبر من السياسة الاستراتيجية الدفاعية السوفيتية من أيدى الجنرالات إلى يد ديمترى

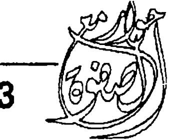
استنوف وزير العتاد الحربى وهو أيضا من جيل المهندسين الجدد الذين ارتقوا المراتب العليا فى الجهاز الإدارى السوفيتى.

الأذكياء والحمقى

وفى بلد كالسودان نصفه متخلف بقرن وبضع قرن وراء حضارة العصر.. ونصفه الآخر بدائى راكد لم يصل بعد إلى مرحلة التخلف تصبح الحاجة أشد إلى الانفتاح الواعى نحو الأفكار والتجارب الانسانية كلها.. ولكن .. مأساتنا أن أجهزتنا السياسية، لا تستطيع بحكم تكوينها وتاريخها أن تستجيب لمنطق العصر أن تتحدث بلسانه. فهى تنظيمات تعيش فى اسار الصراع الشخصى وبالتالى فى نطاق الأحكام الذاتية.. والعلم لايمكن أن يكون ذاتيًا فى تقييمه لأن العلم بالضرورة موضوعى.. والسياسة التى لاتقبل الموضوعية ولاتفكر إلا فى اطار مطامح الأشخاص، ونوايا الأشخاص واحقاد الأشخاص سياسة حمقاء.. فالأذكياء، فيما يقال يناقشون المبادئ وأوساط الناس يناقشون الأحداث، أما الحمقى فيناقشون الأشخاص.

الحركة العمالية فى السودان

ليست فقط حمقاء هذه السياسة بل وهى سياسة تفتقد الفعالية لأن المقياس الوحيد لنجاح أية سياسة فى البلاد النامية هو قدرتها على دفع عجلة التطور والانطلاق بالثورة الحضارية فى المجتمع.. وهى قدرة لا تتأتى لنا إلا مع العصرية فى الأسلوب والعصرية فى التفكير.. وفى هذا الشأن تستطيع نقابات العمال أن تعلم الأحزاب الكثير. فالحركة العمالية السودانية يميزها عن الاحزاب انتهاجها للمنهج التنظيمى العصرى وهو أمر ساعدها على النمو والتطور.. والتنظيم المؤسسى الحديث.. الاتصال الدائم بين القاعدة والقمة.. الحوار الدائب بين الرؤساء والمرؤوسين عن طريق النشرات وحلقات النقاش والبيانات.. المحاسبة الدائمة للقيادة.. الانتخابات الدورية للأجهزة.. التفاعل الواعى مع الأحداث المحلية والأقليمية والدولية.. التضامن مع المنظمات ذات الأهداف المشتركة أو المتشابهة.



ولا أريد أن أذهب فى استعراض الظروف الموضوعية التى واكبت نمو الحركة العمالية فقد فعل هذا قبل أكثر من عشرة أعوام الصديق العالم الراحل الدكتور سعد الدين فوزى ـ طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه..

أريد أن أقول أن من حسن حظ الحركة النقابية إنها لم تقع فى أسار القيادات التقليدية وإلا لانتهت إلى شىء أشبه بحزب العمال المصرى برئاسة النبيل عباس حليم واللواء محمد صالح حرب.. لانتهت إلى تنظيم انتهازى هدفه استجلاب الهتافة من المناطق الصناعية.

قوة ذات وزن

أما الآن فقد استطاعت الحركة العمالية السودانية أن تثبت وجودها كقوة ذات وزن فى المحيط السياسى والاجتماعى السودانى.. وأن تثبت وجودها كقوة يمكن أن تسهم فى اخصاب الحركة العمالية العربية والأفريقية ... بل وأن تسهم بدور فعال على النطاق العمالى العالمى.. استطاعت أن تفعل هذا فى الوقت الذى عجزب فيه كل الأحزاب التقليدية من أن تلعب أى دور فى التربية السياسية لانصارها على الصعيد المحلى وفى الاخصاب الفكرى لدعوتها على الصعيد الاقليمى.. عربيا كان أم أفريقيًا.. ولم يكن فى الأمر غرابة لأن الأحزاب منذ نشأتها لم تكن بتنظيمات تقوم على فكر.. أو منهج.. يصدق هذا عليها بالرغم من أن الأحزاب تضم الكثيرين من المثقفين الذين لاينقصهم الذكاء.. ولا ينقصهم الاخلاص. ولكن الذكاء الوافر، والاخلاص العميم كلها صفات لا تجدى شيئًا مالم تصحبها الجسارة الواعية والإرادة الغلابة لتغيير الواقع الفاسد.. كل هذه الصفات لاتجدى شيئًا طالما حبيسة سياج تنظيمى يرفض التطور..

مولد الشعارات

لقد شهد السودان فى الأعوام الثلاثة الماضية مولد الأحزاب من جديد بعد انقشاع الجاهلية العسكرية.. وشهد مع مولد هذه الأحزاب مولد شعارات جديدة كان

الناس يهمسون بها همسًا فى الماضى، شعارات أنجبتها صيحات رجل الشارع قبل أن تنطلق بها قيادات الأحزاب، وكانت هذه الشعارات نتيجة تفاعل الشعب الطبيعى مع التطور الذى شهدته المنطقة التى نقيم فيها، وساهمت أجهزة الإعلام الجماعى فى نقله حتى إلى القرى والدساكر.. الاشتراكية.. الديمقراطية .. القوية العربية، التضامن المصيرى مع شعوب العالم الثالث. انتقلت هذه الشعارات إذن إلى دساتير الأحزاب وإلى بيانات سياستها المعلنة ولنقرأ دستور أى حزب لنجد أن هذه الشعارات تحتل مكانها المرموق. ولكن دعنا نتابع وسائل النشر والاعلام الحزبى بعد عامين من تبنى هذه الأفكار. دعنا نتابع بيانات الأحزاب الدورية - إن كان لها بيانات دورية تخاطب بها الجماهير وصحافة الأحزاب وأحاديث مسئوليها، كم منها حاول أن يوضح للناس فهم التنظيمات السياسية لهذه الشعارات ماهو مدلولها وماهيتها كيف يمكن تحقيقها فى إطار واقعنا المحلى. ماهو ارتباطها بهذا الواقع، ماهو دور كل منا فى سبيل تحقيقها كيف يمكن لنا أن نعمق معانيها بين جمهرة الناس؟

امتداد للصراع القديم:

إن العامين اللذين قد انصرما بعد بروز الأحزاب من جديد قد أثبتا أن التنظيمات السياسية ليست بأحزاب بالمعنى العصرى للكلمة.. وأن العمل السياسى ليس إلا امتداد للصراع القديم، كما أسلفت، بين الشوفيست والفليست.. وأن هذه التنظيمات بتكوينها وأخلاقياتها لا تستطيع أن تخرج من إطارها التقليدى الذى يرفض الموضوعية العلمية.. ولذا فأن الأحزاب التى تتحدث دساتيرها عن الاشتراكية لا تملك إلا أن تفكر فى الاشتراكية فى إطار خلايا الشيوعيين، والجبهة المعادية للاستعمار، والالحاد الشيوعى، والمؤامرة الروسية الكبرى، تفعل هذا بعد نصف قرن من الثورة البلشفية التى ارتقت بروسيا - أكثر بلاد أوروبا تأخرًا - لكيما تصبح القوة الأولى فى أوروبا والقوة الثانية فى العالم.. وبعد ربع قرن من الثورة الصينية الحمراء التى ارتقت بالصين لكيما تصبح القوة الأولى فى آسيا والقوة الثالثة فى العالم.

والتنظيمات السياسية التى تتحدث دساتيرها عن العمل العربى المشترك والقومية العربية لاتملك أن تفهم القومية العربية إلا فى إطار التاج المصرى، والتوسع الأقليمى المصرى إن كانت من خصومها. أو فى إطار وحدة الوادى وفندق قصر الجزيرة إن كانت من نصرائها... علما بأن مصر عبد الناصر ليست بمصر إبراهيم فرج وزكى الطويل.. إنما هى خلق جديد ذو أبعاد اقتصادية جديدة.. ومضمون اجتماعى جديد وهدف سياسى جديد.. وأن القومية العربية فى مضمونها الجديد تعنى البعث الكامل لحضارة شاخت ورد الدماء الحارة لشرايين أمة بدأ العدم يدب فى أوصالها.

عقد الاستعلاء الجاهل

والتنظيمات السياسية التى تتحدث عن الوحدة الأفريقية لاتملك إلا أن تنظر إليها وتفهمها، إن فتشت أعماق الأعماق، إلا فى إطار العقد الموروثة عن أفريقيا.. عقد الاستعلاء الجاهل علمًا منها بأن أهل أفريقيا هؤلاء هم الذين يحركون اليوم قارة كاملة راكدة ليس فقط لتمارس سيادتها بل ولتعلب دورها التاريخى فى أحداث العالم.. ولتجعل العالم يحس بوزنها الذى لايمكن اغفاله.. ولا يحتاج المرء هنا لأكثر من النظرة العابرة للتغييرات العديدة التى طرأت على السياسة الدولية منذ هبوب رياح التغيير فى مطلع الستينات .. لقد أفلحت بعض هذه القيادات وهى توجه بلادًا لاتملك أى مقوم من مقومات الدول أن تحتل مكانها فى السياسة الدولية بصورة لم يستطعها أولئك الذين يجثمون على صدر مليون مربع من الأميال.. مليون ميل مربع لو كان كل ما فيها هو الطلح الناحل، والسلم الشاحب، وكثبان الرمل الجرداء لكانت قوة لايمكن الاستهانة بها...

لا لون ولا طعم ولا رائحة

خاطر عابر عن لى الآن وأنا أتابع الكتابة.. ذكرت زيارة مينان ويليامز مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشئون الأفريقية قبل عامين.. ذكرت زيارته وهو يحمل رسالة من الرئيس جونسون إلى زعماء أفريقيا يوضح لهم فيها موقف بلاده من قضية الفيتنام

سيما والحملة الدولية ضد التدخل الأمريكى قد بلغت ذروتها ذلك الوقت.. ذكرت تلك الزيارة وكيف أنه قد أدهشنى إبانها أن ويليامز الذى بدأ زيارته بغرب أفريقيا (داكار، ابيجان كوناكرى، وباماكو).. وأنتقل إلى شمال أفريقيا (الرباط، الجزائر، تونس، القاهرة) قد عبر السودان.. عبر مليون ميل ليذهب إلى أديس أبابا، ونيروبى، ودار السلام.. ولو كنت مكان ويليامز لما فعلت غير مافعل.. بلاد بلا أعداء ولا أصدقاء.. أكبر رقاع الأرض فى أفريقيا أصبح فى حساب السياسة الدولية. وبفضل حكامه الراشدين شيئًا لا أملك أن اسميه.. شيئًا حكمه حكم الماء الطهور عند الفقهاء، لا لون ولا طعم ولا رائحة...

بنــــاء الأمــم

إن بناء الأمم ليس بالأمر الهين.. وإن خلق المجتمع الفاضل ليس بالأمر الذى يتم بالنوايا الطيبة أو المنبريات الوعظية.. هذا إذا افترضنا حسن النية.. فهناك صفات أساسية لابد من توفرها فيمن يتصدون لهذا البناء والخلق.. ومالى أكثر من الحديث عن المجتمع العصرى.. أو ليس هذا شأن بناء المجتمع الفاضل وشأن بناء المجتمع الفاضل منذ أن عرفت الإنسانية الدولة المنظمة.. المعلم الثانى الفارابى يحدثنا عن الحاكم فى مدينته الفاضلة فيقدم صفات المعرفة وحب العلم وقوة الخيال على كل صفة أخرى.. فالحاكم عنده لابد «أن يكون تام الأعضاء جيد الفهم والتصور، جيد الحفظ لمايفهمه، جيد الفطنة، حسن العبارة محبا للتعليم والاستفادة منقادًا له لا يؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيه الكد الذى يناله منه، وأن يكون غير شره متجنبًا بالطبع للعب. أن يكون محبًا للصدق وأهله ومبغضًا للكذب وأهله. أن يكون كبير النفس محبا للكرامة، أن يكون الدرهم والدينار وسائر أغراض الدنيا هينة عنده أن يكون محبا للعدل وأهله مبغضًا للظلم والجور وأهلها، وأن يكون قوى العزيمة على الشىء الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل، جسورًا عليه مقدامًا، غير خائف ولاضعيف النفس».. والمدينة الفاضلة تقابلها المدينة الجاهلة وهى ـ فى قول المعلم الثانى ـ تلك «التى لم يعرف أهلها السعادة، ولاخطرت ببالهم. إن أرشدوا إليها لم يقيموها ولم يعتقدوها. وإنما

عرفوا من الخيرات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى تظن أنها الغايات فى الحياة وهى سلامة الأبدان، والتمتع باللذات.. وكل واحدة من هذه سعادة عند أهل الجاهلية»..

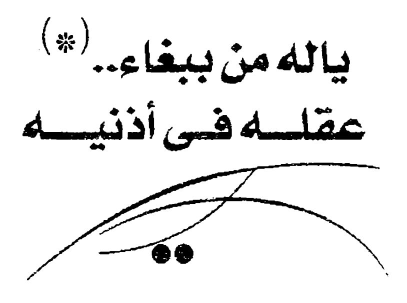
عقم فكرى

إن بناء المجتمع الجديد.. المجتمع الفاضل لن يتأتى بالبساطة التى تحسب.. فطريق التنمية طريق وعر.. وأهدافها أهداف عصية... ولا مشاحة فالتنمية هى تغيير لوجه الحياة.. تغيير هدفه الأول والأخير هو الإنسان.. إذن لابد لهذا الإنسان.. وهو جاهل متخلف.. أن يدرك أن التنمية هى هدف مصيرى.. وأن الديقمراطية، والاشتراكية والتضامن الأقليمى والدولى تعنى الخير وتعنى الكرامة، تعنى السعادة للفرد.. وتعنى التقدم للمجتمع.. فبغيرهذا الإدراك لايمكن أن يتم تفاعل بين الشعب والفكر الجديد.. ولايمكن أن يتم تعاطف بين الشعب ودعاة الفكر الجديد.

أعود إلى السؤال مرة أخرى ماهو دور وسائل الاعلام الحزبى فى خلق المناخ الفكرى لهذا التفاعل والتعاطف.. تناولوا الصحافة التى تتحدث باسم التنظيمات السياسية وليقل لى أى عاقل عادل كيف يمكن لأية صفوة تحترم نفسها أن تقبل أن تكون منابر الفكر فيها منابر للسباب المسعور، والتهاتر المريض، وتبدل الخصومات الرعناء كما تفعل الضرائع اللكع... ولنكن أمناء ياصحاب.. العقم الفكرى هوالجواب...

■■■

ياله من ببغاء..(*) عقلــه فـى أذنيـــه



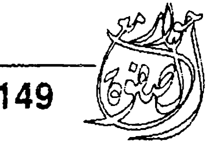
(1)

فى معرض الحديث عن الأصالة الفكرية.. والاستقلال الفكرى.. والانفتاح الواعى نحو الفكر الإنسانى والتجارب الإنسانية أود أن أتناول بوجه خاص شيئين: نظرتنا، كمثقفين، إلى الفكر الاشتراكى الماركسى.. واتجاهنا، كدولة أو مسئولين، نحو الدول التى اتخذت هذا الفكر عقيدة وانتهجته أسلوبًا..

والذى يدفعنى لهذا التخصيص فى الحديث هو الجريمة الفكرية التى نرتكبها.. يرتكبها البعض فى براءة نتيجة الجهل وعدم المعرفة.. ويرتكبها بعضنا الآخر ـ مع سبق الإصرار ـ عن طريق تزييف الحقيقة والواقع.. فالحديث فى محافلنا عن الفكر الماركسى وعن الدول التى ارتضته يصور الأمر دوما بأنه اختيار بين الفردوس والجحيم.. فردوس الغرب وجحيم الشرق.. اختيار بين مادية الشيوعية وروحانية الليبرالية.. اختيار بين حكم القهر والقسر.. وحكم الحق والعدل. اختيار الاختيار بين اتجاهين سياسيين اختيارا خلقيا لا سياسيا.. ويصبح تقييم من يختار تقييما خلقيا لا سياسيا.. ويصبح الرجل الذى يدعو لهذا الفكر منحرفًا فكريًا ـ إن أحسن الناس به الظن ـ لأنه فى الغالب الأعم يحسب فى عداد المنحرفين خلقيا..

●●

(*) الأيام: ١٩٦٨/٢/١٣



الايحاء.. والمناعة

ومثل هذا الحديث.. والأحكام التى تقوم عليه إنما هو فى واقع الأمر استجابة تلقائية منا للايحاء الفكرى الذى نتلقاه من الغرب.. والتلقائية فى الاستجابة ما كانت لتكون لو كانت لنا المناعة الفكرية.. والمناعة الفكرية لن تتأتى مالم يتوفر لنا المصل الواقى.. والمصل الواقى يتلخص فى ادراكنا أن السودان ليس هو الغرب.. ليس هو أوروبا وأمريكا.. أهدافه ليست بأهداف الغرب.. وتراثه ليس تراث الغرب.. وتكوينه السوسيولوجى ليس بتكوين الغرب.. إذن فمقاييسه فى الحكم والتقييم لابد أن تختلف بالضرورة، عن مقاييس الغرب... ولربما قادتنا هذه المقاييس فى تقييم واع علمى أمين إلى رفض الفكر الماركسى.. ولكن لأسباب غير تلك التى أوحى لنا بها...

فالذى أوحى لنا به يجعلنا ننظر إلى الفكر الماركسى لا كأمتداد للفكر الغربى البرجوازى نفسه ـ بل ووليد شرعى لذلك الفكر ـ وإنما كأوهام مشعوذ اسمه كارس ماركس.. والذى أوحى لنا يجعلنا ننظر إلى التجربة الاشتراكية الشرقية لا كنهج فى الاقتصاد جديد بدل كل معالم الجغرافية السياسية فى أوروبا وآسيا وإنما كمؤامرة ارهابية للتسلط والسلب.. والذى أوحى لنابه يجعلنا ننظر إلى الاتحاد السوفيتى رائد هذه التجربة لا كدولة تحدد علائق الدول معها العهود والمواثيق وإنما كعصابة متآمرة تريد أن تبذر الفتنة والخراب فى ربوع العالم الآمن المطمئن.. هذا هو ما أوحى لنا به.. وما نردده بلا حساب شأن من عقله فى أذنيه..

حقائق .. وظلال

بيد ما نردده يغفل حقائق هامة لابد من إبرازها لكيما تكتمل عناصر الحكم العلمى الموضوعى.. وبغض الطرف عن ظلال عديدة لابد من ابانتها لكيما تكتمل الصورة..

أولى الحقائق هى أن الفكر الماركسى إنما هو جزء لا يتجزأ من الفكر السياسى الأروربى.. وهو جزء لا يتجزأ من المفهوم الجديد للعدالة الاجتماعية فى أوروبا،

فدولة الرخاء التى تتغنى بها أوروبا ـ ويتغنى بعضنا بها فى معرض التبشير بالاشتراكية الغربية ـ هذه الدولة إنما هى وليدة الدعوة التى حمل لواءها دعاة العدالة الاجتماعية الجديدة فى أوروبا المعاصرة وكلهم اشتراكى وكلهم قبل المعطيات الأساسية للفكر الماركسى حول تفسير التاريخ.. وطبيعة الطبقات.. ودور رأس المال ووسائل الانتاج.. وجلهم ذو تصور مادى كامل للاشتراكية.. الدعوة الجديدة حمل لواءها بياتريس وسدنى ويب فى بريطانيا.. جان جويس وليون بلوم فى فرنسا.. بترونينى فى ايطاليا وهو يحاول اليوم بعد مايربو على ربع القرن من الترشيد أن يترجم أفكاره عن مجتمع الكفاء إلى واقع ملموس عن طريق تجمع اليسار والوسط.

ومكاسب الطبقة العاملة فى أوروبا الغربية وهى أنشودة أخرى تتغنى بها أوروبا ويتغنى بها معها الذين عقولهم فى أذنيهم فى خارج أوروبا.. هذه المكاسب قد أحرزتها الطبقة العاملة بقياداتها الجديدة التى رأت فى تجربة السوفيت حافزًا ومثلا.. الضمان الاجتماعى.. الحد الأدنى للأجور.. المشاركة السياسية.. كانت تجربة السوفيت إذن حافز لأن تسيطر على الحركة العمالية فى أوروبا الغرب قيادات اشتراكية.. أولى هذه القيادات وأهمها قيادة جيمز كير هاردى وفنر بروكواى للحركة النقابية البريطانية سيما بعد خيبة الأمل الطاغية فى حكومة جوزيف تشمبرلين... وقيادة ليون جوهو للحركة النقابية فى فرنسا.. وقيادة الشيوعيين للحركة النقابية فى ألمانيا بعد سقوط أسرة الهوهنزولرن وقيام جمهورية الفيمار.

فى كل هذه الحركات كان التحليل للتاريخ والمجتمع تحليلا ماركسيًا.. وفى أغلبها كان التصور للاشتراكية كلها تصورًا ماديا.. ولا غرو فوضع أوروبا الاجتماعى ومناهضتها للكاثوليكية أدت بالضرورة إلى هذا التلاحم بين المادية والاشتراكية. وفى هذا يكتب مالك بن نبى فيقول «إن كارل ماركس كان سيتحدث بلسان مارتن لوثر لو عاش فى *عصره*» وهذا التقرير لايخلو من صدق.. فمباحث كارل ماركس، لاسيما الفلسفية منها حول الانسانية والانحياز لا تخلو من لوثريات تطل برأسها من خلال الكلم.

ومالى أقول كان التحليل للمجتمع تحليلاً ماركسيًا.. كان وظل عند الكثيرين من زعماء الاشتراكية الغربية.. الصراع الرهيب الذى دار فى اجتماع حزب العمال البريطانى منذ بضعة أعوام حول الفقرة الرابعة من دستور الحزب ـ تأميم كل وسائل الانتاج والتوزيع نموذج لهذا.. الذين قادوا الحملة مايكل فوت، سندى سلفرمان، زيليا كوس، كزنز.

إن الأمر ليس أمر اختيارى بين مادية الشرق وروحانية الغرب فالتصور المادى.. للاشتراكية والتاريخ.. بل والنظرية الماركسية نفسها جزء من التصور الأوروبى وامتداد للفكر الأرووبى ولذا فمن الظلم أن نقول أن هذه المفاهيم عندما تترجم فى أوروبا يصبح اسمها دولة رخاء.. وعندما تترجم فى الشرق يصبح اسمها المادية الفاجرة..

دموية البلاشفة

لكن قائلا سيقول إن اشتراكى الغرب ـ قبلوا جوانب عديدة من أفكار ماركس ولكنهم رفضوا دموية البلاشفة.... فترجمة الأفكار الماركسية فى الغرب الذى أشرت إليه قد تم على يد البلاشفة عن طريق القهر والاكراه.. عن طريق سيبيريا والستالينية الدموية.. أما التحول فى الغرب فقد تم بالرضا والاختيار والمصالحة.. وبعض هذا حق... بل كله حق لو وقفنا ـ كما يوحى لنا أن نقف فى صدر البيت.. فى مطلع الآية.. ولاتقربوا الصلاة وهذا يقود للحقيقة الثانية.. الحقيقة الثانية تقول بأن الذى حدث فى روسيا السوفيتية شيئان: أولهما ثورة سياسية لازالة وضع سياسى... وثانيهما بروز فلسفة جديدة متكاملة منحت الثورة أبعادًا جديدة لم تعرفها الثورات الأوروبية من قبل، إذ كانت الثورات الأوروبية كلها ثورات تستهدف تغيير الوضع السياسى القائم فيه.

أما عن الأولى.. الثورة السياسية.. فالثورات كلها دموية مأسوية بطبعها.. وليس هنالك من سبب يجعلنا نفترض أن تكون الثورة الكوبية أكثر انسانية من ثورة المكسيك التى قتلت نسبيا عشرين ضعفًا لمن مات فى الثورة الكوبية دون أن تحقق التحول

الجذرى الذى حققته ثورة كوبا.. ولكنى افترض هنا أن الذين يتحدثون عن الارهاب لايعنون الارهاب الذى واكب الثورة السياسية وإنما الارهاب الذى تلا الاستقرار السياسى وبداية التطبيق الاشتراكى.. والقول يمضى هنا مشيرًا إلى أن مثل هذا الارهاب هو الثمن الذى يجب أن تدفعه كل أمة تريد أن تسير فى طريق التجربة البلشفية.. هكذا أوحى لنا وأخذ بعضنا يردد هذا دون رؤية وتبصر.

والحقيقة التى لامرية فيها هى أن التطبيق الاشتراكى البلشفى كان قاسيًا.. وكان عنيفا وكان يفتقد الانسانية فى الكثير من جوانبه.. والحقيقة التى لامرية فيها هى أنه ليس هنالك من انسان يملك الحق فى أن يصدر الحكم باعدام أجيال لكى يمنح الحياة لاجيال قادمة... والحقيقة التى لامرية فيها هى أنه ليس هنالك من ابن أمة يملك أن يدعى أنه يملك العلم اللدنى والتفسير الذى لا راد له.. والحقيقة التى لامرية فيها فيما اثبتت تجارب دول أخرى هى أن التطبيق الاشتراكى ليس بالضرورة هو القهر والاكراه. فى هذا الإطار إذن يمكننا أن نصدر الحكم بادانة الارهاب الاستالينى... والذى يجب أن يتحمل نتيجته كل الجهاز الذى كان قائمًا يومها فى الاتحاد السوفيتى.

مجتمع الاسنان المجانية

هذا جانب....

ولكن هنالك جانب آخر...

فلئن جاء الغرب ليرسم لنا هذه الصورة الدموية القانية للبلشفية فهذا تقرير موضوعى للحقيقة.. أما أن يفعل هذا فى معرض التفضيل بين تجربتين.. أما أن يفعل هذا ـ ويفعل بعضنا معه ـ بهدف القول بأن مجتمع الرخاء الغربى قد قام بدون حاجة للتضحيات المقتسرة اللاانسانية فهذا تشويه متعمد للحقيقة.. فالحقيقة، لكيما تكتمل، لابد أن نضيف إليها تلك الجوانب التى تبرز كيف ارسيت قواعد الاقتصاد الغربى الذى مكن لأهل دولة الكفاء والرخاء أن يحققوا مجتمع الأسنان الاصطناعية المجانية..

تلك الجوانب الناقصة من الصورة تقول بأن الاقتصاد الرأسمالى الغربى لم ترس دعائمه إلا بفضل خيرات الأمم التى استعبدت.. بفضل موادها الخام وبفضل أسواقها الحبيسة.. ولن نقف عند هذا فنحن فى باب الحديث عن التضحيات الدموية المقتسرة.. إذن فلنقل وبفضل الأربعين مليونًا من الزنج الأفارقة الذين اقتيدوا كالخراف إلى أمريكا والبحر الكاريبى فمات نصفهم فى عرض البحر ـ نصفهم ٢٠ مليونًا فى أقل التقديرات.. تضحيات أربعين مليونا من العبيد هى التى مكنت للانتاج الزراعى أن يزدهر... وهو الانتاج الذى وفر رأس المال التثميرى الذى جعل الثورة الصناعية تنفجر.. وجعل الاقتصاد الرأسمالى ينطلق..

ولكيما تكتمل الصورة إذن لابد أن نقول بان ستالين قد قتل بضعة ملايين من أهل روسيا ليبنى روسيا وأن الرأسمالية قد استرقت وقتلت عشرة أضعاف من قتل ستالين لتبنى أوروبا وأمريكا... فإن قضينا بادانة الستالينية مرة فلابد أن ندين الرأسمالية الغربية ألف مرة.. وإن كان لابد أن ننفعل وبعضنا ذو حساسية مفرطة ـ عندما يجىء الحديث عن القهر البلشفى.. أقول إن كان لابد من انفعال وجدانى ضد من سبى وقتل فليكن ضد من استباح حمى الأقربين فى أفريقيا لا الأبعدين فى جورجيا واكرانيا.. هذا ما كان من أمر الحقيقة الثانية...

أجلاف.. المشرق

أما الحقيقة الثالثة فلا تتعلق بمشاعرنا كأفراد فحسب بل تلقى بظلالها على تصرفنا كحكام.. وكدولة. فالحديث عن الدولة البلشفية ـ بل دول شرق أوروبا كلها ـ يجعل المرء يظن أننا لانتحدث عن شعوب ذات حضارة عريقة مترابطة الحلقات بل عن مجموعات من «الشغيلة» الأجلاف، ولا نتحدث عن دولة تربطها بقية العهود والمواثيق وإنما عن عصابات مارقة هدفها اشاعة الفتنة فى العالم.. والعدوان على سيادة الآخرين.. وفى حديثنا هذا ننسى أن هؤلاء الأجلاف هم الذين ورثوا روسيا بوشكين ودستوفسكى وتشايكو فسكى وبورو دين.. وننسى أن هؤلاء هم الذين جادوا

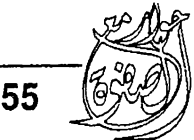
للعالم فى عهدهم البلشفى الجلف هذا بشولوخوف واهرنبورج وشوستو كوفتش وبروكوفيوف...

عدوان... وعدوان

ولكن الحديث يمضى بنا للقول بأننا أمام دول مهما كان من أمر ماضيها الرفيع.. ومهما كان من أمر حاضرها الناصع.. فهى دول لاتحترم المواثيق ولا تكف عن العدوان على سيادة الشعوب لذا فالتعاون معها إثم كبير .. وشر مستطير.. ومن حق الغرب أن يقول هذا كجزء من حملته ضد خصومه.. تماما كما يفعل الشرق فى تصوير كل ما لا يرتضيه فى الغرب بأنه رجس من عمل الرأسمالية.. والرأسمالية هى الشيطان الرجيم فى انجيل الماركسية.. من حق الغرب أن يفعل هذا ولكن من واجبنا أن لانقبل ما يقول باعتباره الحق.. كل الحق، من واجبنا أن لانفكر بآذاننا.. ولن يكلفنا الأمر جهد كبير.

لن يكلفنا الأمر أكثر من أن ننظرإلى خارطة العالم السياسية فى ربع القرن الأخير لنرى.. لنرى ماهو موقف الاتحاد السوفيتى من أنصاره وخصومه.. وموقف الغرب من أنصاره وخصومه.. ولن أتحدث هنا عن أزمة كوبا التى أصبحت مثلا كلاسيكيًا.. ولن أتحدث هنا عن محنة الفيتنام التى تصور مثل التدخل و العدوان.. تصور أزمة الضمير العالمى كله كما يقول السناتور فلبرايت ـ أكثر ساسة أمريكا المعاصرة وضوح رؤية وأمانة وإبانة.. لن أتحدث عن هاتين الأزمتين وكلاهما يصور مدى احترام الدولتين الكبيرتين لاستقلال الشعوب وسيادتها وسلامتها.. لن أتحدث عن هاتين المشكلتين لأن هنالك اعتبارات عديدة أضفت على الصورة جوانب جعلت شعب كوبا وشعب فيتنام امرًا ثانويًا بالنسبة للصراع القائم. ولكنى سأتحدث عن تجارب أخرى.

لقد شهد العالم فى السنوات العشر الماضية تطورت خطيرة فى جغرافيته السياسية.. شهد حكومات عديدة تتحول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. ومن



أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.. وشهد حكومات أخرى تصارع جاهدة فى سبيل الحفاظ على كيانها وحيدتها.. فى اطار هذه التحولات ما هو موقف الدولتين الكبيرتين..

التاريخ الفورى يحدثنا..

يحدثنا على سبيل المثال لا الحصر.. يحدثنا عن حكومات قامت بارادة الشعوب ورضاها ولم ترد لها أمريكا أن تقوم.. فوئدت.. ويحدثنا عن حكومات قامت ضد رغبة الشعوب وأرادت لها أمريكا البقاء فبقيت. ويحدثنا عن أنظمة قامت بإرادة الشعوب.. ومناصرة السوفيت ولم ترد لها أمريكا البقاء فكان لها ما أرادت ولم يكن موقف السوفيت منها إلا موقفا يختلف وصف الناس له بين الحكمة والعجز والجبن. التاريخ الفورى يحدثنا عن خوان بوش فى جمهورية الدومينيكان الذى انتخبه أهل الجزيرة بارادتهم الطليقة وهو الرجل الذى قال فيه الرئيس الراحل كنيدى «إن خلاص أمريكا اللاتينية سيتم على يد رجال تقدميين مثل بوش» ولكن أمريكا الجديدة - أمريكا اللاكندية - لم ترد له البقاء فحكمت باعدامه السياسى ونفذت حكمها فى حملة أدانها العالم كله.. حملة لايمكن أن تبرر ألا بمنطق السير فرانسيس دريك أو فلاسفة السياسة فى العصور الفكتورى..

والتاريخ الفورى يحدثنا عن ثورة الكنغو التى أخذت تهدد نظام موبوتو فاندفعت لنجدته فرق المظلات البلجيكية تحملها الناقلات الأمريكية من قاعدة بريطانية فى جزيرة الأسنسيون.. تحالفت قوى الأطلس جميعها لانقاذ موبوتو بدعوى انقاذ حياة الطبيب الأمريكى الدكتور كارلسون.. والتاريخ الفورى يحدثنا عن نهاية شيدى جاقان فى غيانا.. يحدثنا عن مليون ونصف من الجنيهات انفقتها وكالة المخابرات المركزية عن طريق هيئة وهمية فى لندن لخلق الاضطرابات فى غيانا.. لن أمضى فى وصف مادار فى غيانا فقد وصف وأبدع فى الوصف مايكل فوت وسدنى سلفرمان فى مجلس العموم البريطانى.. فمن أراد فعليه بالهانسارد.

مقابل هذا ما الذى فعله الاتحاد السوفيتى لا ليفرض أنظمة لا يريدها الناس.. ولا ليزيل أنظمة لا يريدها هو.. بل ليحمى أنظمة قامت برضى الشعوب وظلت تحسب نفسها فى عداد حلفائه؟ ما الذى فعله السوفيت لحماية لوممبا ضد انقلاب قاده جاويش وعشرون جنديًا؟ ماذا فعلوا غير أن حملوا متاعهم وخرجوا.. ما الذى فعله السوفيت.. لحماية نكروما.. وحماية سوكارنو.. ما الذى فعلوه لحماية الدكتور مصدق والدكتور فاطمى وهما على مرمى حجر من جمهوريات السوفيت؟

التاريخ الفورى يقول أن تجارب العالم السياسية فى العقدين الأخيرين قد أثبتت أن الاتحاد السوفيتى أكثر احترامًا للمواثيق والالتزامات الدولية وأكثر قدرة على حبس نفسه عن الاندفاع فى مغامرات القوى..

واغتصاب... شرق أوروبا

وسيأتى قائل ليلقمنى حجرًا ويقول وما رأيك فى اغتصاب البلاشفة لشرق أوروبا... أما أن بلشفة شرق أوروبا قد كانت بلشفة إجبارية فهذه حقيقة .. ولكنه اجبار لابد أن يفهم فى اطاره الحقيقى.. لابد أن يفهم فى اطار صراع القوى واقتسام مناطق النفوذ.. فالذى سيطر على شرق أوروبا ليس روسيا الشيوعية.. بل روسيا الدولة الكبرى التى حققت النصر مع بعض دول أخرى كبرى فجلست معهم لتقتسم الأسلاب، أو مناطق النفوذ كما تسميها الدول الكبرى.. روسيا الدولة الكبرى التى أريد لها فى يالتا وبوتسدام أن تقتطع الشرق، وتترك الغرب للحليف الآخر حدث أن كانت شيوعية فكان طبيعيًا أن تسم مناطق نفوذها الجديد بميسمها.. وهو نفوذ كانت ستحصل عليه روسيا بمنطق الدول الغالبة حتى وإن كان على رأسها الاسكندر الثالث أو كاثرين الثانية..

إن جميع دول شرق أوروبا قد تحررت على يد الجيش الأحمر باستثناء يوغسلافيا التى حررتها المقاومة الوطنية بقيادة تيتو.. فإن توقع أحد أن يترك الماريشال تيموشنكو بلغاريا ورومانيا لكيما تصبح أى شىء غير شيوعى لكان أحمقًا بنفس القدر

الذى يتوقع فيه أحد أن يترك الجنرال كلارك ايطاليا وبها أكبر أحزاب أوروبا الشيوعية بعد الحزب السوفيتى أن تصبح دولة حمراء.. ولو توقع أى أحد أن يفعل الجيش الأحمر أى شىء مع ألمانيا الشرقية غير أن يضع البرخت على رأسها لكان أحمقًا بنفس القدر الذى يظن فيه أحد أن أمريكا كانت ستفعل أى شىء غير أن تضع على رأس المانيا الغربية حكومة تكون من أهم قراراتها السياسية الأولى حل الحزب الشيوعى ومصادرة ممتلكاته.. ماحدث هو سنة التاريخ للأسف.. والتاريخ يحدثنا بأن الدول الكبرى جميعها تقبل فيما بينها منطق أن القوة هى الحق.. الدول الكبرى منذ الاسكندر وقياصرة الرومان دول عديمة الحياء.. والذى حدث بحكم الواقع.. الذى قرره تيموشنكو بجيشه الأحمر وجنرال كلارك بجيشه الثامن فى الميدان.. جاء الساسة ليجعلوا منه مبدأ وسياسة فى المواثيق.. هذا هو مضمون يالتا ومضمون بوتسدام.. ولم تكن مصادفة أن يترك ستالين ثورة اليونان لتذوى وهى قاب قوسين من النصر ويترك ماركوس يهيم فى الفلوات.. رأى جوزيف ستالين يومها كما كشفت الوثائق التى نشرت فى العام الماضى بعد مرور عشرين سنة على الأحداث كان يقول بوجوب الإبقاء على التوازن الذى اتفق بشأنه مع روزفلت.. اتركوا لنا الشرق وسنترك لكم الغرب إذن فالذى فعلته روسيا المنتصرة فى الشرق.. فعلته أمريكا المنتصرة فى الغرب..

... وبعــد

وبعد فإن إراد قارىء أن يفهم حديثى هذا دفاعًا عن فكر بعينه فليعد قراءة الحديث مثنى وثلاث.. وإن أراد أن يفهمه دفاعًا عن دولة بعينها فليعد قراءته مثنى وثلاث ورباعًا فالذى أدافع عنه هو أخطر من هذا بكثير .. الذى أدافع عنه هو حقنا فى أن نفكر بحرية طليقة وهو واجبنا فى أن نتصرف بإرادة.. وهو مسئوليتنا كمثقفين فى أن ندرك أن الأحكام العلمية لاتستقيم مع اهمال بعض الوقائع أو اغفالها.. فالحكم الذى يقوم على اهمال بعض الحقيقة يصبح حكمًا خاطئًا.. والحكم الذى يقوم على اغفال بعض الحقيقة يصبح حكما ظالمًا.. وفوق كل هذا الذى أدافع عنه هو

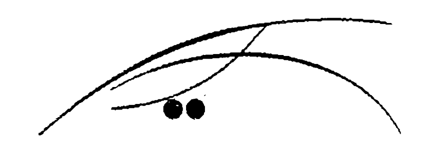
واجبنا فى أن نفكر بعقولنا.. لا بحكم ما أوحى لنا به جهرة كان ذلك أو خلسة.. فالببغاوية لايمكن أن تكون سمة لرجل رشيد. إنها سمة الهمج الهامج كشعب اسكندرية على عهد البطالسة الذى يمجد قتلته وممرغى كرامته.. وهو لايدرك..

اسمع الشعب ديـون　　كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافا　　بحياة قاتليه

ياله من ببغاء　　عقله فى أذنيه

■■■

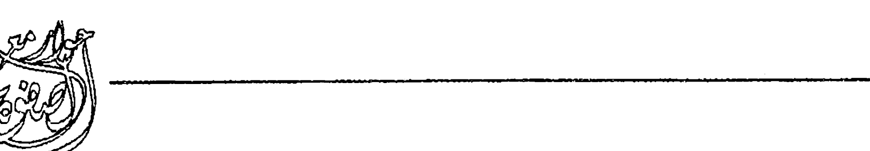


(2)

قلت.. لقد نادينا بعديد الشعارات بعد أكتوبر لأن هذه الشعارات هى آخر الأزياء السياسية فى عالمنا الجديد... لم يكن هنالك الإيمان الصادق بهذه الشعارات.. أو الرغبة الجادة فى ترجمتها إلى عمل محسوس.. إذن فمع عفوية النداء.. جاءت عشوائية التطبيق.

وكما فعل جل دعاة الديمقراطية بالأمس مع الديمقراطية يفعل اليوم جل دعاة الاشتراكية مع الاشتراكية.. وأخذنا نتصرف وكأن باب الاجتهاد قد قفل على يد صاحب السعادة المستر ستانلى بيكر.. فدساتيرنا منذ الحكم الذاتى لم تخرج من عمليات الترقيع للسمل الدستورى الذى حاكه القاضى بيكر.. وجاء عهد الاشتراكية وتناول الجميع ميثاق عبد الناصر واعملوا فيه نقلا، واقتباسًا، وتحريفا.. وفى الحالين كان الأمر تعبيرًا عن انعدام الأصالة.. وعن القدرية البدوية التى ماتزال تحركنا، وعن الاستسلام الفكرى.. لو كان هناك فكر لأدرك الناس بأن الاشتراكية كعلم ترفض الاستسلام العلمى.. لأن الاستسلام لأى منهج محدد أو تجربة محددة إنما هو دعوة للتحجر الفكرى، وتقييد لخط سير التاريخ.. ورفض للمنهاج العلمى نفسه الذى يقول بالافتراض ثم التجربة ثم النتيجة..

(*) الأيام: ١٩٦٨/٢/١٥



فالنظرية الماركسية نفسها ما كان لها لتنجح، على الطبيعة، مالم يتصدر لها رجل خلاق مثل لينين ويطوعها للواقع الروسى. واللينينية كفكر ما كان لها تنمو فى التربة الآسيوية مالم يتصدر لها رجل مبدع مثل ماوتسى تونج ويطوعها للواقع الصينى بصورة جعلت الصين القديمة التى ظلت ترفض الفكر الأوروبى وتمارس أسلوب حياة صينى مترابط الحلقات لمدة خمسة قرون تقبل لأول مرة المنهج الفكرى الغربى. أقول الغربى لأن الماركسية ـ اللينينية التى قبلتها الصين إنما هى نظرية غربية ولدت فى تربة غربية وقامت على أسس فلسفية.. والاشتراكية العلمية ما كان لها أن تجد أرضا فى بلد مسلم كالجزائر لو لم تتصدرها قيادة سياسية رشيدة.. عصرية فى أسلوب عملها وتفكيرها.. بعيدة عن أسلوب التهريج والانشائيات التى لوث السياسة فى الشرق العربى.. تصدت لها هذه القيادة لتطوعها وفق مقتضيات الكيان العربى الاسلامى..

لا قدرية.. ولا قوالب

في الاشتراكية، كما فى الديمقراطية ليست هنالك قدرية.. وليست هنالك حلول جاهزة.. وليست هنالك قوالب معدة نصب فيها الواقع لنصوغه وفق هوانا.. ولن يفيدنا كثيرًا أن نتبنى الشعارات.. أو أن ننقل المواثيق.. أو نترجم البيانات.. فنقل ميثاق عبد الناصر لن يفيد.. ونقل ميثاق طرابلس لن يفيد.. وترجمة البيان الشيوعى لن يفيد.. وترجمة مؤلفات ماوتسى تونج الثلاث والعشرين أو السبع والعشرين ـ أن أردنا أن نضيف لها دواوين شعره ـ لن تفيد.. لن تفيد ولن تجدى كحلول جاهزة.. كل هذه الذخيرة الفكرية الإنسانية العظيمة لن تجدى مالم تستوعب وتفهم فى اطار الواقع السودانى.. ومالم تطوع أحكامها حسب ما يقتضيه هذا الواقع..

درس.. عن كاسترو

.. فيدل كاسترو.. زعيم جرىء من زعماء العالم الثالث يمكن للكثيرين أن يدرسوا على يديه شيئًا عن استقلال الرأى.. وأصالة الفكر.. تابعت باهتمام فى الصيف

الماضى الحوارالذى بدأه فى أمريكا اللاتينية.. وهو حوار لابد أن الشروع فيه كان أمرًا ممضا بالنسبة لكاسترو.. وكان ممضا لأن موضوع الحوار هو مساندة الثورات فى أمريكا اللاتينية وشجب أية محاولة للتعاون السياسى أوالاقتصادى مع حكومات الدول التى وصفها كاسترو بأنها دول ضالعة مع الاستعمار.. وقد الحق كاسترو حواره هذا باقتراح بإدانة المعونة الاقتصادية التى تقدمها بعض الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى لبعض دول جنوب أمريكا.. اقتراح جرىء أيدته أقلية من أحزاب أمريكا اللاتينية الشيوعية وعارضته أو امتنعت عن التصويت عليه أغلبها... ووقف كاسترو يومها ـ كاسترو الذى يتقاضى من الاتحاد السوفيتى عونا يبلغ المليون دولار فى اليوم الواحد.. وقف ليصف بعض أحزاب أمريكا اللاتينية الشيوعية بأنها تشبه الفرق الرياضية التى أعدت لخوض المباريات الأولمبية فى عام ١٩٢٤ إلا أنها تريد أن تدخل حلبة المباريات فى عام ١٩٦٧ بنفس الزى ونفس التكتيك.. ووقف ليصف معارضيه فى الرأى ومن بينهم رودنى ارسمندى ـ أعظم مفكرى اليسار فى جنوب أمريكا ـ بانعدام الاصالة.. وليصف أب الماركسيين فى كوبا ـ انيبال ايسكالانتى ـ بأنه يريد أن يمارس وصاية فكرية اسماها كاسترو: ستالينية المناطق الحارة ومهما كان من أمر التقييم لفلسفة كاسترو وتخطئتها لأنها لاتدرك الامكانيات المحدودة وتتسم بالكثير من الرومانسية الثورية، إلا أن الجانب الإيجابى فى موقفه هذا هو أنه رجل حر الرأى.. أصيل التفكير.. واتجاه كاسترو الأخير هذا هو الذى حدا ببعض علماء السياسة للحديث اليوم عن محور النضال السياسى الجديد فى العالم الثالث.. أو ما أسموه بمحور الهائين.. هانوى ـ هافانا.

الغيبيات.. والببغاوات

إن تجارب البلاد المتشابهة لنا قد أثبتت أن الطريق للبناء الوطنى، وأن اقامة دعائم الاشتراكية، وتوطيد معانى الديمقراطية ليست بالأمور التى تتم تلقائيًا.. لابد لها من التجارب.. ولا بد لها من العثرات ولابد لها من الخطأ.. والذى يزيد من

مشاكل التطبيق هو أن ما نستهدفه فى واقع الأمر إنما هو تغيير حضارى.. والتغيير الحضارى لايكتمل ما لم تصبح القيم الجديدة والأخلاقيات الجديدة جزءًا من وجدان الأمة.. ويصبح تأييد الشعب لها متعاطفًا تلقائيًا.. وهذا أمر لايتم إلا بالترشيد وتعميق هذه المفاهيم فى الوجدان الشعبى.. وهذا بدوره لايتم مالم نخرج من إطار الغيبيات ألا وهى ترديد الشعارات عديمة المعنى.. وما لم نخرج من اطار الببغاوات ألا وهى النقل الأعمى لاجتهاد الغير.. فليس هنالك، كما قلت، حلول جاهزة.. وليست هنالك تجارب مقدسة.. وليس هنالك أحكام مطلقة.. وبعد ما اثبته البرت اينشتاين ـ فأن أى رجل يقول بأن هنالك أحكامًا مطلقة حتى فى العلوم الطبيعية، لابد أن يكون إما معتوهًا، أو جاهلا نزقًا، أو خلقا غريبًا يعيش فى كوكب المشترى.

إذن فالادراك العلمى للواقع.. والبحث والاجتهاد الدائب لتغييره على أسس علمية.. ضرورتان أساسيتان.. يصدق هذا على الاشتراكية والتحول الاشتراكى أكثر مما يصدق على غيرها.. فى هذا المعنى يكتب الزميل العالم الدكتور عبد الله عبد الدائم وزير التربية السابق بسوريا ومستشار اليونسكو اليوم فى التخطيط التربوى.. يكتب فى كتيبه الصغير الرائع.. التخطيط الاشتراكى فيقول.. «إن النظام الاشتراكى الكفيل بتحقيق سعادة المواطن فى وطننا العربى، أو فى أى بلد من بلدان العالم ليس قالبًا مصنوعًا نصبه على الأشياء لتتخذ صورته، ولا هو إرادة قاهرة نمليها فنقول للواقع كن فيكون، وما هو بالآراء المبيتة والأفكار المرسومة نفرضها على الأشياء وليس على الأشياء ألا أن تنصاع له. إنه تصور للحياة الاجتماعية والاقتصادية يتخذ شكله وقالبه ومعناه من خلال سلسلة من الجهود المتواصلة وعمليات البناء الواعية. وكثيرا ما يتخذ ذلك الشكل والقالب من خلال مجموعة من الأخطاء والتعثرات..».

ويمضى عبد الدائم فى مكان آخر يحدث الاشتراكيين أنفسهم عن أخطاء الاشتراكية التى تأتيها من داخلها.. ومن جهلها وغرورها.. من إيمانها بالحلول والقوالب الجاهزة والعصى السحرية التى تحول الواقع.. من رفضها للنقد والحوار الفكرى.. يمضى ليقول:

«لايجدى التجربة الاشتراكية فى شىء أن تغمض عينيها أو أن يأخذها الاعتزاز أو تنال منها المفاخرة. فالواقع أمامها هو واقع قاس صادم يحتاج تغييره إلى إدراك واضح وتبين مشرق لصفحة الأشياء، وإيمان عميق بأن النظم الاجتماعية والاقتصادية نظم لها قوانينها وأنها لاتغير بجرة قلم.. فلابد من معرفة قوانين الواقع.. قوانين الحياة الاقتصادية والاجتماعية.. فالمعرفة هى القوة وهى القوة الأساسية والتغلب على قوانين الطبيعة يكون بمعرفتها ثم بتشكيل ظروف جديدة تقوى على تحويل مجراها».

الخبز والكرامة

إن الذى نريد إقامته هو نظام يستهدف السعادة للفرد والتقدم للمجتمع.. هذا هو ما نسميه بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية.. الذى نريده نظام يحقق العدالة الاجتماعية بكل ما يستلزمه هذا من تضحيات ولكنه فى نفس الوقت يوفر للفرد حريته ولاينكر على الإنسان انسانيته.. الذى نريده نظام يوفر الخبز والكرامة.. فالديمقراطية التى يستتر وراءها تحكم رأس المال.. وتحكم الطائفية الدينية.. وتحكم البرقراطية البرجوازية ليست بديمقراطية.. والاشتراكية التى تقوم على القهر والقسر والاكراه ليست باشتراكية.. فهدف التحول الاشتراكى فى الوطن العربى فيما يكتب صائغ - فى مؤلفه (الخبز والكرامة) هو «الانسان العميق الانسانية الحر المتمتع بالخير الاقتصادى والعدالة الاجتماعية.. وما يبدو خلاف ذلك كوضع الدولة، أو المجتمع أو القوة أو الثروة هدفًا ليس سوى تحديد غير نهائى للأهداف. إذ أن دولة غنية وقوية من حيث جملة فعاليتها لاتهدف فى النهاية إلى تمتع مواطنيها بقوتها وغناها وإلى تعميق معنى انسانيتهم لهى دولة لم تحرر مواطنيها بعد ولا تزال فى حاجة إلى النزوع نحو هدف أبعد.

إن القومية العربية لكى تخصب إمكاناتها، وتثمر عطاء فى المجتمع العربى مدعوة إلى ما هو أبعد من تمجيد الدولة والمجتمع، إنها مدعوة إلى أن تحقق أثمار قوى

الإنسان العربى فكرًا، وعلمًا، وذوقًا، واقتصادًا ضمن حياة حرة لائقة. بهذا وبهذا فقط تتحقق للوطن العربى القوة والكرامة.

فقوة الدولة لا تدوم إن هى لم تصدر عن تحرر المواطنين وعن قوتهم من داخل نفوسهم».

من هذا المنطلق تجىء ضرورة البحث عن التركيبة الفكرية المناسبة.. من هذا المنطلق يجىء إيمانى بأن كل ما نخلقه من تنظيمات ومؤسسات لاتعنى شيئًا إن لم نوفر لها المناخ الفكرى اللازم.. إن لم نحتشد للبحث والتحليل والتخطيط، فأسلوب العلم وحده هو الذى يضع الحدود.. ومرة أخرى مع الدكتور عبد الدائم ـ «بين الجرأة الثورية وبين التهور.. بين السباق مع الزمن وبين انكار عامل الزمن، وبين العزم القوى على تغيير الواقع وبين التنكر للواقع وعدم الاعتراف به».

خلاصة القول إذن شيئان: شيئان أقولهما لرواد الدعوة للتحول الاجتماعى.. لدعاة الاشتراكية ومجتمع الكفاية والعدل:

أولهما ـ مرة أخرى ـ هو الأصالة الفكرية.. أصالة لا فى ابتداع نظرية وإنما فى تطوير تجارب انسانية لواقع معاصر.. فالتقليد لن يؤدى إلا إلى الهلاك المطلق.. هلاك الدعوة.. وهلاك الأفكار.. والسودان النجيب فى حاجة إلى جهد منا أقل تقليدًا وأكثر أصالة مما قدمنا ونقدم... كثيرًا ما تحدثنى نفسى بأن العقاد ـ صرح الفكر العربى الذى هو ـ كان يعنينا عندما وصف وادى القرود فى ملحمة الشيطان الخالدة:

نزل الشيطان فى وادى القرود	أوهم الزنج كما قد خلقوا
أمة من صنعة الخلاق سود	أخطأوا الصبغة أو قد حرقوا
أرضهم أنجب من أبنائها	وحصاد الزرع فيها قائم
لا ينام الظل فى أرجائها	وهم ظل عليها قائم

هذا شىء..

أما الشىء الثانى فهو أن المبادئ والشعارات التى ننادى بها لهى مبادئ وشعارات سامية.. فالحرية السياسية حق موروث.. والاشتراكية حتمية تاريخية.. والديمقراطية هدف توجبه الكرامة الإنسانية.. كلها كلمات طيبة تعبر عن أهداف طيبة.. ولكن كل هذه الكلمات تصبح إفرازًا لفظيًا.. تصبح كلمات خبيثة مالم نؤمن بها كأسلوب حياة.. مالم تصبح جزءًا من وجداننا.. مالم نثبت أصلها فى الأرض بالتطويع للواقع.. «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء».

■ ■ ■

الخواطر العشر(*)

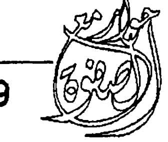


(1)

الآن وقد فرغت من تسجيل تلك السوانح العنيدة التى ظلت تجوس فى خاطرى.. وتعربد فى رأسى غير قليل من الوقت.. الآن وقد فرغت من تسجيلها أقف قليلا لأقول أن تلك الخطرات إنما كانت رد فعل عفوى لما ظللت اقرأ عن السودان ومن السودان خلال عامين وأنا نزيح عنه.. رد فعل عفوى لما رأيت فى السودان خلال عامين وأنا بين الأهل والأصحاب.. والذى قرأت بدا لى شيئا بخيالات السكارى: والذى رأيت بدا لى شيئا أشبه ببسادير المدمنين..

الذى قرأت.. وسمعت.. وشهدت لم يكن وقائع سياسية وحقائق اجتماعية فحسب.. وإنما كان ظاهرة.. ظاهرة تستوجب التعجب.. فالذى قرأت وسمعت وشهدت كان يقول بأن كل ما يدور فى السودان لا يخضع للأحكام التى اجمع بنو البشر على تطبيقها ولا يخضع للنواميس التى أجمع بنو البشر على الاحتكام اليها..... فأقوالنا إن قيست بأفعالنا لا تخضع لأحكام المنطق.. وشعاراتنا إن قيست بسياساتنا لا تخضع لأحكام النظرية السياسية.. وتحولات احزابنا وحكوماتنا إن قيست بحساب القوى السياسية المعروفة فى السودان لا تخضع لأحكام الأريثماطيقا.. الذى قرأت، وسمعت، وشهدت كان إذن شيئًا غريبًا.. خلقا غريبا يقع بين ملهاة «واقعية» ومأساة «لا معقولة» شيئا يقع بين «بيت الدمى» لهنرى ابسن.. و«حديقة الحيوان» لادورد البى.. الذى قرأت وسمعت

(*) الأيام: ١٨ فبراير سنة ١٩٦٨



وشهدت جعلنى أقول.. واعيد القول بأن السودان مركب تائه، يقوده ملاحون مغامرون، فى محيط نزق عصى المرفأ.

هذه هى الصورة.. الصورة التى وقفت أمامها أتملى فامعن فى التملى.. وأفكر فأمعن فى التفكير.. ومع التملى والتفكير.. جاء قلق الفكر.. وجاءت عربدة الخواطر.. وجاءت ثرثرة القلم.

سجلت أذن ماعنّ لى وهو رأى.. ورأينا اجتهاد.. و«اجتهادنا هو احسن ما قدرنا عليه فمن قدر على غيره فله ما رأى ولنا ما رأينا» كلمات وضاءة لشيخ اتعشق فكره.. أبو حنيفة النعمان شيخ المبتدعين، وإمام الراشدين، بين فقهاء المسلمين..

والآن وقد فرغت من التسجيل فلا مشاحة من أن أقف قليلا، قبل أن أوالى الحديث فى وقت لاحق ـ بعون من الله ـ حول الصفوة الإدارية.. حول العجل المقدس الذى يسمونه بالخدمة العامة، أقف الآن قليلا لأختصر فى خواطر عشرة ما ثرثرت به فى مقالات عشر.

تحول حضارى.. وفارق أسطورى

الخاطر الأول هو أن السودان، شأنه شأن كل بلاد العالم النامية، يعيش فترة من فترات التحول الحضارى.. ودور الصفوة.. دور القيادة.. دور الحكام.. فى كل هذه البلاد هو التمكين لهذا التحول ـ الذى هو قدر ومصير ـ من أن يتم بلا مضاعفات ولا أرتجاج اجتماعى.. وفى مجتمع كالسودان يعيش نصفه فى بداوة متخلفة.. ويعيش نصفه الآخر فى مرحلة الركود التاريخى.. مرحلة ما قبل التخلف يصبح مثل هذا الأمر شيئًا أشبه بمحاولة تربيع الدائرة..

بيد أن تجارب الإنسانية المعاصرة تقول أن مثل هذا التحول أمر جد عسير.. وأمر جد سهل.. سهل لأن التقدم العلمى والتقنى قد وفر لنا من الوسائل والخبرات ما لم يؤت للعالم فى أية مرحلة من مراحل تاريخه.. ولأن التعاون الدولى قد وصل شأوا لم يصله من قبل.. ولأن الصلات بين الدول والشعوب قد اكتملت بصورة لم تعرفها

الإنسانية من قبل.. وهكذا يسهل على الشعوب تبادل الخبرات.. ونقل المعرفة.. ومناشدة العون.

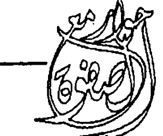
والتحول الحضارى صعب لأن الفارق بين التقدم والتخلف فارق أسطورى.. ويزداد أسطورية ليس فقط فى مظاهر الغنى والثراء بل وفى جوهر التقدم والتطور.. والتخلف نفسه حلقة مفرغة فتخلف المجتمع ليس إلا انعكاسا لعدم فعالية الأفراد فيه، وعدم فعالية الأفراد من أسبابها الهامة انعدام المنهج الأصلى والأسلوب العصرى.. هذا التحليل يقود بالضرورة إلى الحقيقة الثانية.. إلى الخاطر الثانى.

جمباز عقلى:

التحول الحضارى فى مجتمع العلم والتكنية لا يتم إلا عن طريق دولة عصرية.. والدولة العصرية لا يقودها إلا القلة التى تعيش ـ أو تكاد تعيش فى العصر.. إذن فالمسئولية الرئيسية للتحول تقع على عاتق الصفوة. ولكن الصفوة أقلية مسحوقة.. والدولة العصرية كيان متكامل له مناهجه وله رسائله، وله اخلاقياته.. وكلها غريب على المجتمع الذى نريد تسخيرها لخدمته.. إذن فالسؤال هنا: كيف يمكن لنا التوفيق بين الدولة العصرية والمجتمع البدائى المتخلف.. سؤال لكيما نجيب عليه لابد أن نجهد أنفسنا فى شىء من «الجمباز» العقلى.. لابد لنا من دراسة سوسيولوجية المجتمع.. لابد لنا من دراسة بنيته الحضارية.. قيمه.. اخلاقياته.. تصوراته.. فدون هذه الدراسة تصبح الأجهزة التى نبتدعها كيانا غريبا فرض من عل، وتصبح أجهزة السلطة الشعبية مسخا للكيانات الشعبية التقليدية.. الجمباز العقلى إذن هو الخطوة الأولى.. والجمباز العقلى لا يعنى شيئًا غير أن تحتشد الصفوة فى جدية للبحث والتحليل والتقييم.. لخلق المناخ الفكرى.. بل ولخلق الفكر الأصيل..

بين الأصالة.. والانحياز الفكرى:

ولكن الفكر الأصيل يفترض عدم الإنحياز الفكرى المسبق.. بيد أن ارتباط الصفوة فى السودان بثقافة أوربية معينة خلق لونا من الإنحياز الفكرى هو انحياز بلغ عند



البعض حد الاستعباد الفكرى.. استعباد هدد قيم المجتمع الثقافية نفسها.. الإنحياز الفكرى للغرب أصبح تقديسا للفكر الغربى.. وانكارا للجذور الثقافية للأمة.. انكارًا للعروبة.. انكارًا للقومية.. انكارًا للإسلام.. وفى حال كهذا أصبح كل جهدنا تقليد.. والتقليد كما قلت لا يؤدى إلا إلى الهلاك المطلق. السودان أصبح فاقد الذاتية كمجتمع العرب البيضان فى الأندلس.. لا كيان.. ولا وعى بالذات.. بل تقليد عقيم لأهل المشرق.. حتى قال فيهم كاتبهم النابه ابن بسام صاحب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) بأنهم لا يعرفون غير تقليد أعمى «يرجعون إلى اخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتاده حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لحثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما».

والتقليد المهلك هو الذى أودى بالعرب البيضان فى الأندلس. قول ابن رشيق القيروانى فيهم يعرفه تلاميذ المدارس الابتدائية فى السودان.. مما يزهدنى فى أرض اندلس..

والأفكار المستوردة

عدم الإنحياز الفكرى لا يعنى رفض الفكر الإنسانى.. بل أن الإنحياز الفكرى نفسه الذى يصدر عن تحليل علمى.. وتقييم موضوعى.. واختيار واعٍ لهو انحياز محمود.. إذن فالإنحياز الذى أرفضه هو الإنحياز التقليدى الذى هو فى واقع الأمر إذعان فكرى.

بعض مثقفى السودان يكثر الحديث عن الأفكار المستوردة عندما يتحدث الناس عن فكر بعينه.. وعن تجارب بعينها.. عندما يتحدث الناس عن الفكر الماركسى.. والتجارب الاشتراكية.. وهذه حقيقة.. فالفكر الماركسى فكر مستورد.. والتجارب الاشتراكية تجارب مستوردة.. ولكنهما فكر مستورد وتجارب مستوردة بنفس القدر الذى يمكن للمجتمع أن يعتبر فيه أن اللبرالية الغربية.. ونظرية المبادرة.. ونظرية رجل الأعمال كلها فكر مستورد.. وبنفس القدر الذى يمكن للمرء أن يعتبر فيه أن التجربة

البرلمانية الغربية تجربة مستوردة.. فاللبرالية لم تنحدر إلينا من عرب الطائف أو من بنى عبد شمس بل جاءتنا من صالونات اليعاقبة ومحاورات عصر الفردية فى أوربا.. والتجربة البرلمانية لم نرثها عن مملكة المقرة أنما تعلمناها من فقه أوروبا الدستورى وتاريخه.. كلاهما إذن فكر مستورد.. ولكن كليهما يمثل جزءا هامًا من الفكر الإنسانى الذى لا يمكن لنا إغفاله ونحن نرسم خط سيرنا.

يقودنى هذا إلى الخاطر الخامس..

سلب.. وايجاب

الهدف هو تغيير حضارى.. عن طريق صفوة واعية... تدرك أن فعاليتها لا تكتمل إلا بالإدراك المتكامل لذاتيتها.. والانفتاح الرشيد نحو فكر الإنسانية كله بلا حدود ولا تحيز ولا تحامل.

الانفتاح إذن لابد أن يكون انفتاحا رشيدا.. انفتاحا يدرك أن فى ما يرد إلينا من أفكار هنالك الكثير من الذى لا يمكن لكيان المجتمع أن يقبله.. والمجتمع كأى كائن بيولوجى حى لا يمكن أن يقبل من الأجسام الغريبة إلا ذلك النمط من الأجسام الذى يمكن أن ينصهر فيه.. أما ما عدا ذلك من أجسام غريبة فمصيرها شىء من اثنين.. أما أن يلفظها الجسم أو تبقى فيه كمصدر من مصادر الهيجان أو التهيج الدائم... درس أولى فى الصحة العامة.. ينطبق أيضًا على الكيانات «المجتمعية» إن جاز التعبير..

لكيما نطبق هذا على واقع الحال.. فبالديمقراطية والاشتراكية سنضرب الأمثال.. فالحديث عن الفلسفتين فى دوائر السياسة فى السودان يجعل المرء يحس بأن الناس يتحدثون عن غيبيات.. يجادلون فى حوار ميتافيزيقى.. حرية الفكر ماذا تعنى فى بلد ٨٠ فى المائة من أهله أميون.. حرية التجمع النقابى ماذا تعنى فى بلد ٨٠ فى المائة من أهله يعيشون إما فى عطالة سافرة أو عطالة مقنعة.. حرية الفرد ماذا تعنى فى مجتمع الوحدة الأساسية فيه ليست هى الفرد بل المجموعة.. الأسرة.. صراع

الطبقات ماذا يعنى فى مجتمع لم تبرز فيه بعد الطبقات الاجتماعية البروز الذى عرفته مجتمعات أوروبا ..... كل هذه أسئلة ملحة.. جوابها لا يكمن بين دفات كتب القانون الدستورى.. ولا بين صفحات جريدة (الايكونومست) وهى مصدر من مصادر المعرفة الاقتصادية - لا الإعلام الاقتصادى - عند الكثيرين - ولا بين مؤلفات الفكر الاشتراكى شرقيا كان أم غربيًا..

الإجابة على هذه الأسئلة جميعها تكمن فى ضمير الأمة ويوم نبدأ بالتساؤل.. ونبحث عن الجواب فى فطانة.. سيصبح الفكر الإنسانى سلاحًا فعالاً.. سندركه يومها أدراكًا واعيًا ونطبقه تطبيقًا رشيدًا.. فى إطار واقعنا وظروفنا.. سندرك أن هذا الفكر ليس كله خيرًا وليس كله شرا مستطيرا.. فيه السلبى.. وفيه الإيجابى.. والأمر أمر اختيار بصير....

■■■

(2)

الأفكار.. والإفراز اللفظى

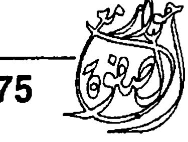
سندرس إذا دراسة واعية.. وسنختار نظامًا.. سنختار ديمقراطية.. وسنختار اشتراكية.. ولكن الأمر لا يقف هنا فالأفكار ليست بإفراز لفظى.. إنها أسلوب حياة.. أنها التزام فنحن نتحدث عن الديمقراطية وندعم كل المؤسسات والأخلاقيات التى من شأنها هدم الديمقراطية.. الفردية.. التسلط... الاستعباد العاطفى للجماهير.. اغتيال كل المؤسسات الديمقراطية داخل الأجهزة الحزبية.

ونحن نتحدث عن الاشتراكية ونحيا حياة كل قيمها وممارساتها وتطلعاتها برجوازية.. برجوازية فى الفكر.. وبرجوازية فى أسلوب الإنفاق وبرجوازية فى المطامح.. ليس هذا فحسب بل أن ما نمارس وما نطمح إليه قد أدى إلى خلق شعور غريب على المجتمع السودانى.. شعور الاستعلاء الطبقى الذى تبدو مظاهره ليس فقط فى أسلوب الحياة بل وفى قيم الحكم التى نسعى جاهدين لغرسها.. هذا خطر كبير داهم.. ولأتحدث عن جانب واحد منه وهو مفهوم الصفوة السياسية.. الوضع الاجتماعى.. وهذا خاطر سابع.

«الشغيلة»... والحكم

لو سألنى سائل ما هى أهم الأحداث السياسية عقب الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٤ .. أهم الأحداث فى إطار التصور التاريخى المستقبلى لا فى إطار الأحداث

(*) الأيام: ١٩ فبراير سنة ١٩٦٩



المعاصرة.. لقلت إنه قيام حكومة اشترك فيها العمال والفلاحون.. اشتراك الحزب الشيوعى فى الحكم ليس بهذا القدر من الأهمية فى إطار التقييم الاجتماعى والتاريخى لأن الحزب الشيوعى حزب صفوة وقد ظلت الصفوة تحسبه دائما كجزء منها..

لقد ظل الوسط السياسى فى السودان دوما يحسب الحكم - فى أحسن الأحوال - تكليفا لصفوة لابد أن تنتمى لطوائف اجتماعية معينة.. أو فى أغلب الأحوال تشريفا لا يستحقه من ينتمون لطبقات بعينها. أما الإدراك بأن الحكم وممارسته أمر يجب أن تشارك فيه كل القوى ذات الوزن فى المجتمع الجديد وبالحكم أعنى مراكز النفوذ.. مراكز التقرير.. إدراك لم يجد طريقه إلى عقول الصفوة.. والصفوة السياسية فى السودان تعنى المهنيين.. تعنى زعماء الدين.. تعنى زعماء القبائل.. وتعنى رجال الجيش، ليس فقط منذ نوفمبر ١٩٥٨ بل منذ عام ١٩٢٤.

أود أن أبادر فأقول بأننى أقوم هنا بتحليل اجتماعى لحقيقة تاريخية ولا أصدر حكمًا سياسيًا، هى مشكلة راهنة سيما وأهل السودان فى حديث عن التمثيل البرلمانى للعمال والمزارعين.. فهذه أمور لا تشغلنى لأنها ليست بذات موضوع.. فقبل النيابة والوزارة على من يريد أن يرسم دستورًا أن يحدد لماذا يريد أن يحكم قبل أن يحدد كيف تكون صورة الحكم... أعود إلى تحليلى إذن لأقول أن الصفوة ظلت ترفض اعتبار العمال والفلاحين قوى حقيقية يجب أن تشارك فى مراكز القرار..

حتى الاستعمار كان أكثر إدراكًا لقوة الحركة العمالية النامية يوم أن أصدر حاكم السودان العام السير روبرت هاو - قراره باختيار ممثل للعمال من بين العشرة أشخاص الذين عينهم كأعضاء فى المجلس التشريعى.. أشير هنا للسيد فضل بشير.. ومهما كان من أمر ظروف ذلك الاختيار.. ومهما كان أمر من اختير فإن الذى تعنينى الإشارة إليه هنا هو اعتراف النظام اللبرالى العفوى بالوجود السياسى للصفوة العمالية باعتبارها قيادة لقوة أساسية فى المجتمع لا يمكن إنكار وجودها. وقد ظلت

الصفوة تحت ظل النظام اللبرالى وغير اللبرالى تدرك القوة الحقيقية للكيانات العمالية، وبالتالى تمكن لقياداتها - متى ما أهلتها لذلك كفاية - أن تحتل مكانها فى مراكز التقرير وفى أعلى المستويات دون اعتبار للوضع الاجتماعى.. يصدق هذا على قوى اليمين واليسار.. أحمد بن جلون فى المغرب.. فرحات حاشد وأحمد بن صالح فى تونس.. بشير بو معزة فى الجزائر.. سيكتورى فى غينيا..، وحزب العمال البريطانى تدرك قيادته دومًا بأن «الوجود النقابى» فى مراكز التقرير إنما هو ضرورة بالرغم من التأييد شبه المطلق التى تضمنه النقابات للحكومة العمالية... اختيار رأى فنتر كوزير للعمل وكزنز كوزير للبحث العلمى كانت هذه دوافعه، اختيارهما من خارج البرلمان ومن خارج «الوزارة الظل» ووضعهما كوزيرين رئيسيين..

ومرة أخرى أقول إننى لا أشير هنا لدكتاتورية طبقة أو حكم طبقة وإنما أشير لظاهرة استعلاء طبقى..

والحديث عن العمال مثال.. مثال للاستعلاء الطبقى الذى أخذ يزداد بروزا.. وهو استعلاء تحسب الصفوة المثقفة أنه حق مشروع لها بفضل مركزها الممتاز.. هذا يقود إلى الخاطر الثامن.

الثـورة الثقافيـة

خطأ الصفوة هنا.. بل جريمتهم هى الظن بأن الامتياز هذا حق موروث.. وهذا الاتجاه فى واقع الأمر إنما هو انكار للتضحيات التى قدمها الشعب ليمكن لأبنائه أن ينالوا ما نالوه.. هى انكار لحق الشعب فى أن يسترد دينه.. وهو دين لا يمكن استرداده إلا إذا أدركت الصفوة بأن تقدم المجتمع لا يتحقق إلا بالجهد الدائب للتنمية.. وأن التنمية لا تتحقق بلا تضحيات.. وأن التضحيات لا تملك وسائلها غير الصفوة.

إذن فمن واجب الصفوة تذكير نفسها دومًا بأصولها.. كان عمر بن الخطاب كلما أخذته عزة فى نفسه يخرج إلى الناس ويقول «أيها الناس لقد رأيتنى أرعى غنم خالات لى من بنى مخزوم لقاء حبات من تمر أو قبضات من شعير».. فى قاموس

السياسة المعاصرة نسمى هذا بالثورة الثقافية.. فى هذا الإطار لا أضحك استهزاء كما يفعل الذين يقرأون «النيوزويك» ـ لا أضحك عندما أقرأ أن لين بياو قد أصدر أوامره لجنرالات الجيش الصينى أن يعودوا إلى مقاصف الجيش لطهى الطعام وخدمة الجنود مرة فى الأسبوع.. يصدر أوامره ويقول «إننى شهدت لدى بعضكم إحساسًا بالاستعلاء على الجنود نتيجة وضعكم التنظيمى علمًا بأن ما لكم من امتياز قد قضت به اعتبارات التنظيم لا التميز الاجتماعى.. عودوا إلى المقاصف حتى لا تنسوا أصولكم البروليتارية».

هذا منطق لا يمكن لنا أن نفهمه فى سودان الديمقراطية وحرية الفرد وصيانة الاستقلال ضربت المثل بعمر.. وتحدثت بالأمس عن الإمام المهدى مع محمد خير وأبو عنجة والنجومى... أقوالنا وأفعالنا.. شعاراتنا وسياساتنا... كلها تناقض.

... إن هذه العناصر قد اجتمعت لتؤدى بالسودان إلى ما هو عليه اليوم. البلد ذو الإمكانيات الحافلة أصبح كما مهملا.. نفقت تجارته وبار زرعه... البلد الذى قدم للعالم أولى حضارته المستقرة على ضفاف النيل لم يجد مثقفوه من موضع لهم إلا موضع الأقعاء المستخذى أمام أوروبا كما تقعى الكلاب الجرباء.

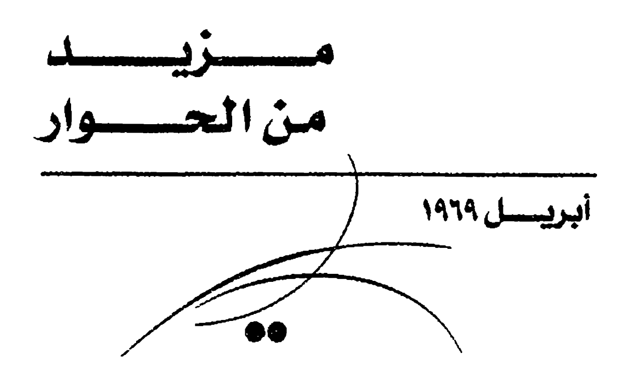
هذه هى الصورة القاتمة.. وهى صورة لا تقود إلا إلى نهاية واحدة... هذا هو خاطرى الأخير.

القارعــــة

إن شعب السودان لشعب عملاق وقادر على التضحية... بل ولشعب لم يعرف فى حياته غير التضحيات.. فمن حقه إذن أن يرجو من قادته أن يقدموا له أكثر مما قدموا.. ومن حق قادته عليه أن لا يسرفوا فى استغلال صبره.. كان أبو الدرداء قاضيا نزيها، وحاكما عادلا.. كان يقول إننى لا أظلم أحدا ولكن أخشى ما أخشاه أن أظلم من لا يستعين على إلا بالله العلى القدير.. إذن فمن حق قادته على أنفسهم ـ أن لا يدفعوا بشعبهم لأن يستعين عليهم بالله العلى القدير... أن لا يدفعوه لرفع يديه إلى

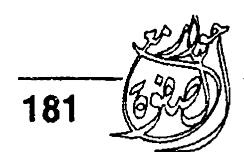
السماء.. «ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا.. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا».. من حق قادته على أنفسهم أن لا يدفعوه لهذا فتاريخ الإنسانية القديم والمعاصر يقول بأن صوت الشعوب من صوت الله.

■ ■ ■



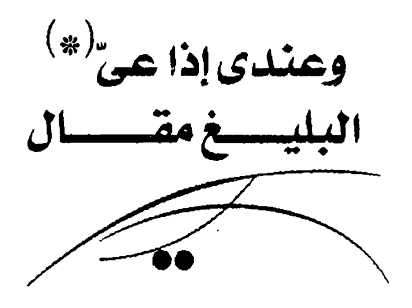
مزيد من الحوار

أبريل ١٩٦٩





وعندى إذا عىّ(*)
البليـــغ مقـــال



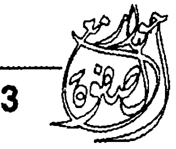
أحداث السودان

أبى القلم أن يطاوعنى شهرًا وبعض شهر... شهر وبعض شهر احتشدت فيهما لأسجل بعض الخواطر التى عنت لى وأنا أتابع خلال عام كامل أحداث السودان.. أتابعها من بعد جغرافى، وقرب وجدانى... اتابعها فيما اقرأه من رسائل الصحاب فتدهمنى أنباؤها كالحة سوداء كصريم الليل.. وأتابعها فى أحاديث الوافدين فتتبدى لى صورها سيريالية كخيالات السكارى وسمادير المدمنين.. وأتابعها فى ما يقع فى يدى من صحف السودان فينتابنى غثيان وأنا أقرأ عن سفاسف الأمور التى تملأ الدنيا، وتشغل الناس فى تلك المليون المربعة من الأميال التى أضحت، بسبب ابنائها، كتلة من الطين الآسن ترقد فى قلب أفريقيا.

الـرأى العـام المستنير

وأبحث بين كل هذا عن الرأى العام المستنير فلا أجد فيه غير غافل أو كاظم غيظ... غافل صفت له الحياة صفوها فى توهم أهل المدينة الجاهلة عند الفارابى.. والمدينة الجاهلة ضد المدينة الفاضلة وغير المدينة الضالة.. المدينة الجاهلة هى التى «لم يعرف أهلها السعادة، ولا خطرت ببالهم. وان أرشدوا إليها لم يقيموها ولم يعتقدوها وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهرات خيرات كالجاه، وسلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات.. وكل واحدة من هؤلاء سعادة عند أهل الجاهلية».

(*) الأيام: ١٦ /٤/ ١٩٦٩



وقــادتــه

وابـحث بـين كل هـذا عن قـادة الـرأى الـعام المسـتـنيـر فـأراهم يـتـعـادون فى مـراد النفوس.. ويتفانون فى مظاهر الوجاهة... ويتنافسون كالضرائر فى عرض الدنيا.. وأى مراد، وأى وجاهة، وأى عرض.. فى بلاد نبتها عشر وطلح وأكثر صيدها ضبع وديب.. ضعف الطالب والمطلوب.

الرسائل الثلاث

ويأبى القلم أن يتابع شهرا وبعض شهر.. ثم تجىء رسائل الصحاب من جديد.. فتثير ثلاث منها إحساسًا دفاقا فى نفسى لا أملك له ردا. رسائل من صحاب ثلاثة اختلفت بينهم المذاهب ولكن جمعتهم الأزمة النفسية القاتلة التى يحياها كاظمو الغيظ.. عصبة من أولى العزم، هم واخوتهم فى كل مكان هم آخر حصون الدفاع عن الوطن المنهار.. ومن حق ثالوث الأصدقاء على أن لا تكون رسائلهم موضوعًا ينشر على العالمين.. ولكن من واجبى أن أذكر من يقرأ من أهل بلادى بأن هناك قلة مازالت قلوبهم تنبض بحب هذه الأرض.. ومن عليها.

مناجاة.. القادرين

كتب الصديق الحميم جمال محمد أحمد... ذلك الفؤاد الذكى، والعقل الوضىء كجمانة البحرى.. كتب يقول: «وددت أن أسمع منك عن حالنا.. تراها على البعد.. نراها تعيسة من هنا وإن كنا لا نحب لنستسلم.. ما كنت أعرف أنى فى وجدانى مؤمن.. أصلى.. أصلى بأسلوبى.. أكتب»..

.. واحسرتاه.. لم يبق للقادرين غير المناجاة..

وحديث محيى الدين أثار فى النفس لواعج وذكريات.. ذكريات عادت بى إلى ليلة صيف نديانة ونحن نذرع الطريق على حفافى السين.. نتحدث حديثا لاهفا عن طقعة الطين الآسن التى ترقد فى قلب أفريقيا.

.. يقول محيى، فى عزم متفائل، وهو يرسل ببصره بعيدًا إلى نوتردام التى تقف قبالتنا سامقة يضمخها عبير القدم.. سأعود وأقتحم العقبة.

ـ قلت وما أدراك ما العقبة..

ـ قال إن ضميرى يقلقنى.. المثقف السودانى أما انتهازى أو هارب.. ولابد أن يكون هنالك مكان لطائفة ثالثة..

ـ قلت لا مكان لطائفة ثالثة فى هذا الإطار..

وإن جاز لى أن أعزيك وأتعزى معك فسأقول إن الهرب إلى باريس أشرف من الهرب إلى المقرن وما حوله من خمارات يعرج عليها أشقياء البلد... باريس يا صديقى تحفظ لك بكارتك الفكرية..

.. ودعت صديقى محيى الدين راجيًا له أن لا يناله ما نال أبا حيان التوحيدى.. غربة العالم بين أهله.. وهى «غربة من لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان»... وظللت أترقب.. مكاذبا الظن.. ظللت أكذب الظن حتى جاءتنى رسالة الصديق الشاعر.. مكذبا الظن.. ظللت أكذب الظن حتى جاءتنى رسالة الصديق الشاعر.. فكانت أشد قسوة وأبلغ تعبيرًا مما كتبه أبو حيان ـ إمام البلغاء فى وصف ياقوت عن مثالب الوزراء.. وإن كانت رسالة أبى حيان إدانة لوزيرين ـ الصاحب بن عباد وابن العميد ـ فإن رسالة صديقى الشاعر ليست بإدانة لأمير أو وزير أو مدير أو عهد وإنما هى كتاب إدانة ضد نظام وهيكل حضارى بأكمله ـ .. قيمه .. تقاليده.. مناهجه.. وأنماطه السلوكية.

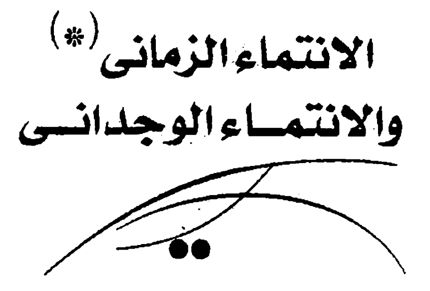
وأقول لثالوث الأصدقاء.. ومن خلالهم للعشرات من الخيرين كاظمى الغيظ إن محنتكم إنما هى محنة توحيدية.. محنة الفاضل الذى يفتقد «الصديق الحبيب، والصاحب القريب، والتابع الأديب، والرئيس المنيب».. «محنة من جاور أناسًا عشرين سنة فما صح له من أحدهم وداد».. وكيف تصح الحياة فى جناب من عدم الأصل، والعقل والندى..

عصانى القلم شهرا وبعض شهر.. ولكن رسائل الصحاب فجرت فى النفس إحساسا لا أملك أنا ولا يملك قلمى له ردا.. سأكتب.. فعندى إذا عيّى البليغ مقال..

■ ■ ■



الانتماء الزمانى (*)
والانتمـــاء الوجدانــى



رسائل الصحاب زادتنى يقينا على يقين بأن أزمة السودان فى جوهرها هى أزمة مثقفين.. فالذى نسميه اليوم بأزمة الحكم فى السودان ليس هو فى واقع الأمر إلا أزمة الحاكمين.. سياسيين كانوا أم إداريين.. وزراء كانوا أم مدراء.

أزمة السودان الحقيقية ليست هى مظاهر الحكم.. وقضية السودان ليست هى صورة الحكم.. ومطلب أهل السودان ليس هو الرئاسة والوزراء والوكالة والنيابة.. أزمة السودان هى التخلف.. وقضية السودان هى التنمية.. ومطلب أهل السودان هو توفير الخبز مع الكرامة.. فلنعد إلى ما شغلنا الناس به حولين كاملين... فى ما كتبنا وأسرفنا فى الكتابة.. وخطبنا وأسهبنا فى الخطابة.. لنعد إلى ما شغلنا الناس به حولين كاملين فى أنديتنا الحزبية، وتجمعاتنا المهنية، ونشراتنا الإنبائية.. كم منها تناول الجوهر وكم منها تناول العرض.. الجوهر هو السودان.. والعرض هو نحن.. الوزراء والوكلاء والمدراء.. وتابعوها بغير إحسان.. كم منها تناول مكاسب الأفراد.. ووطائف الأفراد.. وكم منها تناول جوهر الأزمة الحقيقية.. التطور العصرى.. ما هو طريقه... ما هو منهجه.. ما هى وسائله؟

أزمــة حضاريـــة

خلصت للقول فى أحاديثى السابقة بأن الأزمة التى نعيشها أو نعايشها ـ بتعبير أصدق ـ فلو عشناها بحق لكانت استجابتنا لها شيئًا غير هذه اللامبالاة التى تتبدى

(*) الأيام: ١٨/٤/١٩٦٩



فى كل قرار نصدره.. وفى كل خطوة نخطوها.. الأزمة التى نعايشها هى أزمة حضارية بالمكان الأول.. مهما انشغل الناس بالحديث عن شكليات الحكم، ومظهريات السلطة... والارتجاج الاجتماعى الذى نشهده إنما هو نتاج طبيعى لصدام بين حضارتين.. أو لأقل ثقافتين.. ثقافة تقليدية موروثة تقضى ضرورات النمو الحضارى بتطويرها.. وثقافة عصرية جديدة تقضى ضرورات التطور الاجتماعى والاقتصادى بأن تسود..

وخلصت للقول بأن المجتمعات كائنات حية لا يمكن لنا أن نفصلها عن تاريخها وعن تراثها.. ولا يمكن لنا أن نفرض عليها قسرًا جسمًا غريبًا بطبيعته عنها.. والأجسام الغريبة يجب أن تطوع لتناسب الكائن الحى وإلا كان مصيرها أن تلفظ أو تظل باقية كعامل من عوامل التوتر والتكدير الدائم.. هذه حقيقة بيولوجية أولى.. تصدق على الكائنات العضوية.. كما تصدق على الكائنات الاجتماعية..

إذن فالتطور يجب أن يعنى تطوير تراث الأمة وثقافتها ووضعهما فى إطار العصر.. ويعنى إعادة دراسة تاريخها ووضعه فى اتجاه حضارى تقدمى.. يلخص هذا الحديث قول كير كقارد.. «كيما نفهم الحياة لابد أن ننظر إلى الخلف.. ولكيما نحياها لابد أن ننظر إلى الأمام»... بعبارة أخرى لابد أن ننتمى إلى أمتنا.. وإلى عصرنا.. انتماءا وجدانيا إلى أمتنا.. وانتماء زمانيا إلى عصرنا..

تحليل.. وتخطيط

الانتقال من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أخرى فى مجتمع اليوم ليس بالأمر العفوى وإنما هو حصاد تحليل علمى موضوعى، واحتشاد مقصود، وتخطيط هادف، ووضع للطاقات حيث تقضى ضرورات التنمية والتطور أن توضع.. فحضارة المجتمع العصرى حضارة علم وتكنية.. والعلم يقوم على الموضوعية.. ويرفض القوالب الجاهزة.. ويدرك أن حدود المعرفة لا نهائية. ويؤمن بأن المرهم السحرى الذى يعالج كل داء لا يعيش إلا فى خيالات العواجيز.

والمجتمع العصرى مجتمع تضامنى لا مكان فيه للأنانية الفردية.. مجتمع أصبحت فيه روح المجموعة حقيقة مجسدة وليست حلما هيقليا.. فالاختراع اليوم لا يعرف المخترع الفرد.. لا يعرف فرادى ونيوتن وواط وإنما يعرف جماعة كاليفورنيا فى الكيمياء العضوية وجماعة ماسشوستش فى الفيزياء النووية.. والكشف الجغرافى لا يعرف المكتشف الفرد.. ولا يعرف كولمبس، وبارثلوميو دياز وابن حوقل.. وإنما يعرف مجموعات كيب كندى فى أمريكا.. وبيكونور فى الإتحاد السوفيتى وجوردال بانك فى بريطانيا.

الصفـوة القائــدة

وقيادة المجتمع العصرى المعقد تتمركز بالضرورة فى يد الصفوة.. إذا أردنا تقسيمها بمواقع نفوذها لقلنا إن هناك الصفوة السياسية.. والصفوة الإدارية.. والصفوة التوجيهية.. الأولى تسيطر على المؤسسات السياسية قديمها وحديثها.. والثانية تسيطر على أجهزة الإدارة العامة.. والثالثة يتمركز نشاطها فى دور التربية والتوجيه والارشاد العام.

الصفوة الإدارية والتوجيهية نترك الحديث عنها، بتفصيل، إلى حين.. نتركه لمعالجة لاحقة فى سلسلة مقالات أعكف على كتابتها لا كمال ما بدأت.. ونتناول فيها العجول المقدسة الثلاثة.. الخدمة المدنية القوة الحقيقية التى تحكم وتدير وتوجه.. والجامعة السودانية التى عاشت سنيها الطوال غافية هانئة البال وراء سياج من القدسية المفتعلة.. قدسية لم أجد لها وصفا أصدق من وصف صديقى الأريب الدكتور جعفر محمد على بخيت.. «إن الناحية الأكاديمية الجديرة بالرعاية فى الجامعة مهملة تماما من جانب الرأى العام الذى يعيش على تقديس العلم والكتاب ويخاف أن يتناول هذه الأمور التى ينبغى أن تترك لأصحابها ولكن أصحابها نائمون عنها قانعون بامتيازاتهم ومراكزهم».. والعجل المقدس الثالث هو القضاء.. الذى أصبح مخلوقا يشبه العجل آبيس روح بتاح.. لا يمسه إلا المطهرون..



الصفوة السياسية

أما الصفوة السياسية فتنقسم إلى فصيلتين.. القوى السلفية والقوى الجديدة.. السلفيون تحدثت عنهم وأسرفت فى الحديث فى مقالاتى السابقة.. تحدثت عن عجزهم عن تقديم القيادة الرشيدة للمجتمع الجديد.. وعجزهم عن الانفتاح نحو العصر.. وعجزهم عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث.. ولكن كل هذا لا يكفى كيما نجعل منهم كباش فداء وشماعات أخطاء.

فواقع الأمر أن القيادة السلفية التى لم تعد صالحة لمجتمع النصف الثانى من القرن العشرين أدت دورها التاريخى كأحسن ما يكون الأداء... الدور الذى استطاعوا أداءه بحكم تكوينهم الثقافى، واعدادهم الفكرى، ومفاهيمهم السياسية... ولكن محنتهم أن الأحداث قد سبقتهم.. ومن تسبقه الأحداث عليه أن يعدوا ليلحق بها.. عليه أن يسايرها بالعلم.. وبالمزيد من المعرفة.. وبالانفتاح نحو الفكر الجديد والتجربة الجديدة.. ولكنهم لم يفعلوا.. فبقوا حيث هم فى ثلاثينياتهم واربعينياتهم.. بقوا حيث هم لأن موكب التاريخ لا يقف ليستردف المتخلفين..

أبناء القرن العشرين

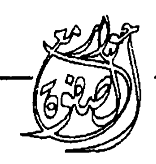
ولكن ماذا فعلنا نحن ابناء القرن العشرين فى مجتمع القرن العشرين.. ماذا فعلنا نحن الذين ننعم اليوم بمكاسب الاستقلال الذى حققه السلفيون.. المناصب الرفيعة التى تسلقها المتسلقون ولا مؤهل لهم إلا جواز سفرهم السودانى أصبحت تشريفًا لا تكليفًا.. الدرجات العلمية الرفيعة التى نلناها بفضل ما اقتطعه العامل والفالح من ضروريات حياته لا من مدخراته أصبحت مؤهلاً للمزيد من الابتزاز.... المواقع التى احتللناها تفضلا علينا من شعب السودان أصبحت مركزًا للاستعلاء عليه وكأننا أبناء الأباطرة من آل هابسبرج والاقيال من آل بوربون... ومع كل هذا لم نجد من بيننا صوتًا واحدًا يرتفع ليقول هونوا عليكم فالعلم لم تنالوه بمال انحدر إليكم من آبائكم

والمركز لم ترثوه عن كابر.... فلنذكر... ولتذكروا.. وليذكروا بأنا جميعا أبناء إماء يأكلن القديد.... هذا هو السودان.... يا صفوة السودان....

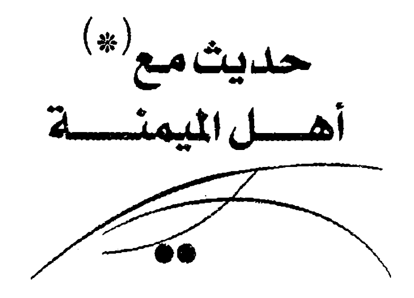
ماذا فعلنا نحن لننقل للمجتمع المتخلف رسالة العلم والتكنية... ونرتقى به إلى مدارج الحضارة الواعدة؟؟ ما الذى فعلناه لخق المناخ الفكرى الصالح... والدراسة العلمية لمشاكله، والتوعية والتبصير بها... وبذر بذور الثورة الحضارية.. وغرس الأخلاقيات العصرية... ودعم التكافل الجماعى... ونبذ الشللية والأنانية؟؟ ما الذى فعلناه فى داخل المؤسسات الإدارية التى نسيطر عليها.... والمنابر الحزبية التى نعتليها... والتنظيمات المهنية التى تنضوى تحت لوائها؟؟ بل ما هو الذى فعلناه من أجل تطوير مؤسساتنا وتجمعاتنا المهنية نفسها؟؟ الارتفاع بمستوياتها الفنية... الحفاظ على الشرف المهنى... محاسبة أنفسنا والأقربين فى المواقع التى نحتلها؟؟ لن أمض فى التساؤل.... ولكنى أعرف أن صفوة السودان قدامى ومحدثين.... سلفيين وعصريين... رئاسة، ووزارة، ووكالة، ونيابة، وصحافة، وحكومة ومعارضة واتحاد كرة قدم، قد ظلت تعذب أهل السودان شهرين كاملين بالحديث عن ما أسمته الصحف السيارة بأزمة وكيل التجارة... فى الوقت الذى كان يعايش العالم فيه... شرقه وغربه... اشتراكييه ورأسمالييه... مجوسه وكتابييه... كان العالم يعايش فيه تجربة أبوللو الثامن.

هل أنا فى حاجة إلى أن أقول إننا لا نعيش فى هذا العالم؟ هل أنا فى حاجة إلى أن أقول إننا لا نعيش مشاكل ما نسميه بالوطن ونردد باسمه الأناشيد... هل أنا فى حاجة إلى أن أقول إننا لم ندرك بعد ما هو الأهم وما هو المهم... هل أنا فى حاجة إلى إن أقول إننا لا نفتقد المعرفة فحسب.. ولا نفتقد معها الإدراك... وإنما نفتقد قبل كل هذا فضيلة الحياء؟؟

■■■



حديث مع(*)
أهـــل الميمنـــة



الإسلام... ومجددوه

ومن بين القوى السياسية الجديدة قوى التجديد الدينى... والتجديد الدينى، فى اعتقادى المتواضع، هو بث الروح فى شرايين الإسلام التى تصلبت واعادته إلى جوهره كثورة ضد التخلف وكعامل من عوامل التحول نحو المجتمع الفاضل..

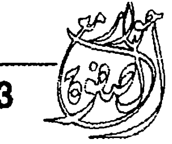
والقوى الدينية تمثل جزءا من الصفوة السودانية.. مجموعة من الشباب توفرت لها أسباب المعرفة.. واتيحت لها منابر التوجيه.. وتمكنت من أن تنفذ إلى معاقل الرأى العام المستتير التى لم يفلح شيوخ الدين السلفيون فى ولوجها..

ودور المجددين فى اعتقادى المتواضع.. هو أن يعيدوا للدين ايجابيته بعد أن سلبه الشيوخ المتحجرون كل مضمون ثورى فيه.. دورهم هو صقل الفكر الإسلامى، وجلاء التجربة الإسلامية لتحويلها من تمتمات يائسة إلى وعى موجب.. ومن تهجدات خائرة إلى قوة دافعة للتحول الاجتماعى.. ومن صوفية راكدة إلى دعوة رشيدة للحوق بركب الحضارة الإنسانية.. دورهم هو أن يعيدوا للإسلام روحه وحيويته لا أن يعيدوا تلقين المسلم أصول عقيدته فهو أعرف بها بفطرته..

الانفتــاح الواعـى

وقد ظللت أتابع ما يقال... وينشر.. ويذاع من أهل الميمنة الجدد... ظللت أتابعه باحثًا عن الرأى الجديد فى المشاكل المشتجرة التى تمس حياة المسلمين.. مشاكل

(*) الأيام: ١٩٦٩/٤/٢١



التنمية... والتحرر الوطنى... والإنتاج... والتربية القومية... والتحول العصرى... والعدالة والتكافل.. ظللت أتابعه باحثًا عن الإنفتاح الواعى نحو تجارب العصر وفلسفاته لأن هذا هو الطريق الوحيد لبث الروح فى الجسد المحتضر وتطهير الفكر من الضلالة والجهالة.. انفتاح كأنفتاح إخوان الصفاء بالأمس.. (أعلم أيها الأخ أن الشريعة قد تدنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات.. ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية.. وأعلم أننا لا نعادى علما من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتابًا من كتب الحكماء.....).

وظللت أتابع باحثًا عن الاستنباط المبدع الذى لا يرتكز على ترديد حديث المتأخرين من الفقهاء وهو حديث لا قدسية فيه، ولا عصمة لقائليه.. وإنما يقوم على التفسير المرهق للآيات والتخريج المزرى منها مما تصبح معه الأحكام سخفًا لا يقبله الفكر الراشد.. وظللت أبحث عن الريادة الدينية التقدمية التى تعترف بمسيرة الإنسان نحو خيره الرافه.. بلا تراجع.. ولا تردد.. ولا تخلف.. ولا نكوص..... (يزاد أناس من امتى عن الحوض يوم القيامة فانهض لأشفع لهم فيقول الله لى لا تفعل.. إنك لا تدرى ما احدثوا بعدك.. أنهم كانوا يمشون القهقرى على أعقابهم).. ظللت أتابع باحثًا عن قراءة واعية للدين.. وفهم واع للعصر.. قراءة ترى فى العلم وسيلة للعمل.. وترى فى العبادة مظهرا حسيا لهدف معنوى اسمى... هو عمل الخير من أجل الإنسان..

روى الترمذى عن أبى هريرة قوله (غزونا على عهد رسول الله فمررنا بشعب فيه عين طيبة من الماء فقال واحد منا لو اعتزلت الناس فى هذه الشعب.. ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله.. فذكره للرسول فقال له لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله خير من صلاته فى أهله سبعين عامًا).

الإطار القديم

ظللت أتابع ما يقال.. وينشر ويذاع فاحسست بغير قليل من الحسرة... إن القوى الجديدة ليست إلا إطارًا حديثًا لصورة عتيقة.. الأفكار هى الأفكار.. والأسلوب هو الأسلوب.

فإن كان الصراع السياسى بين الأحزاب التقليدية هو امتداد للصراع القديم بين الشوقست والفيلست فإن صراع القوى الجديدة هو امتداد للصراع القديم بين الإخوان والشيوعيين فى كلية غردون التذكارية.. وبيوت السودان فى المنيرة والمبتديان.. وكأن السودان لم يكفه الإنشطار الطائفى.. والصراع القبلى.. والتناحر الحزبى كأنه فى حاجة أيضًا إلى أن ينقل إليه مثقفوه المرارة الموروثة من عهد الطب لتضفى على الصعيد القومى صبغة مأساوية جديدة..

وإن كان أسلوب الأحزاب التقليدية هو التهريج الخطابى.. والتوجيه الجماهيرى غير الرشيد.. واستغلال الولاء الموروث.. واخضاع المبادئ والمؤسسات لأهواء الأفراد ونزواتهم واحقادهم فإن الأسلوب الجديد هو المنبريات التقليدية.... والاستنفار الوجدانى والإثارة الجائرة لعواطف العامة.. والارتكار على القوى الدينية السلفية التى أجهزت على كل المعانى الفاضلة فى الإسلام.. الفقهاء التقليديون الذين تحجرت أفكارهم ووقف نموهم العقلى عند إسلام التركمان.. زعماء الدين الذين جعلوا منه بحق وسيلة لتخدير المسلمين واستعبادهم المعنوى واستنزاف طاقاتهم المادية... شيوخ الأضرحة المتبطلون بالوراثة والذين يعيشون حسابا على الدين وكلا على الإنسانية وعبئًا على الحياة...

إن الإسلام ـ بل الأديان السماوية جميعها ـ فى جوهرها ثورات حضارية.. وكل ثورة حضارية هى جهد فكرى وخلقى متطور.. فالإسلام إذن كجهد حضارى متطور يرفض التحجر... وكجهد فكرى واع يحترم العقل.. وكثورة خلقية يفرض أدبه على دعاته قبل منكريه.. يفرض عليهم فضل التسامح والأمانة العلمية، وأدب الخطاب.

داود.. وغوليــاث

إن قوى الإسلام الجديدة فى بلد كالسودان.. ينخر فساد القائمين بالأمر فى كيانه الخلقى.. وتفتت الصليبية الجديدة كيانه الجغرافى.. ويمتص الاستعمار الجديد طاقاته وامكانياته المادية.. ويخلف الاستعمار القديم فى كل ركن من أركانه قنبلة

زمنية.. فى مؤسساته الإدارية ومنشآته التعليمية.. ومناهجه التربوية.. فى بلد كهذه لدى الدعوة الإسلامية من المشاكل ما يملأ يديها دون حاجة لأن تتصرف إلى القضايا الجانبية وافتعال المعارك القديمة.

إن مشاكل المسلمين فى السودان عديدة وليست الشيوعية واحدة منها ثم ما هى هذه الشيوعية وما هو هذا الإلحاد اللذان نعترك ضدهما؟؟ إن الشيوعية كنظرية إنما هى فكرة إدانتها حماقة، تماما كإدانة نظرية داروين.. وأفكار فرويد.. وإن الشيوعية كنشاط إنما هى تجسيد لواقع فى مجتمع قبل ويقبل جميع ألوان الطيف السياسى.. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. فإن كان هنالك يمين سلفى متطرف يتمثل فى الطائفية أو القبلية فإن طبيعة الحياة تقضى بأن يكون هناك يسار متطرف يتمثل فى الماركسيين على اختلاف مشاربهم.. نظرية نيوتن فى الطبيعة عن الفعل ورد الفعل تصدق أيضا على الكائنات الاجتماعية.. وهذه حقيقة اجتماعية قبلناها أجمعين.. من فى الحكم ومن فى المعارضة بالرغم من كل رايات محاربة الالحاد التى ترتفع وتنخفض.

والواقع الاجتماعى هذا لم يكن واقعا قبلناه فحسب.. بل واحتضناه واحطناه بالرعاية يوم أن كانت لنا مصلحة فيه.. قبله الاتحاديون بالأمس ساسة وزعامة دينية يوم أن اسلموا الشيوعيين زمام جبهة الكفاح.. وقبله الاستقلاليون بالأمس ساسة وزعامة دينية يوم أن اسلموا منابر حزب الأمة الشيوعيين وخطيبهم الوسيلة الذى كان يردد من منابر حزب الأمة (وراءنا العمال والفلاحون وجماهير الأنصار ذات البأس الشديد)... وقبلتهم الأحزاب التقليدية جميعًا كقوة ذات وزن وفعالية خلال الجاهلية العسكرية.. وقبلتهم الأحزاب جميعها كحقيقة اليوم.. بقبولهم لزعيم التنظيم الشيوعى كعضو فى المجلس النيابى وتبادل الحوار الدائب معه عندما تكون المصيبة.. وإذا تكون مصيبة أدعى لها..

نحن إذن أمام حقيقة اجتماعية.. والحقائق الاجتماعية تعيش لا بفضل القانون بل بالرغم من القانون، لأن القوانين التى ترفض الاعتراف بالواقع قوانين وضعت

لتخرق.. وليس أدل على ذلك ما نشهده اليوم.. فبعد أكل ما أثير من فتن.. وانتهاك الدستور.. وسطو على الحقوق الأساسية وطعن جائر فى حرمة المحاكم.. بعد كل هذا تقبل نفس القوى الحوار والجدل بل وتنشد التحالف مع من اسمتهم بدعاة الإلحاد..

حرب الساحرات

ومثل هذا الأسلوب فى محاربة الخصوم الفكريين قد ينحرف فى الغالب الأعم إلى حرب ضارية ضد كل خصم سياسى.. حرب ضد الساحرات المهومات.. ولدينا نموذج حى لهذا فيما قال الأستاذ محمود محمد طه.. وهو رجل مسلم ملىء بالإيمان حتى المشاش، ومفكر يشرف الفكر الإسلامى.. رجل مثل محمود لم ينج من تهمة الزندقة لجسارته الفكرية ولمحاولته الرائدة فى وضع الدين فى إطار العصر.. والحرب ضده حرب غير أمينة وليست من أخلاق الإسلام فى شىء.. حرب تنقل القضايا الفلسفية الفكرية فى أسلوب غير أمين إلى الشارع ليتجادل فيها العامة الذين لا يملكون المواعين الفكرية لاستيعابها.. بعبارة أخرى ينقل الحديث نقلاً خاطئًا إلى الأذن الخاطئة لتفهمه الفهم الخاطىء وتنفعل به الإنفعال الخاطىء.

فمفاهيم الأستاذ محمود محمد طه الفلسفية مفاهيم يقبلها القابلون ويرفضها الرافضون، ولكن الحقيقة الهامة هى أن هذه المفاهيم هى امتداد للفكر الإسلامى.. بل أذهب لأقول إن الأستاذ محمود هو السياسى السودانى الوحيد فى مواقع اليمين الذى يفكر برأسه ويأتم بعقله.

يرتجى الناس أن يقوم أمام ناطق فى الكتائب الخرساء
كذب الظن لا أمام سوى العقل مشيراً فى صبحه ومساء

ولو كان دعاة التجديد أمناء لدعوتهم لرأوا فى الرجل، مهما اختلفوا مع اجتهاده، وأنا اختلف مع الكثير من اجتهاد محمود السياسى كما سأفصل فى حديث لاحق - أقول لو كانوا أمناء لوجدوا فيه ذخيرة فكرية ضخمة يمكن أن تسهم فى وضع

الإسلام فى إطار العصر أكثر من أن يجدوا فيه خصما عنيدا مشاغبا.. ولو كان الكثير من المثقفين الآخرين الذين يصدرون الأحكام الفطيرة على الرجل على أساس شائعات المآتم وحفلات الزفاف دون أن يقرأوا حرفًا واحدًا مما كتب قراءة العالم الرشيد.. لو كان هؤلاء المثقفون قد ألموا بأبجديات الفكر الإسلامى إذن لكانت أحكامهم على الرجل شيئا آخر غير اتهامه بالخطرفة والجنون والإدعاء الزنديق.

فالرجل ـ وهو المفكر السياسى الوحيد بين ظهرانيكم ـ لم يبتدع مبدأ اجتلاء الحقيقة بالتأمل.. ولم يبتدع مبدأ اتصال العقل الإنسانى بالعقل الفعال.. ولم يبتدع مبدأ الأداء الباطنى للفرائض.. هذه جميعها مرتكزات أساسية للفلسفة الإسلامية.. ومبادئ عامة نجد لها صدى عند كل قمم الفكر والفلسفة الإسلامية.. ابتداء من الغزالى وابن رشد إلى البسطامى والرومى.. نجدها عند ابن سيناء فى (مقامات العارفين) «ولكن جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد أو يطلع عليه الخلق إلا واحدًا بعد واحد» وعند ابن القيم فى (مدارج السالكين):

«إن هذا العلم مبنى على الإرادة فهى أساسه ومجمع بنائه وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهى حركة القلب ولهذا سمى علم الباطن».. وعند ذى النون المصرى «عرفت ربى بربى ولو لا ربى ما عرفت ربى».. وليست هذه طلاسم بل تلخيص لفلسفة متكاملة تقوم على العلم والمعرفة.. معرفة العامة ومعرفة الحكماء ومعرفة الأولياء.. الأولى بالتقليد والثانية بالتعليم والاستدلال والثالثة بالإلهام.. ونجدها عند الحسين بن منصور الحلاج الذى يقول فيما قال، إن الحج ليس بفرض من فروض الإسلام ينبغى اداؤه.. هذا هو الحج الظاهر انتقال المسلم من بلده إلى مكة.. أما الحج الروحى فيحدث عند من صفت أرواحهم فيستشعرون انتقال الكعبة إليهم.. ونجدها عند محيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى وأبو يزيد البسطامى.. وهم يقولون بأن الأديان جميعها أسماء لحقيقة واحدة.. فروع من أصل واحد.. فاليهودية والنصرانية والإسلام أسماء مختلفة لنفس الحقيقة.

والدراسة الواعية لهذه الأفكار تضع هذه المبادئ الفلسفية بجانب أروع ما وصلته الفلسفة العقلانية الأوربية.. ولكن جهل فقهاء المسلمين القدامى والمحدثين.. وتقاعسهم عن البحث الجاد.. وتقديسهم للحرف المكتوب.. وعبوديتهم للخرافة الدينية الموروثة قضت عليهم أن يهابوا الجديد ويخشونه..

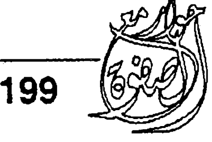
لقد ذكرت وأنا أسجل خواطرى حديثا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حول عصور الظلام فى الإسلام.. ذكرته فعدت إليه لأجد فيه ـ واحسرتاه ـ صورة للسودان فى الستينات.. كتب الإمام فى سفره العظيم (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)..

«أنه عندما بدأ الضعف يظهر بين المسلمين بسبب الجهل والجمود على القديم حدث الغلو فى الدين، وثارت الفتن بين الناظرين فيه وسرت عدوى التعصب بينهم، وسهل على كل واحد منهم لجهله بحقيقة دينه أن يرمى الآخر لأدنى شبهة بالكفر والزندقة. وكلما زاد جهلهم بدينهم زاد نفورهم من العلم والنظر. وساد بينهم الاعتقاد بالعداوة بين الفلسفة والدين.

«ولم يقف الجهل والجمود بالمسلمين عند تكفير الذاهبين مذاهب الفلاسفة بل جاوزه إلى العدوان على أئمة الدين أنفسهم فقد حملت كتب الغزالى إلى غرناطة. وبعد ما انتفع بها المسلمون ازمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة، وانطلقت السنة البربر بتفسيق حجة الإسلام الإمام وتضليله فجمعوا كتبه ووضعوها فى أحد ميادين المدينة واحرقوها» حرب الساحرات يا أهل غرناطة السوداء سمة من سمات مجتمعات الظلام والتخلف والجمود.

المجددون ورجال الدين

والحديث عن الأستاذ محمود يقودنى بالضرورة للحديث عن ظاهرة رجال الدين وهى ظاهرة بابوية لم يعرفها ولا يعرفّها الإسلام.. فمفهوم رجل الدين مفهوم موروث من جاهلية الترك غذاه وأبقى عليه الاستعمار. ومظهر رجل الدين.. العمامة



والقفطان المزركش والحزام المقصب مظهر موروث من الأعاجم هو الآخر.. فالإسلام لم يعرف رجاله الأوائل هذه الظاهرة البابوية.. رجاله الأوائل كانوا رجالاً مثل مصعب بن الزبير.. مصعب الخير شعث الرأس فى برده.. «لقد رأيتك بمكة وما بها أرق حلة ولا أحسن لمة منك ثم ها أنت اليوم شعث الرأس فى برده.. إنى رسول الله أشهد أنكم الشهداء يوم القيامة».

وقضـاة الشــرع

من بين رجال الدين هؤلاء طائفة قضاة الشرع.. وما كنت أود أن أتناولها بالحديث لولا أحداث الأشهر القليلة الماضية.. ما كنت أود أن اتناولها بالحديث لو اقتصرت على أداء واجبها كموظفى دولة يتقاضون رواتبهم من مال دولتهم التى تجبيه، فيما تجبى من ريع بيع الخمور.. (حاشية: فيما ورد أن الإمام المهدى قد رفض طعام شيخه محمد الخير لأنه يبتاعه بمال تقطعه عليه حكومة الترك).. نعم ما كنت لاتناولهم لو اقتصروا على أداء واجبهم الذى يحدده لهم القانون.. قضاة أنكحة وميراث.. قانون وضعه الاستعمار وارتضاه الذين ورثوا الأرض من بعده.. وهو قانون لا يملك أن يحدد للمسلمين ظلال الله على الأرض.. كتب التاريخ تقول إن هذه الظلال قد انحسرت بانحسار ملك آل عثمان.. ولا يكفى ـ حسب تقديرى المتواضع أن يقوم مواطن فاضل بدراسة الشريعة الإسلامية دراسة وظيفية ثم يرتدى قفطانا ويتمنطق بحزام ويضع على رأسه عمامة وفى يده مسبحة كهرمان.. لا يكفى هذا ليجعل من المواطن الفاضل حفيظا على دين الله.. هذه هى الصورة التى أراد الأعاجم والاستعمار من بعده أن تنطبع فى رؤوسنا عن الدين ورجل الدين.

وقد يكون من بين رجال الشرع علماء شرفاء فاضلون ـ وأنا أعرف الكثير منهم.. ولكنى أتحدث هنا عن هذا الفضل الوظيفى.. أما الآن وقد أرادت المؤسسة الشرعية أن تخرج للناس كقوة ذات وزن سياسى تريد أن تدلى بدلوها فى مشاكل المجتمع ـ وهذا أمر جيد لا مرية ـ فمن واجب كل الخيرين أن يشاركوا فى الحوار الجاد لبناء

المجتمع الجديد.. أما الآن وقد أرادت المؤسسة الشرعية أن تستخدم مركزها الموروث لإصدار الأحكام عن الدستور والأخلاق والقيم والتربية الفاضلة والحفاظ على دين الله... أما الآن فمن حقنا أن نذكر بضع حقائق أولية... والذكرى تنفع المؤمنين.. من حقنا أن نذكر أن الذين يصدعون بالحق عليهم أن يبدأوا بالكبير قبل الصغير وبالمريد قبل المستضعف.. وبالخطير قبل الحقير..

نريد ـ وقد خرجتم من إطار سلطانكم المشروع كقضاة انكحة وميراث ـ نريد أن نسمع حكم الإسلام فى الغى الموفى بأهله على النار والذى يعيشه أهل السودان كما سمعنا حكمكم بالأمس فى ردة المستضعف محمود محمد طه.. نريد أن نسمع حكم الإسلام فى الأمير الكاذب والوالى الظالم.. والوزير السفيه.. وللإسلام حكم فى كل هؤلاء.. «سيكون بعدى أمراء تغشاهم غواش فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه».. وأنا أعيذكم بأن لا تكونوا من صحب محمد.. نريد حكمه فى السفاه السياسى الذى نعيشه اليوم وهو سفاه شيوخ لا حلم بعده.. شيوخ يرتدى بعضهم قفطانا مثلكم.. ويتمنطق بحزام مثلكم.. ويضع على رأسه عمامة كشأنكم.. والسفاه يوجب الحجر فى شرع الأئمة الأربعة.. نريد حكمه فى القاضى الماجن وهو منكم على مرمى حجر.. والطبيب الجاهل وصفحات الصحف تنضح بالأنباء عن ضيعة الحياة فى مستوصفات السودان.. والمكارى المفلس ودولتكم تكارى وهى لا تملك سداد التزامها اليومى.. للإسلام حكمه فى كل هؤلاء.. ولست فى حاجة إلى أن أذكر فقهاء الحنفية بفقه الحنفية.. فمحاكمكم تلتزم قضاء الصاحبين.. وتنهج نهج الشيخين.. وتسير بهدى الطرفين.. روى السرخسى فى المبسوط عن أبى حنيفة «أن الحجر واجب على القاضى الماجن، والطبيب الجاهل والمكارى المفلس.. لأن الأول يفسد على الناس أجسامهم والثانى يفسد عليهم أديانهم والثالث يفسد عليهم أموالهم».

نريد حكم الإسلام فى كل هذا.. وهو خطير الأمور.. وأنا أعيذكم من أن يكون سكوتكم تقية.. (فإذا سكت العالم تقية والجاهل بجهل فمتى يظهر الحق).. وإن كان

ذلك هو الحق فمالكم لا تصدعون به وأنتم تريدون اليوم تولى الريادة الخلقية ـ ربما عن جدارة واستحقاق.. مالكم لاتصدعون به وأنتم تعرفون أكثر مما أعرف أنا المسلم التابع الذى لا يرتدى قفطانا، ولا يتمنطق بحزام ولا يضع على رأسه عمامة، ولا يحمل فى يمناه مسبحة كهرمان ولا يطيب صماخ أذنيه بعطر زيتى.. وإنما يؤمن ويؤمن ويؤمن بجوهر الدين الذى هو الحق والخير والعدل والجمال.. مالكم تكتمون حكم الله وأنتم تعرفون أكثر مما أعرف... «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»..

الريـــادة الخلقيـــة

خلاصة القول.. وهو قول كان يجدر بالقوى الجديدة التى تريد أن تضع الإسلام فى إطار العصر أن تقول به.. خلاصة القول هو أن الريادة الخلقية لا يفرضها قانون.. ولا يحدها دستور.. ولا ترسمها لوائح وإنما تفرضها على الناس القدوة الحسنة.. والالتزام الشجاع.. والوقوف الجسور بجانب الحق، والعزوف الكريم عن الباطل.. وإن كان الإسلام قد عرف فى أمسه رجالا اهتدى الناس بهديهم.. وساروا من خلفهم ائمة ومرشدين فإنما كان هذا لاهليتهم التى استحقوها بجلائل أعمالهم.

إن الريادة الخلقية والإمامة الرشيدة فرضها شيوخ الأمس بوقوفهم ضد الحاكم الظالم.. وأعراضهم عن دور الأمراء ومظان الفتن.. وحفاظهم على كرامة العلم وهيبته بالابتعاد به عن مجالس السلاطين.. القيادة قد فرضها فرضا رجال مثل الحسن البصرى بمواقفه مع الطاغية ابن هبيرة: «يا ابن هبيرة الحساب من ورائك.. سوط بسوط، وغضب بغضب.. والله بالمرصاد إنك ان تلقى من ينصح لك فى دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويمنيك».

وفرضها الأوزاعى بمواقفه الشجاعة فى مجلس المنصور: «يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك وأعلم أن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل

إليك». وفرضها مالك ابن أنس فى مجلس هارون: «لم لا تأتنا يا مالك فى مجلسنا حتى يسمع صبياننا الموطأ. قال له الإمام إن العلم يؤتى ولا يأتى يا هارون».

وبعد فلست فى حاجة إلى أن أذكر شيوخ المسلمين فى ديار المالكية هذه بقول مالك.. «لا خير فى من يرى نفسه فى حال لا يراه الناس لها أهلا».

وحديث عن الأخلاق

ومن بين القضايا الجانبية التى يشغل بها الناس قضايا الأخلاق والشرف والفضيلة.. فقد كنت أتابع ما يدور من حديث فى برلمان السودان عن إنهيار الفضيلة.. واستشراء الرذيلة وتلخصت، فى المنتهى، الفضيلة والرذيلة فى محاربة بغايا المدينة.. استضعفوهن فوصفوهن..

أتابع هذا فأعجب لمشرع يريد أن يحارب الفساد بالفساد يريد أن يحارب البغاء الجسدى بالبغاء الفكرى.. يريد أن ينشر لواء الفضيلة بدولة فى جوهرها رذيلة.. دولة تعرف، فيما تعرف رجل الأمن الفاسق... والقاضى الماجن، والوزير السفيه الداعر، والنائب الذى يجمع من كل هذه الموبقات.. بطرف علم الله أن أى عاهر ملعون فى أزقة الخرطوم وحواريها لأكرم عند ربها من الذين أهلكوا أهل السودان بالسوط والنوط، واتلفوا فيه المال والنشب.. أكرم عند ربها لأنها أتت ما أتته غير عادية ولا ظالمة وإنما ضحية لوضع اقتصادى جائر.. ووضع اجتماعى أكثر جوراً.. وإلى هذا الوضع يجب أن يتجه المصلحون.

والذين يريدون أن يجعلوا من مثل هذه القضايا الجانبية موضوعًا للوعظ والإفراز اللفظى باسم الدين عليهم أن يعيدوا قراءة قصة محمد مع المخزومية «أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد أما والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».. رواه البخارى ومسلم بنصه... ورواه الطبرانى فى الكبير بمعناه.. هذا هو مفهوم الفضيلة فى الإسلام يا حماة دين الله.



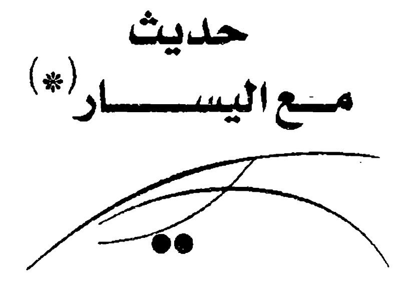
أتابع ما يدور... واسمع ما يتردد فلا أراه يختلف كثيراً، فى جوهره، عن ما شهدته مصر العشرينات.. أتابع وأسمع فأرى نماذج لشيوخ مصر وهم يدينون رجلاً ذا عقل وارف وخيال مدرار مثل الشيخ على عبد الرازق ويتهمونه بالزندقة والفسق. وأرى نماذج للشيخ التفتنازى.. ذلك الشيخ الذى يجب أن يوضع أمثاله فى حوانيت العاديات كنموذج للتحجر الفكرى.. أو الزفتنازى كما وصفه شاعر الشعب الصداح بيرم التونسى ـ أراه وهو يقف فى المنابر ليدين المرحوم عمر لطفى المحامى داعية التعاونيات وأحد منارات الطريق فى تاريخ التطور الاجتماعى فى مصر.. يدينه بالالحاد والشيوعية لدعوته التعاونية تلك.. وعمر لطفى هو الذى قال فيه شوقى فصدق فى الوصف:

تمشى إلى الأكواخ ترشد أهلها   مشى الحواريين يهدون القرى
متواضعاً لله بين عباده   والله يبغض عبده المتكبرا

إن الشيخ التفتنازى ظاهرة اجتماعية ستتكرر طالما كان هنالك صراع بين القديم والجديد.. بين الجمود والتطور.. بين التخلف والنمو الصاعد.. ومؤشرات التاريخ تحدثنا جميعها إلى اين يسير الإنسان.

■ ■ ■

حديث
مـع اليســـــار(*)



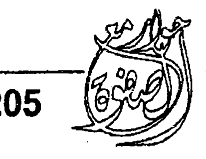
الاستقطاب المفتعل

.. استهل موضوعى فى المبتدأ بالقول بأن حديث اليمين واليسار فى السودان يقلق فكرى.. فبالمفهوم الأوروبى العلمانى لا وجود ليسار فى السودان بين القوى السياسية المنظمة باستثناء التنظيمات الماركسية على اختلاف اتجاهاتها.. لذا فأنا أفضل الحديث عن قوى التجديد العصرى وهو تعبير قد يشمل فى من يشمل قوى تقدمية غير علمانية.. أو قوى عصرية دينية غير طائفية.. فالاستخدام الشائع لليمين واليسار فيه كثير من السطحية.. وفيه غير قليل من الجهل..

بل إن الاستقطاب الذى نشير إليه.. الاستقطاب بين اليمين واليسار هو فى حقيقته استقطاب مفتعل.. ومحاولة ساذجة - أو خبيثة - لاضفاء بزة عصرية على الاستقطاب الحقيقى القائم بين القوى التقليدية الطائفية وكثير من المثقفين - بعضهم عن وعى وبعضهم بلا وعى مايزال يتصرف بوحى من رواسب الولاء الطائفى القديم التى تعتمل فى وجدانه، وفكره، وامعائه.. وبهذا الفهم يراد منا أن نؤمن بأن السودان ينقسم إلى معسكرين.. معسكر كتب عليه أن يكون تقدميًا هو الختمية.. ومعسكر كتب عليه أن يكون رجعيا هو الأنصار..

.. ولكن الاستقطاب فى السياسة حركة ديناميكية وليس شارة توضع على صدور التابعين أو صك غفران يوزع على المخلصين.. حركة ديناميكية ترتكز على افتراضات

(*) الأيام: ١٩٦٩/٤/٢٤



فكرية معينة.. وتحدد خط سيرها معطيات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وسوسيولوجية معينة.. ولذا فمهما كان من أمر الشعارات واللافتات فإن الحكم العلمى الصحيح والأمين يقضى بالقول بأن جميع القوى التقليدية الطائفية فى السودان.. وجميع واجهاتها السياسية ـ وأسميها عن قصد ـ واجهات.. جميع هذه التنظيمات بحكم تكوينها.. وبحكم مطامحها.. وبحكم مصالحها.. وبحكم تطلعاتها قوى غير عصرية بل هى أكبر المعوقات للتطور نحو المجتمع العصرى.. هذا هو الدرس الأول الذى يجب أن تعيه قوى التجديد العصرى فى السودان لكيما تضع القضية فى اطارها الصحيح وبين أبعادها الحقيقية..

الغــزو الفكــرى

.. والدرس الثانى هو أن التحول الاجتماعى فى المجتمع المتخلف إنما هو، فى جوهره، ثورة حضارية.. والثورات الحضارية لا تستهدف تصحيح هيكل الحكم أو تغيير شكله وإنما تسعى إلى تحول أساسى فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وبالتالى فى اخلاقيات المجتمع..ومعركة التحول هذه تبدأ بالغزو الفكرى إذ أن التكييف الحضارى يقتضى وعيا فكريا بالقيم الحضارية الجديدة.. وأى قيم، لكيما تكون ذات فعالية، لابد لها من أن تصبح جزءًا من الوجدان العام.. حتى يكون احترامها نابعا من الوعى الصادق بضرورتها لا الالزام القانونى بها.. ولا الترديد الببغاوى لها.. فالأفكار التى لا تمتد جذورها فى التربة الوطنية أفكار مكتوب عليها الفناء تمامًا مثل الدستور الذى نقلناه فلم نحسن النقل. وترجمناه فلم نحسن الترجمة وعدلناه بأكثر مما عدلنا قانون الحركة فخرج سملا مرقعًا من العشوائية.. وفقد كل قدسية تتمتع بها القوانين.

إن معركة قوى التجديد العصرى يجب أن تفهم بأنها معركة تبشير وترشيد وتوعية لا الدخول فى متاهات الجدل الدستورى حول ملامح هذا النظام المرقع.. وبدون هذا الغزو الفكرى سيكون كل جهد المجددين هو عرس شعارات بلا جذور.. وتشييد هياكل تنظيمية بلا مضون ولا محتوى.

الالتزام فكر ووجدان وظاهرة سلوكية

.. والالتزام بالقيم الجديدة لكيما يكون صادقًا وفعالاً لابد له من أن يترجم إلى فكر ووجدان وسلوك.. لابد أن ينعكس على حيواتنا.. وجهدنا فى المواقع التى تحتل.

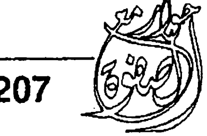
التقدمى يبدأ بعمله فى المستوصف.. ونجاح المعلم التقدمى يبدأ بجهده فى المعهد.. ونجاح الوزير التقدمى تقرره سياسته التطبيقية فى الوزارة لا ترديد الأفكار الضبابية فى الأندية والتجمعات..

إن العصرية فى أساسها التزام بالأخلاقيات العصرية... الأخلاقيات التى تقول بالموضوعية فى التحليل.. وترفض السلبية.. وتدين الشللية.. وتقرر أن حل القضايا المبدئية لا يكون إلا بالمواقف المبدئية لا بمجالس الوساطات العشائرية.. وإن القضايا الأساسية العامة تعالج فى الاجتماعات الجادة الهادفة لا فى مجالس السمر وبين طرقعة الكئوس... وقد يروق للبعض أن يسمى هذا بالوعظ والإرشاد.. ولكن ليس كل وعظ موضوع تندر.. وإن لم نفعل هذا فلن نكون بعصريين.. ولن نكون بتقدميين مهما بلغت عدد الأميال التى نذرعها جيئة وذهابا بين ميدان أبى جنزير ورئاسة مجلس الوزراء.. ومهما بلغت عدد العرائض والبيانات التى نمهرها بتوقيعنا السامى.. لأن هذا فى نهاية الحساب لن يكون إلا تبطلا، وهدرا، وضلالة عمياء.

قضايا الساعة والمتاهات الفكرية

.. ومن بين مظاهر العقم الفكرى استسهال الحلول الجاهزة.. وفى السياسة ليست هنالك قوالب جاهزة.. فالمجتمعات كائنات حية تقيد خط سيرها ظروف اجتماعية معينة.. ومناخ ثقافى معين.. وديناميكية اجتماعية وسياسية معينة.. وفى هذا الضوء لابد أن تطوع النظريات والأفكار لتناسب الواقع المعاش.. ولتناسب المرحلة الاجتماعية المعطاة..

وفى بلد كالسودان تمزقه الطائفية. والقبلية. ويكبله التخلف الاجتماعى والاقتصادى.. ويعيش نصف أهله أو قرابة نصفهم خارج إطار الاقتصاد النقدى.. فى



بلد كهذا تصبح القضية الرئيسية هى نقل المجتمع إلى أعتاب القرن العشرين دون الدخول فى متاهات فكرية، وجدل عقيم. ويصبح واجب الصفوة الرائدة هو البحث عن نهج أصيل يستهدى بتجارب الإنسانية وأفكارها دون عقد ولا وجل مدركًا أن هذه الأفكار والتجارب ليست بالوحوش المقدسة، وإنما هى خبرات إنسانية توضع فى ميزان الأختيار والتجربة والخطأ.

لقد تابعت منذ أسبوعين مقررات المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى الإيطالى وهو ـ فى تقديرى ـ أكثر الأحزاب الشيوعية فى أوروبا غير الشيوعية.. أكثرها وعيا بالتطور وانعتاقا من ربقة العبودية العقائدية، وانفتاحًا نحو الفكر الجديد والتجربة الجديدة.. وقد أثار اهتمامى فى المؤتمر الحديث الختامى لأمين عام الحزب لويجى لونقو، وهو حديث يمكن اعتباره أحد معالم الطريق فى مسار التجربة الأوروبية.. قال لونقو ـ والخص فى ايجاز إن الدستور الجمهورى هو منطلقنا ومرجعنا فى معركتنا من أجل الاشتراكية.. ثم مضى ليعدد معالم الاشتراكية ـ وهذا هو الذى يعنينى هنا ـ إن الدعوة الاشتراكية ليست بشعارات مبهمة.. بل تتجه إلى معالجة المشاكل الأساسية فى مجتمعنا وهى ثلاث: المشاركة فى الإنتاج وعائده.. الاستثمار الزراعى وتطوير المناطق الزراعية.. الإصلاح التربوى وتطوير الجامعة لتناسب مرحلة التطور الصناعى الراهن.. لم يخاطب لونقو عمال إيطاليا بلغة الستينات فى القرن الماضى.. ولا لغة العشرينات فى هذا القرن بل خاطبهم بلغة المشاركة فى الإنتاج.. أسلوب يستخدمه الجنرال ديقول مع الاختلاف فى المنطلقين الفكريين.. بهذا الأسلوب وضع لونقو قضية الطبقة العاملة فى إطارها الجديد.. إطار المجتمع الاستهلاكى الذى أصبحت فيه البروليتاريا شيئًا غير بروليتاريا الأمس التى تصنع الثورات الدموية لأنه ليس لديها ماتفقده غير الأغلال.. وبروليتاريا اليوم التى لا تصنع الثورات الدموية لأنها تريد الحفاظ على المسكن والسيارة والتلفاز.. ويخاطب لونقو الجامعة كقوة ثورية جديدة لأنه بعد الذى شهده فى روما وفلورنسا وميلانو.. وهو انعكاس لما حدث

ويحدث فى جامعات العالم المتقدم من أقصاه إلى أقصاه.. من بيركلى وطوكيو.. إلى برلين وباريس ومدرسة لندن للاقتصاد.. لأنه يرى فيها تجربة قيادة ثورية تنبعث من جذور برجوازية لتحطم أسس النظام البرجوازى نفسه.. قيادة كهذه لم يعايشها ماركس فى القرن التاسع عشر.. ولم يعشها لينين فى القرن العشرين.. وربما مر عليها ماوتسى تونج مرورًا عابرًا فى تجربته مع المثقفين فى الرابع من مايو عام ١٩١٩.. تجربة الثورة التى تنطلق من الجامعة قبل المصنع..

إن حركات التجديد التى لا تنفتح نحو العالم والحوار الهادف البناء ستنتهى إلى التحجر والانعزال عن حركة التاريخ.. ودور الصفوة الرائدة هو الخروج من إسار الشعارات إلى رحابة الفكر.. ومن مرحلة التقليد إلى مرحلة الإبداع والتجديد.. ومن طور التهارش إلى طور الحوار.

المرتكزات الفكرية... والينابيع الروحية

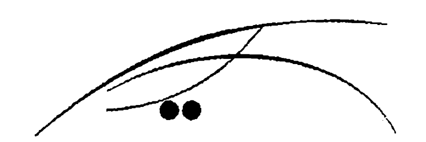
نقطة الإنطلاق لأية حركة للتجديد فى المجتمع هى التراث القومى لذلك المجتمع.. وفى التجربة القريبة المعاصرة يجمع الاجتماعيون على أن نجاح الثورة الجزائرية يعود إلى وفائها لينابيعها الروحية وتراثها القومى وانفتاحها نحو العصر الحديث.. ولذا فعندما يقول ميثاق طرابلس أن ثقافة المجتمع الجديد هى ثقافة قومية.. وعلمية.. وثورية.. يريد أن يحدد الأبعاد الحقيقية والمضمون الحقيقى للثورة.. فالقومية هى العروبة والإسلام.. والعلمية هى التصنيع والتكنولوجيا.. والثورية هى التحول الجذرى على الصعيد الاقتصادى والاجتماعى عن طريق التجربة الاشتراكية.. كل هذا يتم فى إطار إنسانى رحيب يصفه الدكتور أحمد طالب وزير التربية الجزائرى بقوله إن الثقافة على أكثر مستوياتها اتساعا إنما يؤلفها مجموع ردات الفعل والمواقف التى يواجه بها شعب من الشعوب بحسب عبقريته ضروريات وجوده الطبيعية من مأكل وملبس ومسكن وتعاقب. أما على المستوى الأرفع فإن للثقافة أوجهًا ثلاثة: شحذ الفكر أو الحس النقدى، وإرهاف الذوق أو الحس الجمالى، وإلتزام القيم أو الحس الأخلاقى».



ولكن الدكتور طالب وهو يمثل الصفوة القائدة المدركة لخصائص شعوبها ولمتطلبات زمانها، ولروح عصرها يمضى للقول بأن المثقف لن تعينه ثقافته مهما اتسعت على إدراك كل ذلك ما لم يدرك جذوره، ويرتبط بأرضه ويعتز بقومه.. ما لم يفكر بعقله لا بأذنيه.. يمضى الدكتور طالب للقول ـ وهو مثقف بالفرنسية يتحدث بها كأحسن ما يتحدث بها الأفذاذ من أهلها لاكما يتحدث آخرون لغات وثقافات يريدون تكبيلنا بها وكل نصيبهم منها هو مطالعات لونقمانزقرين ـ يقول «ليس التخلص من الاستعمار هو التخلص من احتلال المستعمر وإنما ينبغى أن يكمله شمول التحرر من روح المستعمر.. والواقع أن المستعمر (بفتح الميم) الأكثر عبودية هو ذاك الذى تلقى تربيته فى مدرسة المستعمر (بكسر الميم). فاقصى فقدان للشخصية الجزائرية نجده عند المثقف. وكلما ازداد المثقف وعيا لضرورة تحرره من ركب المستعمر ازداد اهتداء إلى فضائلنا الأصيلة وخدمة لبلاده وعونا لشعبه. لذا فالمثقف لكيما يكون مرشدا لابد له من أن يجدد أسباب الاتصال بينه وبين مواطنيه..».

■■■

أفريقيا بلا نكروما(*)
هاملت بدون أمير الدنمارك



منذ نجاح الاستعمار والرجعية فى تصدير الثورة المضادة إلى غانا، والأضواء مسلطة على هذه الظاهرة فى واقعها المحلى وواقعها الأفريقى والعالمى على السواء.

وهذا المقال الذى يكتبه [للطليعة] الكاتب السودانى التقدمى (منصور خالد) هو شعاع من هذه الأضواء.

والكاتب فى هذا المقال لا يقدم فحسب دفاعا موضوعياً وحاراً عن ثورة غانا وقائدها نكروما إزاء الهجمات الغربية التى لمسها من خلال موقفه فى أوروبا حيث يعمل بالقسم العربى بهيئة اليونسكو بباريس، وإنما هو أيضا يقدم نظرة شاملة لمهام ومصاعب وانجازات وأهداف الثورة فى أفريقيا ككل.

●●●

أفريقيا بلا «نكروما».. هاملت بدون أمير الدنمارك

التفكير فيما حدث فى غانا يجب أن لا ينتهى بالذى حدث إنما هو رزء أفريقيا العظيم، وخطبها الفادح. وأى رزء أعظم من خلق ثورة من أكبر الثورات الرائدة فى أفريقيا. وأى خطب أفدح من اقصاء قائد بطل وهو فى قلب المعركة يحمل بنفسه رسالة التضامن الأفريقى إلى أهل المشرق الأقصى وأمل السلام الهانىء إلى أهل هذا الكوكب الأرضى الظالم أهله.. ويحمل خلصاؤه ـ على قلتهم ـ خطط العمل الأفريقى الموحد إلى أديس أبابا ردا على الامتهان الأبيض فى روديسيا للقارة السوداء وأهليها.

(*) «مجلة الطليعة» القاهرة ـ يوليو ١٩٦٦



والرزء ليس بعظيم لأن غانا قد فقدت قائدها الذى لا يلين. والهول ليس بصاعق لأن أفريقيا قد فقدت رائدها الذى لا يكذب. وإنما الأمر لأجل خطرا، وأبعد أثرا... هذا إن نفذنا من وراء سقوط البطل إلى ما ورائه من معنى وما خلفه من مضمون.. إذن فلن يكون حديثى بالرثاء لنكروما ولا بالعزاء لأفريقيا.. مع إدراكى بأن أفريقيا التى نعرف والتى نريد ستصبح بدون نكروما كقصة هاملت بدون أمير الدنمارك. والحقيقة بسيطة.. ولو وعى الناس هذه الحقيقة ـ على بساطتها ـ ووعوا معها واقع أفريقيا الجديد لما رأوا أحداث غانا بمنظار «الديلى ميل». والحقيقة البسيطة هذه تجلجل صارخة مدوية تعلن بأن القارة الصاعدة تعيش اليوم ثورتها المضادة. وفى داخل هذا الإطار يجدر بنا أن نصدر الأحكام على «النكرومية» وفيلسوفها بعيداً عن الأكاذيب الشريدة التى تروجها وسائل الإعلام الغربية... وبعيداً عن الاتهامات والأحكام الساذجة عن الدكتاتورية والطغيان التى يصدرها قائلوها وفق مقاييس نبذتها أفريقيا الجديدة. من هذه التقدمة أخلص ما أريد حديثى والحديث الذى أود أن أنفذ إليه يتناول موضوعات ثلاثة، أولها، الهيكل الدستورى ومحتواه العقائدى فى أفريقيا الصاعدة، وثانيها ـ وارتباطه بالأول وثيق ـ هو فلسفة العودة إلى الأصول وثالثها هو الكيان الاقتصادى الجديد.. وفى أحاديثى الثلاثة هذه سأجعل من غانا محوراً للبحث فهى كإحدى التجارب الثورية فى القارة.. وهى كإحدى النماذج الاشتراكية التى وثب فيها الاستعماريون والرجعيون وثب السفاه وأخذوا ينهشون، لجديرة بالدراسة والتحليل الموضوعيين.

هيكل الحكم وفلسفته فى أفريقيا الجديدة

شهدت الستينيات أخطر تحول فى الجغرافيا السياسية لأفريقيا، فإن كانت الخمسينيات هى السنوات التى توج فيها النضال الوطنى بالاستقلال للغالب الأعم من دول أفريقيا فأن الحقيقة التى نبعثها قد شهدت مولد تشييد هيكل الحكم الجديد، ومولد تطبيق فلسفة للحكم جديدة.. جديد وجديدة بالنسبة للأفكار السائدة فى

رؤوس الكثيرين من مثقفى أفريقيا الذين مسحت الصفة الغربية وعيهم الذاتى وكبلت ارادتهم بعقد النقص وثورة الستينيات هذه لأخطر بكثير من الثورة الوطنية لأنها تعنى فى المقام الأول استرداد أفريقيا لشخصيتها واستعادتها لطاقاتها وقدراتها. وقد كان اندلاع هذه الثورة انتصارا رائعا للقيادة الجديدة بعد انتصار ناصر بتفجير ثورة يوليو المصرية العربية الأفريقية عام ١٩٥٢.. كان انتصارا لأفكار سيكوتورى وماديبو فى التجمع الديمقراطى السودانى، لأفكار نيريرى واتحاد تنجانيقا الأفريقى.. والمدارس هذه جميعا كانت تنادى بأن طريق الخلاص لأفريقيا لابد أن يستنبط من واقعها، ويستمد من تراثها، ولابد أن يسترشد بتجارب الدول النامية التى سبقتها. وهذه المدارس جميعا كانت تنادى بأن أقرب طريق لتنكب الطريق هو التقديس المذعن للمؤسسات والأفكار التى خلفها الحكم الأجنبى الغربى. ولم يكن دافع أى من هؤلاء هو الرفض الأحمق للثقافة الغربية، فقادة هذه المدارس جميعًا قد درسوا هذه الثقافة فكرًا بالعقل الحصيف الناقد، وعاشوها واقعا مع إحساسهم الكامن والكامل بذاتيتهم الأفريقية. وجميع هؤلاء القادة يتعرضون اليوم لاتهام وسائل إعلام الغرب إياهم بالارتماء فى احضان الشيوعية بالرغم من تكوينهم الثقافى جميعا فى مناخ فكرى غربى. كوامى نكروما استهل دراسته على أيدى مبشرين كاثوليك وأخذ أفكاره السياسية الأولى من (المورننق بوست) اتى كان يصدرها الدكتور نامدى ازكوى فى ساحل الذهب ثم يمضى بدراساته فى جامعتى لنكولن وبنسلفانيا لنيل درجة الأستاذية وجامعة لندن لنيل اجازة الدكتوراه... جوليوس نيريرى استهل تعليمه فى معهد سانت ميرى الكاثوليكى للتبشير فى قابورا ثم تابعه فى كلية ماكيريرى بيوغندا وجامعة ادنبرا باسكتلندا... أحمد سيكوتورى عاش الحافل من سنين عمره - وهى سنوات تكوينه السياسى - مع اليسار الفرنسى، يدرس أفكاره وأساليبه ويعود ليطبقها فى وطنه فيخرج للناس بأقوى التنظيمات العمالية فى غرب أفريقيا، ويرفض رفضا لا توسط فيه انضواء تنظيمه هذا فى الحزب الشيوعى ادراكا منه بأن فلسفه صراع الطبقات التى أراد الحزب الشيوعى زجها قسرا فى حلاقيم الأفارقة لا مكان لها فى

الواقع الإفريقى.. ويتهم سيكوتورى يومها بالمروق والإنحراف ولكن متهميه يعودون فى مؤتمر (كوتونو) إلى الصف الأفريقى فيؤيدونه كأشد ما يكون التأييد ويقفون من خلفه كأصمد ما يكون الوقوف.

كل هؤلاء القادة (عملاء للشيوعية) عند صحافة الغرب. وصحافه الغرب ووسائل اعلامه تعرف أن ما تردده إنما هو أفك وباطل. ولكن صحافة الغرب ووسائل إعلامه عندما تصور دعاة الفكر الجديد الجرئ هؤلاء بأنهم مخالب (فرنكشتاين الأحمر) إنما تعنى أن تقول ـ ولا تجرؤ على القول ـ إن هذه القلة المثابرة من أولى العزم إنما تدق المسمار الأخير فى نعش الاستعمار.. تفعل هذا بتدعيمها للشخصية الأفريقية.. وببنائها للكيان الأفريقى.. وبخلقها لقارة جديدة تقف على قدميها لتلعب دورها حرة طليقة فى تكييف حياة أهليها... قارة جديدة لا مكان فيها للأسواق الحبيسة، ولا للعقول الأسيرة، ولا للامساخ البشرية.

ما هى هذه الأفكار؟.. وما هو هذا الكيان الجديد؟

فى اختصار بلا ابتسار.. الوحدانية الحزبية فى تجميع شعبى واحد.. تأكيد الشخصية الأفريقية بالعودة إلى الجذور.. منهاج اشتراكى فى الاقتصاد يضمن الكفاية العادلة.

كوامى نكروما.. والحزب الواحد

قلت أننى سأجعل من النكرومية محورًا للبحث...

ونكروما لا يختلف فى دعوته للحزب الواحد عن غيره من ساسة أفريقيا الذين أسلفت الإشارة إليهم. والتفكير فى الحزب الواحد ـ عند نكروما كما عند غيره من أصحاب الفكر الجديد فى أفريقيا ـ يعود إلى سببين:

أولهما هو أن الدولة الجديدة إنما تسعى لخلق كيان سياسى لم يكن موجودًا فى الماضى.. كيان يتحول فيه الولاء من القبلية أو الإقليمية أو العنصرية إلى سلطة

مركزية، شريطة أن تكون هذه السلطة قوة تقدمية تستهدف إشاعة الديمقراطية الصحيحة وتحقيق العدالة الاجتماعية الحقة، وإلا فستصبح دكتاتورية شمولية رجعية ضارية.

وثانيهما هو أن معركة البقاء والإنماء إنما هى معركة حقيقية يستلزم كسبها تحديد الهدف، ورسم الخطة، وتوزيع الطاقات، وفرض التضحيات. وكل هذا لا يتوفر فى نظام ديمقراطى بالمفهوم الغربى يبيح الحرية حتى لأعداء الحرية، الذى يعمل ضد وحدة القطر عدو للحرية، والذى يعمل لاذكاء نار الفوارق العنصرية أو الاقليمية عدو للحرية، والذى يعوق سير الاقتصاد الوطنى فى الطريق الذى يحقق العيش الكريم للغالبية العامة من الشعب عدو للحرية.

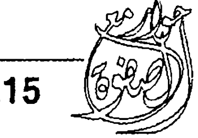
وجميع هؤلاء يمثلون قوى تعيش فى مجتمعاتنا وتتمتع فى ظل المفاهيم الدستورية الغربية بحقوق هى فى واقع الأمر لا تعنى أكثر من حق التخريب... تخريب الكيان الجديد.

إذن فعلينا ـ فى داخل هذا الإطار ـ أن نعيد النظر فى كل المبادئ الدستورية التى ورثناها عن الغرب.. مبدأ الحرية الفردية.. مبدأ استقلال القضاء.. مبدأ استقلال الخدمة المدنية.. مبدأ الحريات النقابية.

النكرومية وحرية الفرد

القول بأن حكم نكروما كان يستهدف اهدار كرامة الفرد قول مردود.. واجبنا أن نحدده فى المبدأ، من هو الفرد الذى يعنون؟

لكوامى نكروما رأى فى مكان الفرد فى المجتمع ينافى المفاهيم الأساسية للفكر الماركسى، ويجافى فكرة «الجماعية» التى قبلها وتبناها غيره من قادة أفريقيا الصاعدة مثل ماديبو كيتا وسيكوتورى. يقول نكروما فى كتابه الأخير «الوعى بالذات» إن فلسفته تهدف إلى معالجة كل فرد كنهاية فى ذاته وليس باعتباره وسيلة لتحقيق خير المجتمع. وعندما ينادى نكروما بهذا الرأى يود أن يعلن للناس بأن المبادئ التى



تقول بها كتب اليسار شيء.. والواقع الأفريقى المعاش شىء آخر. والحكمة تقضى اخضاع هذه الأفكار للواقع دون إهدار للأسس الفكرية اليسارية.. إذن فالقضية قضية تطبيق واع رشيد.

ويقول قائل ولكن سجون نكروما الذى يؤمن ويدعو لكرامة الفرد كانت تعج بالسجناء، والقول رددته وسائل الإعلام الغربى دون أن تشير إلى عدد سجناء الوضع الجديد من شباب غانا الصناديد...

من هم سجناء نكروما؟

لقد جاء نكروما للحكم فى انتخابات عام ١٩٥٤ بأغلبية بلغت خمسة وسبعين فى المائة من أصوات أهل غانا. جاء ليجد أمامه فى مجلس غانا النيابى أثنى عشر نائبًا اسموا أنفسهم المعارضة الشمالية كناية عن إقليم الشمال الذى يمثلونه، والذى كان يرفض ساسته مبدأ وحدة التراب الشامل (صورة أخرى لما دار ويدور فى جنوب السودان) ووقف نكروما يومها ليعلن رئيس المجلس بأنه لن يقبل أن يكون هناك شىء اسمه المعارضة الرسمية. وكان هذا أول ايذان رسمى من نكروما عن خط السير الذى سينتهجه.

وعندما أعلن نكروما هذا كان يلقى بنظره بعيدا إلى المستقبل. كان ينظر إلى السنوات القادمة التى ستشهد بداية تطبيق فلسفته الجديدة فى الحكم... الفلسفة الاشتراكية. وكان يعرف أن ذلك التطبيق سيعنى فيما يعنيه، ويقود فيما يقود إليه، إنهاء السيطرة الأجنبية على الاقتصاد الوطنى، انهاء الامتيازات التى خلعتها الطبقة الجديدة من السياسيين وكبار الموظفين والزعماء القبليين على أنفسهم. وكان يعرف - فهو قد قرأ التاريخ واستقرأ أحكامه - أن اعداءه فى الداخل من الذين يتهدد الوضع الجديد مصالحهم لن تغمض لهم عين حتى يقوضوا دعائم دولته الجديدة بالدس والتخريب حينا، والفتك والتدمير أحيانا أخرى. وكان يعرف أن أعداءه فى الخارج لن يهدأ لهم بال وهم يرون غانا تنفك من أسارها وتقدم المثل فى أفريقيا السوداء لبلاد

أخرى مازال حكامها يسيرون معصوبى الأعين عن نور الحق.. ويسيرونها فى طريق التبعية والإذعان. وكان يعرف أن قرصنة الاستعمار لم تنته فى القرن الثامن عشر بانتهاء السير فرانسيس دريك.... التاريخ الأسود لم تجف صحائفه. تأميم قنال السويس تبعته المحاولة الرجيمة لاحتلال القنال حماية لمصالح المنتفعين بها... وانتخاب جاكوبو اربينيز فى جواتيمالا تبعه انقلاب ١٩٥١ المشهور حماية لمصالح شركة الفواكه المتحدة.. وكان نكروما يعرف أن اليمين العالمى وحليفته الرجعية المحلية لقادران على اللجوء إلى أكثر الأساليب غدرًا للقضاء على الأفكار الجديدة ودعاتها... ودون الناس . على سبيل المثال ـ ما حدث لباتريس لومومبا والمهدى بن بركة.

وفى واقع الأمر لم يكن نكروما بحاجة لأن يقرأ التاريخ فالأحداث المعاصرة فى غانا قدمت له الدليل الذى لا يرد... الدكتور بوسيا، خصمه الضارى، الذى ذهب إلى لندن قبل الاستقلال مطالبًا بتأجيل اعلانه ما لم يمنح الأشانتى لونا من الاستقلال الداخلى... فعل هذا بالرغم من توصيات لجنة براون الاستشارية حول وحدة القطر.. دكتور بوسيا هذا ـ وقد عاد اليوم مظفرا إلى غانا ـ لن ينسى له الناس تآمره وهو داخل غانا مع أوليمبيو رئيس التوجو لاغتيال نكروما. ولم ينس له الناس تآمره، وهو خارج البلاد مع فكتوريو ـ مساعد (قبدما) وزير المالية الأسبق للحصول على أسلحة الجيش ومفرقعاته لاشاعة الارهاب ابان زيارة الملكة اليزابيث ـ وبجانب بوسيا ومن وراءه نجد صفا طويلا من ساسة غانا وكبار موظفيها من الذين قضى النظام الجديد على مصالحهم ومطامحهم.. خاصة منذ أبريل ١٩٦١ عندما أعلن كوامى نكروما بداية عهد التقشف.. عندما أعلن بأن الاشتراكية الغانية ستتعايش مع نظام المبادرة الفردية الرأسمالى إلا أنها لا تقبل من ساسة غانا وموظفيها الخلط بين المصالح المالية والعمل العام.. فالذى يريد أن يمتلك الضياع وأسهم الشركات يجب عليه أن يترك العمل السياسى أو الوظيفة الحكومية... يجب عليه أن يختار بين أمواله وبين الصالح العام والنقابيون الذين وعوا دورهم فى الماضى بأنه الهدم والتخريب، يجب

عليهم أن يدركوا أن الحكومة الثورية ليست كالنظام الاستعمارى المباد. وقد كلفت حملة نكروما هذه الكثيرين مقاعدهم الوزارية والبرلمانية.. فبدما وزير المالية.. بوتسيد وزير الزراعة.. ومن بعدهم بعض الأقربين إليه مثل كروبو ادوسى.. وجميع هؤلاء قد انتهى بهم المطاف إما إلى النفى أو السجن، أو الاقصاء عن الحياة العامة لبعضهم دون حجز على حرياتهم وكان هذا هو خطأ نكروما الأكبر.. فسقوط نكروما لم يقع لأن الرجل كان طاغية جبارًا وإنما لأنه لم يكن بطاغية جبار.. (جريدة التايمس) اللندنية فى عددها الصادر فى ١٢ يونيو ١٩٦١ كتبت بعد انتصار نكروما على دانكوه بتسعين في المائة من الأصوات فى الاستفتاء الشعبى الذى أجرى يومها، كتبت تقول أن شعبية نكروما فى القطر لتصل حد التأليه، ولكنها تشبه ذلك اللون المحموم من الشعبية التى يمكن القضاء عليها بين عشية وضحاها).. ومضت تقول بأن نكروما (لكيما يحقق سياسته الجديدة سيضطر إلى التخلص من الكثيرين من مساعديه ورفاقه فى السلاح من الذين يقبلون زعامته شريطة أن يسير وفق ما يرون.. وهؤلاء المرفوضون هم الذين يقودون الثورة ضده غدا).. وهذا القول حقيقة. فالتأييد المحموم هذا لا يمكن الاعتماد عليه ما لم يوجه نحو تنظيم شعبى قوى يقوده رجال يتملك الفكر الجديد كل حواسهم ومشاعرهم. والمرفوضون - فى مجتمع يعيش ثورة تغير وجه الحياة فيه - لا يمكن معاملتهم بالتسامح والحسنى.

فالذى يقاسى منه زعماء أفريقيا التقدميون والذى دفع ثمنه اليوم نكروما هو هذا التسامح الذى يبدونه نحو خصومهم.. بالرغم من كل الاتهامات التى تترى عن الدكتاتورية والطغيان، فالاشتراكية كانت ما لتقوم فى روسيا لولا ارهاب جوزيف ستالين... وفيدل كاسترو ما كان ليستطيع أن يقيم دعائم دولته ما لم يرق ما أراق من دماء ومن بين ضحاياه قلة من ابطال سبراما يسترا الصناديد مثل سورى مارين وبالاس بطلى معركة قلعة مونكادا فى سنتياقو دى كوبا ورونالدو كابيلا واميجيراس دلقادو.

ولكن زعامة أفريقيا الجديدة لم ترد إهدار كرامة الفرد وكيانه فى سبيل البقاء الجديد.. لم ترد التضحية بجيل معاصر فى سبيل الأجيال القادمة صفحت صفح

المقتدر.. وبفعلها هذا أكدت إنسانيتها وأصالتها. وبدلاً من أن يكون هذا الصنيع مصدر التقدير والإشادة أخذت الأصوات ترتفع من كل مكان تحدثنا عن الطغيان والإرهاب.

نكروما... والخدمة المدنية

وهنا أيضا ارتفعت أصوات وسائل إعلام الغرب لتتحدث عن تدخل نكروما فى استقلال الخدمة المدنية.. استقلالها كما يفهم ذلك (رجال هوايتهول). وفهم نكروما للخدمة المدنية يحدده هو فى أول كتبه.. يقول فى مقدمته لكتابه عن تاريخ حياته: «إن النظام الرأسمالى لنظام معقد بالنسبة لبلد ناشىء متخلف.. ولذا فلا سبيل إلا انتهاج الطريق الاشتراكى..

بيد أن العدالة الاجتماعية والدستور الديمقراطى فى حاجة إلى حماية فى الفترة التى تعقب الاستقلال بتطبيق إجراءات صارمة. فبلا نظام لا يمكن للحرية أن تزدهر. والأساس لتطبيق هذا سيكون هو الخدمة المدنية الأمينة المخلصة العاملة ذات الولاء لحزب الأغلبية».

إذن فالخدمة المدنية ليست بهيكل مقدس.. الخدمة المدنية.. (خدمة) وما لم يكن العاملون فيها أمناء مخلصين ذوى ولاء للحزب الحاكم وإيمان بفكرة هذا الحزب فلا مكان لهم فى المجتمع الجديد.. ولاشك أن نكروما وغيره من زعماء إفريقيا ـ إلى حد كبير ـ يعانون من البيروقراطية الموروثة أكثر مما يعانون من الطبقات ذات المصالح، فهذه الأخيرة مثلا محدودة أمكن السيطرة عليها فى مصر.. ولا وجود لها فى غانا ـ وأكثر مما يعانون من الاستعمار. لأن الاستعمار يعيش اليوم فى عالم تناهضه فيه قوى تفوقه أو تماثله عدة وعديداً وهو لا يستطيع إلا أن يحسب حسابها فى كل ما يقرر وكل ما يدبر. فإن لم تتوفر الصفات التى حددها نكروما فى الخدمة العامة فلا سبيل للحاكم الذى يريد أن يسم المجتمع الجديد بميسمه إلا أن يقصيها من ميدان العمل العام أو يغفل ما تفصح به من رأى. وهذا أضعف الإيمان.



وقد لعبت البروقراطية هذه دوراً أساسيًا فى إعاقة النمو الاشتراكى. وفى هذا المعنى قرأت مقالين رائعين أولهما فى (النيوستيتسمان) لجيمز فيريون ٤ مارس١٩٦٦، وثانيهما رسالة لا يريك كلافرنج فى (القارديان).. بالإضافة إلى مقال ثالث لباسيل ديفدسون (الاستيتسمان) ١٠ مارس والمقالات الثلاثة تشير إلى أن من بين عوامل فشل التجربة الغانية (التخريب) الذى كان يقوم به بعض الذين يتصدرون الحياة العامة ضد النظام الجديد، وهو نظام يتهدد فيما يتهدد مصالحهم ومطامحهم.. كان ذلك فى الخدمة المدنية أو فى أجهزة الحزب الحاكم.

وصحافة الغرب عندما تتحدث عن الخدمة المدنية واستقلالها، إنما تريد أن تقول إن الوضع كان سيكون أحسن حالا لو ولى الأمر (الغلمان) ـ فيما يقول الفرنجة (The boys)، (والغلمان) هؤلاء جماعة نالت من العلم أوفره.. وفقهت (أسرار الديانات واللغى). ولكنها أصيبت مع علمها الوافر بداء انقسام الشخصية، بفقدان الوعى الذاتى، وبانعدام الأصالة ومصيبة غانا أن هذا النمط من الغلمان فيها كثير.. شأن الكثير من مستعمرات بريطانيا السابقة. وأكبر حسنات الاستعمار البريطانى هى أكبر سيئاته. ونعنى به تركه من ورائه كيانا بيروقراطيا متينا. وفى بلد تريد أن تسلك السبيل التقليدى فى البناء سيضمن هذا الكيان سير الحياة وتسيير الدولاب أما فى مجتمع يريد أن يقوض المفاهيم الموروثة جميعها يصبح الكيان البيروقراطى هذا أكبر العقبات فى الطريق بل أشدها عقدا.. ونطبق هذا بصورة أوضح على المستعمرات الإفريقية غير المسلمة، إذ تتحالف الثقافة الاستعمارية مع التبشير المسيحى لخلق مثقفين ليسو بأكثر من صورة باهتة شائهة للرجل الإنجليزى. أما فى حال المستعمرات البريطانية فى البلاد ذات الثقافة العربية كمصر والسودان أو الإسلامية كالباكستان والصومال أو ذات الحضارات العريقة كالهند وبورما فإن تلك الثقافات قد أصبحت سياجًا حال بين الأغلبية من المثقفين وبين ذوبان الشخصية وفقدانها. فإن جاء زعيم مثل نكروما يبشر بدعوة العودة إلى الأصول ويؤكد معنى الكرامة الشخصية فإن انتصاره ليعنى ـ فى نظر الاستعمار ـ القضاء على كل ما تبقى من جيوب

للنفوذ الأجنبى، بل القضاء على أخطر أنواع هذا النفوذ وهو النفوذ الثقافى. والغرب لا يريد فقط أن تكون أسواقنا حبيسة له.. بل يريد أن تكون رؤوسنا أيضًا رهن الإشارة وطوع البنان. وقادة أفريقيا الجدد لا يرفضون ثقافة الغرب ـ وكلهم وكلنا نتاجها ـ بل هم يدركونها ويعونها أكثر مما يعيها الامساخ الذين يقدسونها.. كل الذى يقول به القادة الجدد هو أن الفكر الأوروبى بل الفكر الإنسانى كله يجب أن يطوع وفق متطلبات واقعنا المعاش.. أن تستمد الأحكام جذورها من التربة الأفريقية لا من الأفكار التى حشرت حشرًا فى الرؤوس.

نكروما.. واستقلال القضاء

وفى نفس العرض.. يمضى الحديث عن اعتداء نكروما على استقلال القضاء باقصائه لقضاة لم يقبل أحكامهم. والحديث عن الخدمة العامة ينطبق بكليته هنا. ولكن لا بأس من أن أولى الأمر قليلا من التعليق الموجز. ففى رؤوس الكثيرين تنز بعض الأفكار، وتعربد بعض الأوهام عن مفهوم استقلال القضاء. وهنا أيضا تقع ضحية لايحاء وسائل الإعلام الغربى.

كما لا أعرف شيئا اسمه قدسية القضاء.. هنالك استقلال للقضاء... واستقلال القضاء هذا أمر اعتبارى... فى بلد مثل البلد التى تقبل نمطا غربيا فى الحكم يفترض وجود العديد من الأحزاب المتنافرة.. والعديد من التيارات المتضاربة ينظر الناس إلى القضاء كفيصل فيما يشتجر بينهم من خلاف فى أمورهم العامة والخاصة حتى الذى يمس منها الكيان الدستورى نفسه. أما فى بلد ارتضت (الوحدانية) فى الدستور وفى فلسفة الحكم لا مجال للقاضى بأن يصدر من الأحكام ما يهدد الكيان القائم أو ينتقص منه.. فالسيادة للأمة والمعبر عنها هو الحزب الواحد.

فالبلد الذى يسعى لاقتلاع نظام قائم من جذوره ليبنى مكانه مجتمعًا جديداً.. يبدل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية القائمة. يخطط للإنسان الجديد فى مجتمع الغد، لا يستطيع أن يعيش إلا إذا ضمن الولاء المطلق من اجهزته الإدارية. فرئيس

القضاء (اركوكورسا) الذى ينظر لمحاولة اغتيال نكروما لا كمحاولة تقويض الدولة الجديدة ولا كمؤامرة جسيمة لاغتيال حرية الأمة، وإنما كجريمة قانون عام تفسرها كتب الإثبات وتستمد لها الأحكام من سوابق (الاولد بيلى) أما أن يكون جاهلا بكل الثورة التى وقعت فى غانا فلا مكان له إذن فى النظام الجديد.. وأما أن يكون مدركًا لكل هذا فيضحى متآمرًا يجب أن يلقى جزاءه مع رصفائه من المتآمرين. وما حدث للسير أركو كورسا يذكرنى بما حدث للدكتور عبدالرازق السنهورى تلك القمة الشامخة من قمم التاريخ العربى يوم أن أقصته ثورة مصر - وهو الرجل الشريف والعالم الجليل - أقصته يوم أن وقف يحدث حكام مصر الجدد عن حرية الفرد وتعدد الأحزاب ودستور ١٩٢٢.. وكان الفرق فى الحديث بين جيلين.. جيل ما انفك بصره ساهما فى مصر عدلى يكن وعبد الخالق ثروت وجيل آخر يريد أن يثب بوادى النيل وثبا نحو القرن الواحد والعشرين متخطيا حواجز المكان وإبعاد الزمان.. وكان الخيار لعبد الناصر بين العالم العلامة عبد الرازق السنهورى وبين مستقبل الأجيال القادمة لمصر. واختيار عبد الناصر معروف ولو لم يفعل عبد الناصر ما فعل لما كان عبد الناصر ولكن دعونا من كل هذا فالذين يتحدثون اليوم من الغربيين وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين عن قدسية القضاء لأن غانا طردت رئيس قضائها.. من قال لهم أن الغرب بحجة الديمقواطية لا يعتدى على حصن القضاء المكين يوم أن يصدر منه من أحكام ما يهدد الكيان القائم.

أولا يذكر الناس ما فعله (فرانكلين روزفلت) إبان حركته الاجتماعية العظيمة (الصفقة الجديدة) أو لا يذكرون ما فعله بالمحكمة العليا التى حاول قضاتها أن يعوقوا تطبيق التشريعات الاجتماعية الجديدة منددين بأنها تختصر حرية الأفراد.. أو لا يذكرون التشريع الذى تقدم به الكونجرس لرفع عدد أعضاء المحكمة إلى ١٥ عضوا حتى يضمن الزج بأنصاره ويضمن لحكومته أغلبية فى أكبر جهاز قضائى فى الدولة. بالرغم من أن القانون لم يصل آخر مراحل التشريع إذ شاء القدر أن يستقيل القضاة (فان ديفانتر) فى

عام ١٩٣٧، (سذرلاند) فى ١٩٣٨ مما مكن روزفلت من تعيين اثنين من أنصار (الصفقة الجديدة) (هيوقو بلاك) شيخ ولاية الباما - وأكثر قضاة المحكمة العليا تقدمية حتى اليوم وقد بلغ الثمانين، و(ستانلى ريد) المحامى العمومى فى حكومة روزفلت. وهكذا استطاع تدعيم ما يسميه الدستوريون الأمريكيون بالجناح التقدمى فى المحكمة العليا.. كوردوزو فرانكفرتر... ورئيس القضاة ستون. وفى التاريخ القريب أو لا يذكر الناس ثورة العمال الضارية ضد المحاكم لإسرافها فى تقييد القوانين الاجتماعية الجديدة التى جاءت بها حكومة العمال فى بريطانيا بعد الحرب والتى تهدد الحرية الفردية فى مفهومها الكلاسيكى، مثل قضية جيلمو (Ex Parte Guilmore) التى حاولت فيها محكمة انجلترا العليا إصدار حكم يتعارض تعارضًا أساسيًا مع قوانين الضمان الاجتماعى الجديدة.. وهى القضية التى جعلت العالم الدستورى البريطانى المعروف السير (ايفور جننقز) يكتب مقالا من أكثر ما قرأت وعيا فى مجلة هارفرد للقانون (العدد رقم ٤٩) يدعو فيه لإنشاء قضاء إدارى فى بريطانيا حماية لتشريعات الضمان الاجتماعى. وجاء فى مقال جننقز بأن القضاء الإدارى يضمن عدم تحريف القوانين ضد المصلحة العامة إذ أن القضاة التقليديين يحكم تدريبهم وتكوينهم المهنى يعمدون إلى المحافظة أكثر من التجديد.

إذن فحتى فى بريطانيا المحافظة - يوم إن أرادت أن تقوم بحركة اجتماعية متواضعة انعكست فى تشريعاتها أدرك الناس أن استقلال القضاء لا يمكن أن يعنى منح القضاة سلطات مطلقة فى تفسير هذه التشريعات وتطبيقها بصورة تؤدى إلى هدم كل الأسس التى يقوم عليها النظام الجديد.

وحتى فى الظروف العادية فإن مبدأ الإشراف السياسى على القضاء مقبول ومعمول به فى دول الغرب التى يراد منا اعتبارها المرجع الأول والأخير، فرئيس مجلس اللوردات الذى يجلس على قمة الهرم القضائى فى بريطانيا سياسى يختار من بين ساسة الحزب الحاكم. وبالرغم من أن حكومات بريطانيا المتعاقبة تعمد إلى

إختيار المرموقين من رجال القانون لشغل هذا المنصب إلا أن بعضها قد استغل المنصب لفرض سيطرة حزبية أو اتجاه سياسى معين. فماكميلان بالأمس - فى تعديله الوزارى الأخير الكاسح والذى أسمته صحافة بريطانيا بالمجزرة قد أخرج رئيس مجلس اللوردات (اللورد كلموير) ليضع مكانه أقرب الأقربين إليه فى حزب المحافظين (ابن عمته ووسيطه فى الأحداث الجسام) السير مانجهام بلر Maningham Buller الذى أصبح فيما بعد (اللورد ديلهورن).. وليس له من فضل ولا مكانه إلا القربى لهارولد ماكميلان وعلائق ايتون واكسفورد والأندية الاجتماعية. بل إن زملاءه فى مجلس العموم كانوا يسمونه (Sir Bullying Manner) تحريفا لاسمه واستهزاء به.. وقد أراد ما كميلان بهذا التعيين أن يفرض سلطانه الشخصى فى كل مكان.. صديقه لايزل الرابع عشر لمقاطعة هيوم فى ديوان الخارجية.. وابن عمتهماننجهام على رأس القضاء.. وزوج ابنته جوليان ايمرى فى وزارة الحربية والذى حدث فى بريطانيا يومها لم يكن فى تقدير صحف بريطانيا وتابعيها فى الخارج اعتداء على المؤسسات المقدسة، ولا محسوبية ولا استغلال نفوذ، ولا نموذجًا من نماذج السيطرة الشخصية.

نكروما وعبادة الفرد

وتكتمل الصورة السوداء التى تريد صحف الغرب رسمها (للطاغية نكروما) والحديث عن تأليهه لنفسه، ووصفه لها بالمنقذ والفادى وأهل غانا لم يطلقوا على نكروما اسم الأوساجيفو أو (المنقذ) فحسب.. بل اسموه (بالكاتمانكو) أى المعصوم عن الضلال و(النوقينو) أى المنيع و(الكوكودورينى) أى المعصوم عن الضلال و(الأسوندويهين) أى (المرفق والمصلح)، ونكروما كان يعرف قبل غيره أنه ليس بمعصوم عن الخطأ، وليس بالقادر القهار، وليس بالذى يحيى ويميت، إن فهمنا لهذه المسميات يجب أن يكون فى نطاق التكوين السوسيولوجى للقارة الأفريقية، وفى مجتمعاتها البدائية التى تسيطر عليها الخرافة والسحر. وهذه قوي اجتماعية لا يمكن انكارها ولا اغفالها وإلى أن يتم القضاء عليها عن طريق الترشيد ونشر الوعى لا يملك الحاكم إلا أن يستغلها إن أراد استغلال كل الطاقات الكامنة فى الأمة وتوجيهها. ومثل

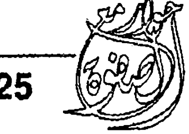
هذه الأفكار - إن استطعنا تسميتها بالأفكار تتملك على الناس مشاعرهم. فالسحر مثلا هو الذى لعب دورًا أساسيًا فى حركة (الماو ماو)، ولم تكن دعوة كينياتا دعوة من أجل الحرب والاستقلال - فالكيكويو ما كانوا ليفهموا ما يقول الرجل لو فعل هذا - وإنما كانت دعوة لتحرير أرض السود من المغتصب الأبيض، دعوة غذوها بالقسم على أسنة الرماح وبتجرع الدماء الساخنة - ما اسمته صحافة الغرب يومها بالوحشية. و(جومو) كان يومها أعلم الناس بأن ما يفعله هذا أمر سخيف ولكنه ضرورى إن أراد تأليب مشاعر أهله وحثهم للوقوف صفا واحد من ورائه فى سبيل تحرير كينيا.

إن كوامى نكروما وهو واحد من أكثر زعماء أفريقيا ذكاءًا، وأغناهم ثقافة، وأوضحهم رؤية، ما كان ليظن بأنه إله أو نصف إله. ولكنه ككل قائد رشيد يعرف طاقات جنوده وقدراتهم ما كان له إلا أن يحثهم بالأسلوب الذى يعون، ويخاطبهم باللسان الذى يدركون.

فلسفة الوعى بالذات.. والعودة إلى الأصول

قلت أن نكروما الذى تريد صحف الغرب أن تضفى عليه قسرا (رداء الشيوعية) استمد فلسفته من دراسته فى الغرب ومن استقرائه لتاريخ أفريقيا ومن إحساسه العميق بأمجاد القارة فى ماضيها البعيد والقريب.. حضارة النوبة فى وادى النيل.. ودولة البربر فى شمال القارة... ومجد الإسلام بعد الفتح العربى.. ودويلات مالى وغانا وغينيا فى الغرب والزامبيوى فى الوسط. ولخص كوامى لكل ذلك فى مؤلفه قبل الأخير الذى اسماه (الوعى بالذات). والأساس الروحى للفلسفة النكرومية هو معالجة كل فرد كفاية ونهاية فى ذاته. وتحليله يقول بأن القوى الكامنة الأصيلة فى أفريقيا قد أرادت أن تبتلع القارة وتهضم كل العناصر الوافدة الغريبة.. مسيحية كانت أم إسلامية.. سامية أم حامية.. ونتاج هذا الهضم خرجت للعالم الشخصية الأفريقية.. كائن جديد واضح القسمات، بارز المعالم.

واليوم والقارة الأفريقية تخوض ثورتها الاجتماعية والاقتصادية لا يملك المرء أن ينسى هذه الخصائص الأصيلة الكامنة. بل لابد له أن يأخذها بعين الاعتبار فى



معركة تشييد المجتمع الاشتراكى الجديد. وقد توصل كوامى إلى معادلة بسيطة لخص بها هذه الفلسفة والمعادلة التى أوردها نكروما فى كتابه (الوعى بالذات) تقول بأن:

ش = م + ذ + و

إذن فالتحليل الرياضى للاشتراكية الأفريقية هو:

اشتراكية = مادية + وعى ذاتى + وحدة

وقد يختلف بعض الزعماء الأفريقيين الآخرين مع نكروما فى العنصر الأول من الطرف الثانى للمعادلة.. المادية.. نكروما ينادى بها لأنه ظل يعلن من أيام مانشستر عن إيمانه بالفكر الماركسى. ولكن هناك زعماء كثيرين ارتضوا الاشتراكية منهجا رافضين أساسها المادى ونابذين شمولها الفكرى ولكنهم يتفقون جميعًا على العنصرين الثانى والثالث.. الوعى الذاتى.. الكيان العربى المسلم عند أهل مصر وسوريا والجزائر... والشخصية الأفريقية عند أهل غانا وغينيا ومالى وتنزانيا. والعنصر الثالث يرتبط ارتباطا وثيقا بالثانى لأن استرداد الشخصية القومية وصيانتها يتطلب من هذه الدول - وكلها ضعيف - التآزر والاتحاد.

الوعى الذاتى... والتربة الوطنية

قلت إن قادة أفريقيا الصاعدة أدركوا أن الفلسفة الجديدة لكيما تلقى القبول لابد أن تمتد جذورها ضاربة فى أعماق التربة الوطنية. وقد شهدنا كيف أن الإسلام - بين الدول المسلمة - قد لعب دورًا كبيرًا فى تكييف النضال الوطنى، وبين أيدينا نماذج كلاسيكية.. الثورة المهدية فى السودان فى القرن التاسع عشر والثورة الجزائرية فى هذا القرن.

وفى وطننا العربى نلتفت اليوم إلى الدول الرائدة وهى تطبق المنهاج الاشتراكى. فنرى أنها تتحدث فى ميثاقها عن ثورتها العظيمة التى لا تتحقق إلا «بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية وبايمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى».

ونرى الجزائر تقول فى ميثاق طرابلس(*) ومن بعده فى ميثاق الجزائر «إن الجواهر العربى الإسلامى قد شكل حصنا منيعا ضد تهديم الجزائر من طرف الاستعمار.. وعلى الثورة الجزائرية أن تعيد له وجهه الحقيقى.. وجه التقدم»..

وعندما تفعل الاشتراكية فى الوطن العربى هذا لا تفعله بدافع الحماس العنصرى الضيق، ولا الشعبية الرعناء، وإنما إدراكًا منها بأن الفلسفات السياسية التى لا تعترف فى تطبيقها بالواقع المعاش فى مجتمع معين فى فترة معينة إنما هى فلسفات لن يكتب لها البقاء. والفكر السياسى اليوم علم يخضع لكل ما تتبع له العلوم البحتة من مقاييس فى الاقتراض وفى التحليل وفى التطبيق وفى الحكم. فبن بيلا مثلا عندما كان يتحدث إلى وفد إتحاد الصحافة الديمقراطى فى مؤتمهم العام ويقول «اتركوا لنا الله وسنمضى معكم إلى أى حد تريدون فى الاشتراكية العلمية» كان يعنى شيئا أبعد ما يكون عن «الدروشة» السياسية. وعندما كان يتحدث عن اشتراكية محمد وهو يوصى موظفيه بالتقشف كان ينصرف بذهنه إلى قول الرسول الكريم «اللهم أجعل عيش آل محمد كفافا».. وعندما كان يتحدث عن ابن خلدون كان يذكر بعض الناس بما فاتهم فى تاريخهم.. فابن خلدون لم يسمع بسان سيمون ولم يقرأ عن ماركس ولكنه جاء للفكر الإسلامى، بل الإنسانى، بالرأى القائل «أعلم أن إختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف غلتهم من المعاش» ـ الباب الثانى من الفصل الأول.. وبغلتهم من المعاش أراد ابن خلدون أن يشير إلى ما نسميه اليوم بوسائل الإنتاج. ويمضى بنا المؤرخ العظيم للقول بأن مزاج الشعوب وعوائد حياتها إنما تحدده علائق الإنتاج هذه. وأن هذا المزاج ليس بالأمر النهائى لا يتبدل ولا يتغير وإنما تغييره وتبدله رهين بقبول وسائل الإنتاج وعلائقه.. نعم جاء ابن خلدون للفكر العربى برأى لو نادى به مناد اليوم لما سلم من تهمة الارتماء فى أحضان «فرانكشتاين الأحمر».

(*) ميثاق طرابلس هنا هو أول ميثاق عمل وضعته جبهة التحرير الجزائرية دليلاً لعملها الثورى فى مدينة طرابلس فى عام ١٩٦٢.

أما فى قلب أفريقيا فقد ارتبط الحديث عن العودة للأصول بالحديث عن الزنجية فنكروما قد استمد أفكاره الأولى من فيلسوف من أكبر فلاسفة الزنجية.. «ماركوس جارفى» فى أمريكا. وماركوس جارفى الزنجى الجامايكى كان يظن أن خلاص الزنج فى العالم الجديد لا يتم إلا بتحرير أفريقيا. وقد ظل جارفى وحواريوه يظنون لأمد طويل أن محجتهم فى العالم هى أثيوبيا لسببين: أولهما أنها البلد الزنجى الوحيد المستقل... وثانيهما أنها البلد الزنجى الوحيد الذى اقتص للزنج من الرجل الأبيض بانتصار منليك الساحق ضد الإيطاليين فى موقعة عدوه.

تصدر نكروما الدعوة وقبل أن يكون رأس الرمح في حركة البعث الزنجى هذا بعد أن عاش الإذلال الأبيض فى أفريقيا وذاق مرارته فى أمريكا وشهد وجهه الكالح فى بريطانيا. واستقلت غانا لتفتح أبوابها لمرموقين من الزنج.. (جورج بادمور) جاء من بريطانيا ليصبح مستشارًا سياسيًا لنكروما.. (وآرثر لويس) جاء ليصبح مستشاره الاقتصادى.. و(دبوا) جاء من أمريكا ليؤرخ التطور الاجتماعى والسياسى لأفريقيا الزنجية.. وتبعهم فى السنوات الأخيرة يساريو جنوب أفريقيا الذى جاءوا ليسهموا فى نشر الوعى الاشتراكى فى معهد نكروما للدراسات الفكرية. وكان الرجل فى كل خطوة خطاها منطقيا مع دعوته التى بشر بها منذ أن كان يافعًا يجوب الآفاق إلى أن أصبح الحاكم الذى يأمر فيطاع.

وواقع الأمر أن أثر فلاسفة الزنج هؤلاء لم يكن بوقف على نكروما، فقد أثر مفكرو الزنج من أمريكا والبحر الكاريبى تأثيرًا واضحًا على أغلب الحركات الوطنية الأفريقية.... (ايمى سيزار) المارتنيكى هو الأب الروحى لدعوة الزنجية والإنسانية التى يدعو لها (ليو بولد سنغور). والنواة الأولى للتفكير الأفريقى الثورى المعاصر استمرت بعض جوانبه من (فرانز فانون) المارتنيكى الذى ترك مستشفاه فى البليدة لينضم إلى صفوف المحاربين الجزائريين يلهب حماسهم بما يكتب... يحدد معهم ملامح مجتمع الغد الجديد بما يحرر.

العودة للأصول.. والوحدة الأفريقية

ارتباط الوحدة بالدعوة للأصول ارتباط وثيق. وحديث القوة فى القوة حديث قديم. وساسة أفريقيا الجديدة، وهم يسعون لخلق كيان سياسى جديدة فى القارة، لابد لهم من وضع حد لتلك (البلقنة) التى فرضها الدول الاستعمارية فى مؤتمر برلين عام ١٩٩٥ فقد أدى ذلك التقسيم الاعتباطى وأدت معه سياسة اقتسام مناطق النفوذ التى تبعته إلى التفريق بين أفراد القبيلة الواحدة.. (الاشانتى) بين ساحل العاج وغانا.... (الابوى) بين توجو والداهومى (الهوسا) بين شمال نيجيريا والنيجر.. (الزاندى) بين السودان والكونجو وأفريقيا الوسطى.. (اللندى) بين أنجولا والكونجو.

ولذا فقد كانت أولى الأولويات فى سياسة نكروما عقب الاستقلال هى العمل على تحرير القارة الأفريقية بهدف توحيدها مستقبلاً. فصيانة استقلال غانا لا يتم إلا بتحرير جاراتها. ولم يكن هذا بالحديث الذى يردد فى المجالس ويعود الناس ليفعلوا من بعده الأفاعيل. لقد قام نكروما أكثر من أى قائد آخر فى أفريقيا بالعمل الجاد الصارم من أجل تحقيق هذه الغايات السامية. يوم استقلال غينيا بعد أن خرج منها الفرنسيون ونزعوا عنها كل مظاهر الحياة الجديدة لم تجد الدولة المنهوبة من عون فى أسبوعها الأول إلا من نكروما الذى منحها ـ دون قيد أو شرط أو صك ـ ١٠ ملايين من الجنيهات لتسير بها دولاب الحياة.. ويوم وقف لومومبا يستثير الشعور الوطنى فى الكونجو ـ واستقلال الكونجو فى ذلك الوقت كان وهما وحلما ـ لم يجد الرجل من يحتضنه ويقدمه للعالم غير نكروما فى أول اجتماع للحكومات الأفريقية فى أكرا عام ١٩٥٨ و(هاستنقز باندا) الذى يملأ الدنيا ضجيجا اليوم ما كان ليصبح رئيسا لدولة لولا السنوات التى قضاها فى غانا هو وحزبه على ما قدمه لهم نكروما من عون. واخراج جنوب أفريقيا من الكمنولث ما كان ليتم لولا تهديد نكروما ونيريرى بتركهم لذلك المنتدى الدولى.. وغير هذا من الأمثال عديدة.

ومرة أخرى كان الذى فعله نكروما فى سبيل تحقيق الوحدة الأفريقية متمشيا مع منطق دعوته التى سار فيها بلا إنحراف ولا انثناء، حتى أصبح الرجل رمزًا للدعوة. وتمثالا للوحدة. لقد كان مظهرًا رائعًا فى الأسابيع التى تلت اسقاط نكروما أن يقود طلاب الداهومى والفولتا العليا فى جامعة داكار المظاهرات الصاخبة ضد اقصاء نكروما الغانى وهم الذى لم يتحرك لهم ساكن بالأمس القريب يوم أن أقصى عن الحكم رئيسهم موريس ماميوتو.. وبالأمس البعيد يوم أن أقصى رئيسهم هيوبرت ماجا. وكان مظهرا أروع أن لايجد أقصاء نكروما من إشارات الابتهاج والأعجاب فى أفريقيا إلا عند سيرنانا فى مدغشقر.

إن الذى كتبه رونالد سيقل وهو يؤرخ لنكروما فى كتابه (ملامح شخصيات أفريقية) قبل بضعة أعوام ليصدق اليوم أكثر منه فى أى يوم. ختم سيقل ـ وقد نقد نكروما بلا هواده ـ مقاله بالقول بأن فشل نكروما إنما صدر عن خطأ التقدير وليس عن فقدان الخيال. ونعى نكروما اليوم سابق لأوانه.. بيد أن الرجل قد أدى للقارة التى يهواها أكثر من أى من هؤلاء ـ فى داخل أفريقيا وخارجها ـ من الذين يحاولون الانتقاص من قدره.

أشرت من قبل إلى الخطاب الرائع الذى أرسله (ايريك كلافرنج) إلى جريدة (الجارديان) وقد راق لى وصفه للمحاولات التقليدية لمعالجة مشاكل أفريقيا الاقتصادية بأنها محاولة للصعود على سلم كهربائى هابط. لقد حاول نكروما ـ كما يحاول غيره ـ كل الحلول.. تنويع المحاصيل.. مضاعفة الإنتاج.. التوسع فى التصدير.. التعاون والامتيازات الجمركية مع جاراته ولكن بدا له ـ بحق ـ أن كل هذه مسكنات. فزيادة الإنتاج والتوسع فى التصدير إلى الأسواق التقليدية لا يعنى شيئًا طالما ظلت هذه الأسواق هى التى تتحكم فى الأسعار صعودًا وهبوطًا، وعائد هذه الصادرات لا يعنى شيئًا طالما ظللنا نعيش على استيراد كل بضائعنا المصنوعة من نفس الجهة وهى تفتعل الحاجة إليه افتعالا، وفى النهاية سيعنى هذا الانخفاض المفتعل فى أسعار الصادرات والازدياد المطرد فى استيراد المصنوعات من نفس الأسواق... سيعنى أن

يزداد البائع الغربى ثراء على ثرائه.. وأن يزداد العامل والفالح الإفريقى فقرًا على فقره.

ومن هنا جاء التفكير فى انتهاج طريق فى الاقتصاد ضمن أول ما يضمن كسر هذا الطريق الذى يمنع الاقتصاد الوطنى من الإنطلاق ويجعل من أوطاننا مستودعًا للمواد الخام وسوقا رهينة لمصنوعات الغرب، وبالتالى فريسة سهلة إلى أنواع الضغط والسيطرة، والمنهج الذى آثرت أفريقيا سلوكه هو الطريق الاشتراكى الذى يمكن الشعب من استرداد ثروته المنهوبة.... من السيطرة على مقدراته الاقتصادية.. من ممارسة ارادته الكامنة على وسائل إنتاجه. وبدون هذه السيطرة وبدون هذه الإرادة لن يكون الشعب سيدا على أرضه. بل سيظل ـ كما كان ـ عبدا للاحتكارات الدولية، وأحلافها المحللين.. اقطاعا كانوا أم رأسماليين.

ثورة فى الصناعة... وثورة فى الزراعة

وفى غانا بدأ نكروما تطبيقه الاشتراكى وفق سياسته (التجريبية) التى تؤمن بتطويع النظريات للواقع المحلى. فما هى ملامح هذا التطبيق؟

لم يلجأ نكروما إلى سياسة تأميم شاملة للمرافق الاقتصادية أو اقصاء كامل للمبادرة الغربية فى الاقتصاد الوطنى. بل عمد إلى خلق نظام يضمن السيطرة الشعبية على المشروعات ووسائل الإنتاج الكبرى ويبيح لرأس المال الوطنى حرية العمل فيما دون ذلك من المشروعات، شريطة أن يلتزم بأهداف الخطة العامة. وفى واقع غانا الاقتصادى لم يكن أمام الرجل أن يفعل غيرما فعل وهو فى أول الطريق والخصوم يتربصون به الدوائر.

ففى الزراعة ـ ميدان أكبر الانتصارات الاشتراكية الغانية ـ الغى نكروما نظام (الابوزا) الذى عرفته مزارع الكاكاو فى جنوب غانا. والكاكاو نبات كثير الجزاء ولا يكلف إنتاجه جهدًا. ونظام (الأبوزا) كان يقضى بأن يحصل الفلاح على ثلث عائد المحصول على أن يذهب الثلثان إلى مالك الأرض. وكان من أولى القوانين التى

أصدرها نكروما قانون الصندوق المشترك للإنتاج القومى، ويقضى هذا القانون بأن ينال المالك غير الثابت ثلث العائد، على أن يذهب الثلث الآخر إلى هذا الصندوق لانفاقه على مشروعات التنمية سواء كان ذلك فى الجنوب حيث مزارع الكاكاو أو فى أجزاء القطر الأخرى حسبما تتطلبه خطة الإنماء.

وبجانب هذا! أنشأ نكروما مزارع الدولة فى أراضى الملاك التى استولى عليها، وتركز هذه المزارع جهودها اليوم فى إنتاج البقول والحبوب لسد احتياجات المراكز الحضرية. وبلغ عدد هذه المزارع عام ١٩٦٥ ما يزيد على المائة مزرعة، تبلغ مساحتها حوالى الثمانين الفا من الأفدنة، وكان من المقرر أن ترتفع فى خطة التنمية الحالية إلى مائتى ألف فدان.

وفى المحيط الزراعى أيضا أنشأ نكروما (حقول التوطين) وهى مزارع كبرى يشرف عليها شباب الحزب ويتخذون منها مراكز للتربية الوطنية.. ويعيشون مع أهل القرية ويعينونهم فى حياتهم الاجتماعية.. ويشتركون معهم فى الفلاحة والرى.. محاولين بكل هذا إشاعة الفكر الاشتراكى الجديد. بالقدوة الحسنة والترشيد الواعى.

أما فى الصناعة فقد فطن نكروما منذ البداية إلى أن كسر الطوق لا يتم إلا بالتصنيع، فهو المنفذ الوحيد للتحرر من الاتكالية على أسواق أوروبا وبالتالى الخضوع لسيطرة دوائر المال فيها. وهكذا شهدت غانا فى خطتها الأولى مولد المشاريع الصناعية الكبرى.. صناعة الصلب.. صناعة تقطير البترول.. صناعة النسيج.. مشروع الفولتا الذى سيسد عند اتمامه حاجة غانا وحاجات جاراتها فى الشمال من الكهرباء. وبهذه التجربة الثورية قلبت غانا إحدى الأوهام الاقتصادية التى حاول الغرب غرسها فى رؤوس الأفريقيين وهى أن بلادهم يجب أن تظل مستودعًا للمواد الخام وأسواقًا أسيرة للبضائع الجاهزة من أوروبا. والإنقلاب الكبير فى غانا اليوم هو أن صناعاتها الكبرى تعتمد على مواد خام ترد من البلاد المتقدمة صناعيًا فالنفط الذى يقطر يرد من الإتحاد السوفيتى والقطن الذى ينسج يرد فى أمريكا.

ولكيما تتم هذه الثورة الاقتصادية فى الميدانين الزراعى والصناعى فتحت غانا أبوابها للاستثمار الذى يفد إلى البلاد بهدف الربح الشريف، والذى لا تتبعه سيطرة ولا يلحق به تسلط. ومن المذهل حقا أن يسمع المرء وسائل إعلام الغرب وهى تتحدث عن ارتباط الاشتراكية الغانية بالمعسكر الشرقى وما جره هذا الارتباط على القطر من خراب. ووسائل إعلام الغرب هذه تنسى أو تتناسى أن تقول للناس بأن أقل لاستثمارات فى غانا (وهذا هو احصاء البنك الدولى) هى استثمارات الكتلة الاشتراكية (١٥ مليون جنيه من الاتحاد السوفيتى و١٠ ملايين من بولندا ومليونين من الصين).. فى الوقت الذى تبلغ فيه استثمارات بريطانيا ٨٠ مليونا من الجنيهات. واستثمارات ألمانيا ٤٠ مليونًا، واستثمارات أمريكا ٣٠ مليونا ووسائل إعلام الغرب تنسى أو تتناسى أن تقول للناس بأن ٨٥ فى المائة من تبادل غانا التجارى يقع مع دول الغرب فى الوقت الذى لا يزيد فيه التبادل مع المعسكر الشرقى عن ١٣ فى المائة.

وفى معرض الحديث عن الاستثمارات تتحدث وسائل الغرب عن الأرصدة المالية ـ البالغ قدرها مليونى جنيه التى ورثها نكروما عن الحكم الأجنبى فبددها. ووسائل إعلام الغرب تنسى أو تتناسى أن تقول للناس أن المليونين من الجنيهات التى ورثها نكروما قد انفقت فى إنشاء المشروعات الأساسية اللازمة لأى خطة إنماء اقتصادى كالطرق والموانىء والمعاهد الفنية. وما كان فى مقدور غانا أن تستدين لعمل هذا. فالغرب لا يقدم من القروض إلا ما يستخدم فى تمويل المشتروات من أسواقهم (الحقائق هنا استمدها من جيمز فيريون فى النيوستسمان وليست من جريدة الأزفستيا!) والكاتب الذى أنقل عنه يمضى فى مقاله للقول بأن (الكارثة) استهلاك الأرصدة كان يمكن تفاديها لولا أن أسعار الكاكاو ـ محصول غانا النقدى الرئيسى ـ قد انخفضت من ٣٢٥ جنيهًا للطن فى عام ١٩٥٧ إلى ١٠٠ جنيه للطن فى هذا العام.

الإنماء الاشتراكى... والتقشف

وتمضى صيحات المذعورين ـ إن حقا وإن كذبا ـ تتحدث عن فشل التجربة الاقتصادية الجديدة لأن متاجر غانا تشكو الإدقاع، وأسواقها قد أضحت بلقعا من

فرط الإسراف فى قيود الاستيراد. وينصحب هذه الشكوى ذرف الدموع على (الأيام السعيدة الماضية). إن الذين يرون فى مظاهر التقشف هذه إنهيارًا للاقتصاد هم أقل الناس إدراكًا لمتطلبات الإنماء الاقتصادى. فالتنمية الاقتصادية ـ حتى تحت ظل النظام الرأسمالى ـ لتتطلب التضحيات وجلها يفرض فرضا... والطريق الاشتراكى الذى لا يهدف فقط إلى زيادة الإنتاج بل يسعى إلى إعادة النظر فى أسس توزيع الثروة، وفى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التى تتبنى على هذه الأسس، ليتطلب المزيد من التضحيات.

ولكن الحقيقة التى تسكت عنها وسائل إعلام العرب هى أن سياسة التقشف فى غانا لم ينصح بها مستشارو نكروما (السوفيت) ـ فيما يحلو للغربيين أن يقولوا وإنما نصح بها (نيكولاس كالدور) أستاذ الاقتصاد فى كامبردج وأحد أعضاء ما يسمونه (بأركان حرب التخطيط الاقتصادى) فى حزب العمال البريطانى والذى يضم الثلاثى (كالدور ـ ماكدوجال ـ وتوماس بالوق)... نعم إن كالدور هو أب سياسة التقشف وهو الذى أوصى بقانون الإدخار الإجبارى الذى قضى بأقطاع ٥ فى المائة من رواتب الموظفين وأجور العمال.

إن هذه الأصوات المبحوحة التى تردد ما تردد اليوم فى غانا قد سمعها الناس ـ ويسمعونها ـ فى مصر تتحدث عن انهيار الاقتصاد المصرى لأن مقاصف مصر لا تقدم وجبات اللحم الطازج كل صباح.. ولأن حوانيتها لا تتوفر فيها شفرات الناست.. ولأن متاجر العقاقير فيها لا تمد الناس بأملاح الأندروس. ومثل هذا الحديث سخيف ممعن فى السخف. فلو صدق قائلوه مع أنفسهم لقالوا بأن الموسرين من أهل مصر لا يأكلون اللحم كل صباح.. ولا يعثرون على شفرات الناست وأملاح الأندروس.. والموسرون هؤلاء ـ اشتراكية أو لا اشتراكية ـ لم تكن تجول بخواطرهم فى الماضى سانحة واحدة عن ما يقاسى الملايين من ادقاع فهم (مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال إلى المال، وضم الثراء إلى الثراء، وبالذات التى لا يفرغون من بعضها إلا ليقبلوا على بعضها الآخر، ولا

يستريحون منها إلا ليستأنفوا العكوف عليها والأمعان فيها) والصورة الرائعة رسمها شيخ أدباء العربية الدكتور طه حسين فى سفره العظيم (المعذبون فى الأرض) الذى كان يصور بحق وجه مصر الكالح إبان حكم الإقطاع والإذلال.

نعم إن هؤلاء هم الموسرون الذين يتباكون اليوم لا رأفة بجمهرة الشعب فى مصر ولكن حزنا على نهاية وضع كان يوفر لهم وهم الأقلون العيش الرغد.. ويفرض على من بقى من أهل مصر ـ وهم الأكثرون ـ الفاقة والإملاق. فأهل مصر الذين تخطط وتبنى ثورة مصر اليوم لهم لم تكن السنتهم ـ فى عهد المتباكين هؤلاء ـ تذوق طعم اللحم إلا فى المواسم... هذا لمن قدر منهم.. هم من وصفهم يومها (يحيى حقى) من كتاب مصر فى (قنديل أم هاشم) بالكم المهمل... (بولهم دم وبرازهم ديدان)... وهؤلاء لن يطلب منهم أحد التضحية فلم يبق لهم اقطاع القرون ما يضحون به. وزعماء مصر الجديدة رغم إدراكهم بأن التضحية إنما هى تضحية القلة من الموسرين لم يسعوا الإنتهاج السبيل الدموى فى تطبيقهم الاشتراكى كما انتهجه غيرهم.. ولو فعلوا هذا لما ظلموا لأن مروجى مثل هذا الحديث عن الارهاق الاقتصادى إنما هم ـ فى يقينى ـ أهل ضلال وأهل الضلال هؤلاء لن يبلغ فيهم الحاكم الرشيد ما يريد حتى يخوض إليهم الباطل خوضا. ليس هذا فقط بل إن حكام مصر الجديدة قد آثروا كبح جماح الثورة الدموية العنيفة حتى يوفروا للموسرين شيئا من (البحبحة).. ودون الناس خطاب ناصر مصر فى غرة مايو من هذا العام.

إن أهل مصر كأهل كل البلاد النامية الجديدة ـ وأعنى بذلك سواد الشعب العامل ـ لن يرهقهم هذا التقشف المزعوم.. فهم يعيشون اليوم ـ لا كما كانوا يعيشون بالأمس ـ .. يعيشون اليوم على أمل فى الخير الذى تلوح بشائره فى الأفق. يعيشون اليوم على أمل فى لقاء فى الغد القريب مع القدر الواعد بالخير العميم. والذين يتحدثون عن سياسة التقشف والخراب الاقتصادى لا يذكرون أن فى مصر قناة قد أممت لتعود إلى أهل مصر ملايينهم المنهوبة.. وأن هناك صحارى جرداء تغتصب من يد الطبيعة بالبحث العلمى الهادف. والجهد اليدوى المضنى لتجود فى الغد القريب بالزرع والضرع. والذين



يتحدثون عن سياسة التقشف هذه لا يذكرون أن فى غانا سدًا منيعًا فى الفولتا انفقت فيه غانا من خزائنها وحدها ما يقارب المائة مليون من الدولارات.. وأن هناك مصنعًا للصلب زحم إنتاجه الأسواق.. وأن هناك مشروعًا للكهرباء سيقلب وجه الحياة فى ريف غانا.. وأن هناك محاولة جادة لإنهاء السيطرة الأجنبية على الاقتصاد الوطنى.

وفى إطار كهذا.. جهد عظيم وتسامح كريم كان يجب على الموسرين ـ وهم الأقلون ـ أن يقبلوا القليل من التقشف الذى اقتضته معركة الإنماء.. وفى إطار كهذا لا يملك المعسرون ـ وهم الأكثرون ـ إلا أن يعزوا أنفسهم بعظيم المنجزات التى تغير وجه الحياة فى بلادهم من بعد أن كادوا يفقدون الأمل فى أى تغيير من فرط ما أوحى إليهم به الرجعيون والقدريون.. ولا يملكون إلا أن يعزوا أنفسهم بأن على رأسهم اليوم قيادات تعيش مشاغل شعوبها.. بل وتعيش كما يعيش أى فرد عادى من شعوبها.. فمثل كوامى نكروما الذى يعيب عليه الناهشون تشييده لقصر الوحدة الأفريقية وهم الذين يمجدون بناة القلاع فى عبدان وتطوان متلفين بذلك المال والنشب فى سبيل ذواتهم الفانية، لجدير بأن يوله أهلوه الثقة ويمنحونه التأييد وقد رأوا له الجزل من المواهب هذه، وناصر مصر الذى يعيش بين أهله لا كما يعيش حكام مصر.. شتاؤهم فى كارلسباد وصيفهم فى أكس ليبان.. من حق أهل مصر أن يعلقوه الآمال كما علقها النواسى بالأمس على خصيب مصر:

نعم من حقهم أن يولوه السند، ويحبونه بالمؤازرة حتى يرد لهم كرامة سلبت وينزل منهم أهل الخوف فى كنف الأمن.

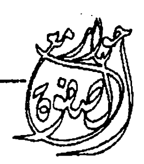
قد علقنا من الخصيب حبالا	**أمنتنا طوارق الحدثان**
حية تصدع الرجال إذا ما	**سارعوا راية على الأذقان**
وإذا ما جرى الجياد طواها	**أو مضى العنان يوم الرهان**

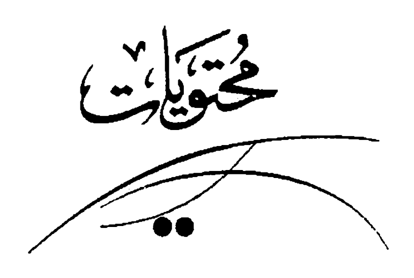
وبعــد...

.... وبعد فإن البهجة التى تطفح على وجوه الغربيين، وتفيض بها صفحات صحفهم إنما هى طعنة لكل أفريقى واع بذاته. فسقوط نكروما - عندهم - ليس هو بسقوط رئيس دولة تعاديهم أو سقوط نظام لا يمالئهم.. وإنما هو - عندهم - انهيار الكيان الأفريقى المتحرر ولما ترتفع عمدانه، وانتهاء الوحدة الأفريقية ولما ترسى قواعدها. ونهاية نكروما - عندهم - إنما هى نهاية فارس المعركة الذى لا ينثنى وبطلها الذى ترمى الحروب به للحروب.

والذين يبتهجون لا يقرأون التاريخ، ولا يعون عبرته. والتاريخ كتاب مفتوح لمن يقرأ ويعى، ولئن خسرت أفريقيا المعركة بسقوط نكروما... فقد كسبت الحرب بفتح الأعين للمكر الذى يعده الاستعمار وسدنته ضد الثورة الأفريقية.

■ ■ ■





● مقدمة ٥

● مقدمة بقلم: جمال محمد أحمد ١١

■ **ملامح المجتمع الجديد** ٢١

● الهيكل الدستورى بين الحزب الواحد والجبهة المتحدة ٢٣

● الكيان الاقتصادى بين التوجيه المتردد والاشتراكية الهادفة ٣١

● الخدمة المدنية بين المصلحة العامة والماسونية المستريبة ٣٩

● الدبلوماسية السودانية فى أسلوبها ومحتواها وهيكلها ٤٧

● الشخصية السودانية والتخطيط التربوى والثقافى ٥٧

● الجامعة وجذورها فى التربية السودانية ٦٧

■ **يوم أكل الثور الأبيض الشيوعية... وخطرها الداهم** ٧٧

● الدين والأخلاق ٧٩

● مدلول الحرية الدستورية بين سودانى ١٩٥٦-١٩٦٥ .... ٨٥

● الشيوعيون والعالم الثالث ٩٣

■ **حوار مع الصفوة** ٩٧

● السودان بين اليأس والعدم ٩٩

● حديث عن القومية ١٠٥

● الثقافة السودانية وامساخ التالودميد ١١١

● الإسلام بين محمد ويزيد بن المقفع ١١٧
● خيار بين الكارثة والفجيعة ١٢٣
● بلاد من؟ ودولة من؟ ١٣١
● بين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة ١٤١
● يا له من ببغاء عقله فى أذنيه (١) ١٤٩
● يا له من ببغاء عقله فى أذنيه (٢) ١٦١
● الخواطر العشر (١) ١٦٩
● الخواطر العشر (٢) ١٧٥
■ **مزيد من الحوار** ١٨١
● وعندى إذ اعيى البليغ مقال ١٨٣
● الانتماء الزمانى والانتماء الوجدانى ١٨٧
● حديث مع أهل الميمنة ١٩٣
● حديث مع اليسار ٢٠٥
● أفريقيا بلا نكروما هاملت بدون أمير الدنمارك ٢١١



الطبعة الثانية
2010



الخرطوم ـ العمارات ش 41 من محمد نجيب
م: 0122102076
eliasfann@hotmail.com



د.منصور خالد

أياما قليلة بعد أكتوبر سنة - ١٩٦٤

تصدر هذه البحوث وأنين أوجاع ميلادنا الجديد حولنا من كل جانب.

فى الحادى والعشرين من أكتوبر الماضى ، انفجرت الزايده ، وكانت فى بطون قومنا تقاوم سنوات، تقاوم منذ وليت مراتب الجيش العليا شئون البلاد حين عجزت الأحزاب عن كلمة بينها سواء ، وراحت رجالات أحدها تدعو هذه الفئة أن تعالى ، تسلمى الأمر قسمة بيننا وبينكم ، وكان الذى كان مما يعرف الناس . استأثر الجيش بالأمر كله ، وأحسن فى السنوات الست تارة ، واساء تارات . كان أكثر ما غاب عنها مكان الصفوة فى السودان .

منصور واحد من هذه الفئة الجديدة التى تعد بالمئين عندنا الآن ، وهو يرقب فى اعتدال المزاج الذى عرف به السودان ، يومه هو ولداته فى القيادة الراشدة ، وهو يوم قريب لا أتردد فى أن أؤكده تأكيدا . أقرأ هذه التجربة التى نعيشها اليوم. سننتهى لجديد يقوم على التجربة والمعرفة والكدح ، مهما طال بنا المطاف.



الطبعة الأولى
1974